تاريخ مصر الإسلامية

من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى

(٢٠ - ٩٢٢هـ / ٦٤١ - ١٥١٧)

دكتور

عطية القوصى

استاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر

دار الثقافة العربية

٣ ش المبتديان - السيدة زينب - القاهرة

تاريخ مصر الإسلامية

من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى

(٢٠ - ٩٢٢ هـ / ٦٤١ - ١٥١٧ م)

تأليف

الدكتور عطية القوصى

أستاذ التاريخ الإسلامى

بكلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر

دار الثقافة العربية

مقدمـــة الكتـــاب

يتناول موضوع هذا الكتاب تاريخ مصر الأسلامية عبر تسعة قرون ، منذ أن فتحها العرب حتى فتح العثمانيين لها ، وهى فترة طويلة عاشتها مصر وتقلبت على حكمها أعداد من الحكام الذين أستقلوا بحكمها عن دولة الخلافة منذ عهد الطولونيين . ووقعت فى مصر خلالها أحداث كثيرة وكبيرة وخلّف حكامها آثاراً ومعماراً مازال بعضه قائمًا حتى اليوم . وأسهم هؤلاء الحكام فى تشجيع شعب مصر خلال تاريخه على مواصلة إنجازاته الحضارية التى كانت حلقة بارزة فى سلسلة الحضارة الأسلامية خصوصًا والحضارة الإنسانية عمومًا .

وتاريخ مصر الإسلامية معزوفة رائعة فى سيمفونية التاريخ الإنسانى ومشوار مضنى قطعه الإنسان المصرى على أزمنة تعايش فيه مع حكامه وقاوم عوادى الزمن وساير آلامه وأحزانه وتصدى لمن حاول أن ينتقص من عزته وأستقلاله وكتب سطوره بعرقه ودمه وأرواح البررة من شهداء أبنائه .

وبالقطع فإن صفحات هذا الكتاب لم تستوعب كل الأحداث السياسية ولم تعرض كل الصور الحضارية التى عاشتها مصر والآثار المعمارية التى صنعها وخلفها أبناؤها بسبب طول الحقبة الزمنية وكثرة الأحداث الواقعة فيها ، لذلك أقتصرنا على ذكر الهام من الأحداث والخطير منها وأكتفينا بأعطاء عينات للمخلفات الحضارية التى خلفها أبناء مصر خلال هذه الحقبة الإسلامية الطويلة .

ولقد أعتمدنا فى أستقاء مادتنا التاريخية على المصادر الأصلية التى تحدثت عن تاريخ مصر الإسلامية وحاولنا ، قدر الأمكان ، تتبع أخبار مصر من بين سطور الكتب التى كتبها المؤرخون المحققون والمدققون والذين تنزهوا عن الأهواء وترفعوا عن المطامع الشخصية ولم يبيعوا أنفسهم للحكام ولم يتأثروا بالميل لجماعة دون أخرى أو فرقة من الفرق ذلك لأن مصرنا عزيزة علينا وتاريخها هو تراثها الخالد ومجدها التليد وهى ما نتباهى به على مر الزمن ونفخر به على سائر الأمم .

ونحن فى أمس الحاجة لدراسة تاريخنا الماضى حتى نستطيع أن نستلهم منه واقعنا الحاضر ومستقبلنا المشرق الباهر ونأخذ منه الدرس والعبر لنتعلم منها فالتاريخ هو خير معلم ودراسته هى أرقى المدارس وأعظمها . وعلينا أن نعرف أن حضارة مصر الإسلامية هى أزهى فصول الحضارة الإسلامية وأن مصر الإسلامية كانت هى حصن الإسلام المنيع الذى أنكسرت أمامه جيوش الصليبيين والمغول ، وأن مصر الإسلامية هى التى قيضها الله تعالى لتدافع عن الإسلام وتحفظه حين كانت آخر القلاع التى إستهدفها أعداء الإسلام وجندوا للقضاء عليها جنودهم وحشدوا جيوشهم ولكن أبناء مصر البواسل تصدوا لغزواتهم وهجماتهم فكتب الله لهم النصر لأنهم نصروا الإسلام وبذلك تحقق فيهم قوله تعالى « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وإنا لنرجو لمصرنا الحبيبة الرقى الدائم والعلو الزائد والسمو المستمر ، وأن يحفظها الله دائمًا من أعدائها ، وأن تكون مقبرة لغزاتها وتكون أمنًا وسلامًا لكل حبيب وصديق وبذلك يتحقق معهم قوله تعالى « أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

ولا يسعنى فى هذا المقام والكلام عن تاريخ مصر إلا أن أختتم هذا التقديم بكلمات دونها المقريزى عن مصر حيث قال : « وكانت مصر هى مسقط رأسى وملعب أترابى ومجمع ناسى ومغنى عشيرتى وحامتى وموطن خاصتى وعامتى وجوى الذى ربُى جناحى فى وكره وعش مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره لازلت مذ شدوت العلم وأتانى ربى الفطانة والفهم أرغب فى معرفة أخبارها وأحب الأشراف على الكثير من آثارها وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها .... فإن كنت أحسنت فيما جمعت وأصبت فى الذى صنعت ووضعت فذلك من عميم منّ الله عز وجل وجزيل فضله وعظيم أنعمه علىّ وجليل طوله وإن أنا أسأت فيما فعلت وأخطأت إذ صنعت فما أجدر الأنسان بالإساءة والعيوب إن لم يعصمه أو يحفظه علام الغيوب .. والله أسأل أن يُحلى هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء كما أعوذ به من تطرق أيدى الحساد إليه والجهلاء وأن يهديني فيه وفيما سواه من الأقوال والأفعال إلى سواء السبيل فإنه حسبنا ونعم الوكيل » .

المؤلف

ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعدد أسمائها

يقال أن كان أسمها فى الدهر الأول ، قبل الطوفان : جزلة ثم سميت مصر . وقد أختلف أهل العلم فى المعنى الذى من أجله سميت هذه الأرض بمصر . فقال قوم : سميت باسم مصر بن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم ، وهو مصر الأول . وقيل بل سميت بمصر الثانى وهو مصر أم بن يعراوش الجبار بن مصريم الأول ، وقيل بل سميت بمصر الثالث وهو مصر بن بنصر بن حام بن نوح عليه السلام ، وهو حفيد سيدنا نوح ، وكان جده قد دعى له . أن يسكنه الأرض الطيبة المباركة التى هى أم البلاد وغوث العباد . ونهرها أفضل الأنهار . وقد سكن مصر وعمَّر فيها ومات ودفن فيها غربى الأهرام .

وذكر أبو لهيعة أن أول من سكن مصر بنصر بن حام بن نوح عليه السلام بعد أن أغرق الله قومه ، وأول مدينة عمرت بمصر منف فسكنها بنصر بولده وهم ثلاثون نفساً منهم أربعة أولاد له قد بلغوا وتزوجوا وكان مصر أكبرهم فبنوا مصر وكانت إقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم . وكثر أولاد مصر وكان الأكابر منهم : قفط وأتريب وأشمون وصا . والقبط من ولد مصر هذا ، ويقال أن قبط أخو قفط . ولما توفى بنصر بن حام واستخلف إبنه مصر وحاز كل واحد من إخوة مصر قطعة من الإرض لنفسه سوى أرض مصر التى حازها لنفسه ولولده. فلما كثرُ ولد مصر وأولاده أولادهم قطع مصر لكل واحد من ولده قطيعة يحوزها لنفسه ولولده وقسم لهم هذا النيل ، وكانت مصر كلها على أربعة أجزاء جزئين بالصعيد وجزئين بأسفل الأرض .

وقوله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام « أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين » وقول فرعون " أليس لى ملك مصر " إنما يراد به مصر هذه ، أما المصر (بفتح الميم) فهى فى كلام العرب : الحدين الأرضين ، وهم يقولون : " إشتريت الدار بمصورها " ، أى بحدودها .

وقال الجاحظ فى كتاب « مدح مصر » ، إنما سميت مصر بمصر لمصير الناس إليها وأجتماعهم بها ، وليس لمصر هذه جمع بينما جمع المصر من البلدان هو الأمصار .

وقال أبو نضرة الغفاري من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : مصر خزائن الأرض كلها ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام : « إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » ، فأغاثه الله بمصر يومئذ وخزائنها . وقال ابن دحية الكلبي : « سميت مصر بمصر لكثرة ما فيها من الخير مما ليس في غيرها » .

فضائل مصر :

لمصر فضائل كثيرة منها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز وقرآنه الكريم أكثر من عشرين مرة ، تارة بصريح الذكر وتارة بالإيماء . فصريح الذكر في قوله تعالى :« أهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم » .

كذلك في قوله تعالى :« ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

وفي قوله تعالى :« وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّا لقومكما بمصر بيوتًا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة » .

وقال تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال :« أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » . وقال تعالى مخبراً عن يوسف :« وقال الذي إشتراه من مصر لإمراته أكرمي مثواه » .

أما ذكر مصر بالإيماء . فذلك في قوله تعالى :« ولقد بوأنا بني أسرائيل مبوأ صدق » ، وقال تعالى :« وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» . وقال تعالى « فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم » ، وقال تعالى :« كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين » .

وقال تعالى مخبراً عن قوم فرعون قولهم له :« أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض » ، يعني أرض مصر . وقال تعالى يحكي عن يوسف عليه السلام أنه قال : « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » ؛ ومصر هي خزائن الأرض كلها وسلطانها سلطان الأرض كلها . وقد قال تعالى :« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء » ، فكان ليوسف بسلطانه بمصر جميع سلطان الأرض كلها لحاجتهم إليه وإلى ماتحت يديه .

وقال تعالى ، مخبراً عن موسى عليه السلام ، أنه قال :« ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا أطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » ، وقال تعالى : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » ، وقال تعالى : « وقال فرعون ذرونى اقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم وأن يظهر فى الأرض الفساد » ، يعنى أرض مصر . وقال تعالى :« إن فرعون علا فى الأرض » ، يعنى أرض مصر . وقال تعالى حكاية عن بعض إخوة يوسف عليه السلام : « فلن أبرح الأرض » يعنى أرض مصر وقال تعالى : « أن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض » ، يعنى أرض مصر .

قال ابن عباس ، رضى الله عنه ، سميت مصر بالأرض كلها فى عشرة مواضع من القرآن .

الأحاديث النبوية الواردة فى فضل مصر :

روى عبد الله بن لهيعة من حديث عمرو بن العاص أنه قال : حدثنى عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول إذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفًا فذلك الجند خير أجناد الأرض ، قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله قال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة .

كذلك روى ابن لهيعة عن عمرو بن العاص عن عمر بن الخطاب قوله أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول أن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم منكم صهراً ونسبًا ، ويقصد بذلك أمنا هاجر المصرية زوج سيدنا إبراهيم وأم سيدنا إسماعيل ، وماريه القبطية زوجته وأم إبنه إبراهيم .

وعن مسلم بن يسار أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : أستوصوا بالقبط خيراً فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدو .

ومن كلام كعب الأحبار قوله بأنه مكتوب فى التوراة : مصر بلد معافى من الفتن فمن أرادها بسوء كبه الله على وجهه .

ومن فضائل مصر :

أن وُلد بها من الأنبياء : موسى وهارون ويوشع بن نون ودانيال وارميا ولقمان عليهم السلام . ودخلها من الأنبياء إبراهيم الخليل ويعقوب ويوسف والأسباط وارميا ، ومؤمن آل فرعون الذى أثنى الله عليه فى القرآن وإدريس الذى كان يعرف بهرمس .

ومن أهل مصر الذين مدحهم القرآن الكريم امرأة فرعون بقوله تعالى :« وضرب الله مثلاً للذين آمنوا إمرأة فرعون إذ قالت رب إبن لى عندك بيتًا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » .

ومن أهلها ما شطة بنت فرعون ، التى آمنت بموسى عليه السلام ، فمشطها فرعون بأمشاط الحديد وهى ثابتة على إيمانها بالله .

ومن فضائل مصر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج من نسائها ، مارية القبطية ، ولم يرزق بالولد إلا منها ، أنجبت له إبنه إبراهيم ومن فضائل مصر أن سكنها ودفن بها حوالى مائة صحابى ، دفن معظمهم فى سفح المقطم ومنهم : عمرو بن العاص ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، والمقداد بن الأسود وعبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وعقبة بن عامر الجهنى ، وعبادة بن الصامت ، ومحمد بن مسلمة ، ومسلمة بن مخلد ، وأبوذر الغفارى ، وأبو رافع ، مولى رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، ومعاوية بن حديج الكندى ، وعمار بن ياسر ، وكعب الأحبار إبن نافع الحميرى .

ومن فضائل مصر أنها تمير أهل الحرمين وتوسع عليهم ، وهى فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ماسواها ، وبها النيل والأهرام وأهلها يستغنون بها عن كل بلد حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد .

ويقول القلقشندى عن فضائل مصر ومحاسنها :« أما محاسنها فلاشك أن مصر مع إشتملت عليه من الفضائل وخصت به من المآثر أعظم الأقاليم خطراً وأجلها قدراً وأطيبها تربة وأخصبها زرعا وأحسنها ثماراً وأكثرها أمنًا وأمانا . ولذلك ترى الناس

يرحلون إليها وفوداً ويفدون عليها من كل ناحية وقل أن يخرج منها من دخلها أو يرحل عنها من ولجها لأنها دار الأمن والأمان وراحة النفس والاطمئنان » .

وقال الكندى فى فضل مصر :« جبلها مقدس ، ونيلها مبارك ، وبها الطور حيث كلّم الله تعالى نبيه موسى ، وبها الوادى المقدس ، وبها ألقى موسى عصاه وبها فلق الله البحر لموسى ، وبها وُلد موسى وهارون عليهما السلام ويوشع بن نون ودانيال وأرميا ولقمان الحكيم ، وكان بها إبراهيم الخليل وإسماعيل ويعقوب ويوسف واثنا عشر سبطًا . ومن فضائلها : أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها وبها ملك يوسف عليه السلام ، وبها مساجد إبراهيم ويعقوب ويوسف عليهم السلام وبها البرابى والأهرام وليس على وجه الأرض بناءٌ باليد حجراً على حجر أطول منها » .

ولما أستقر عمرو بن العاص على ولاية مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن صف لى مصر ، فكتب إليه :

« ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألنى عن مصر : أعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ويكثر فيه دبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اصلخم عجاجه وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن فى المخايل وُرق الأصائل ، فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم فناله منهم بغير جدهم ، فإذا أصدق الزرع وأشرق سقاه الندى وغذاه من تحته الثرىَ ، فبينما مصريا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء فإذا هى زمردة خضراء فإذا هى ديباجة رقشاء فتبارك الله الخالق لما يشاء الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيها ألا يُقبل قولُ خسيسها فى رئيسها وألا يُستأدى

خراجُ ثمرة إلا فى أوانها وأن يُصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها . فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل » .

وقال بعض الحكماء : مصر ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء فإن فى شهر أبيب (وهو تموز - يوليو) ومسرى (آب - أغسطس) وتوت (أيلول - سبتمبر) يركبها الماء فيها فترى الدنيا بيضاء وضياعها على رواب وتلال مثل الكواكب وقد أحاطت بها المياه من كل وجه ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، فإن فى شهر بابه (تشرين الأول - أكتوبر) وهاتور (تشرين الثانى - نوفمبر) وكيهك (كانون أول - ديسمبر) ينكشف الماء عنها فتصير أرضها سوداء فيها تقع الزراعات ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، فإن فى شهر طوبه (كانون ثان - يناير) وأمشير (شباط - فبراير) وبرمهات (أذار - مارس) تلمع ويكثر حشيشها ونباتها فتصير مصر خضراء كالزمردة ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء وهو وقت أدراك الزرع وحصاده وهو شهر برموده (نيسان - أبريل) وبشنس (أيار - مايو) وبؤونه (حزيران - يونيو) ، ففى هذه الشهور تبيض الزروع ويتورد العشب فهو مثل السبيكة الذهب .

* * *

تاريخ مصر الاسلامية
خلال تسعة قرون
(من ٢٠ هـ - ٩٢٢ هـ / ٦٤١ - ١٥١٧م)

وتقسيمها كالتالى :

أولاً : عصر الولاة (٢٠ - ٢٦٦ هـ / ٦٤١ - ٨٧٩ م)

- ولاية تابعة لدولة الخلفاء الراشدين (٢٠ - ٣٨ هـ / ٦٤١ - ٦٥٨ م) .
- ولاية تابعة للدولة الأموية (٣٨ - ١٣٢ هـ / ٦٥٨ - ٧٤٩ م) .
- ولاية تابعة للدولة العباسية (١٣٢ - ٢٦٦ هـ / ٧٤٩ - ٨٧٩ م) .

ثانيا : الدولة الطولونية (٢٦٦ - ٢٩٢ هـ/ ٨٧٩ - ٩٠٤م) .

ثالثا : الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٨م) .

رابعا : الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٨ - ١١٧١م) .

خامسا : الدولة الأيوبية (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠م) .

سادسا : دولة المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٦م) .

دولة المماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢م) .

دولة المماليك البرجية (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٦م) .

سابعا : الفتح العثمانى (٩٢٣ - ٩٢٤ هـ / ١٥١٦ - ١٥١٧م) .

الفتح العربى لمصر
(١٩ - ٢١ هـ / ٦٣٩ - ٦٤١م)

حالة مصر قبل الفتح العربى :

كانت مصر قبل الفتح الإسلامى ولاية الإمبراطورية الرومانية بعد أن ورث الرومان حكم البطالة فى مصر بعد الهزيمة الساحقة التى حلت بقوات أنطونيوس وكليوباترا فى معركة اكتيوم البحرية عند الساحل الغربى لبلاد اليونان فى خريف عام ٣١ ق . م ، وانتحارانطونيوس ، ثم كليوباترا فى العالم التالى . وكان اكتافيانوس قد زحف بقواته ، بعد مرور عام على انتصاره فى اكتيوم ، على مصر قادما إليها من سوريا ، ودخل بقواته الإسكندرية وضرب الحصار حول قصر الملكة ، وعلى مدى أسبوعين كاملين ، جرت مفاوضات سرية معها غير أن هذه المفاوضات إنتهت بالفشل ، فقد أبت الملكة بإباء وشمم أن تساق أسيرة فى موكب اكتافيانوس عندما يعود إلى روما ويدخلها وهويحمل أكليل الغار . وفى الشهر الثامن من عام ٣٠ ق . م انتحرت كليوباترا بلدغة حيات الكوبرا السامة لتضع نهايتها بنفسها ، وبموتها تنقرض سلالة البيت البطلمى وتقع مصر تحت السيادة الرومانية .

وهكذا انفرط عقد الإدارة ولم تعد هنالك فى مصر حكومة ولا جيش ، عندئذ

شمر اكتافيانوس عن ساعديه لإعادة تنظيم مصر كما لو كانت ضيعة خاصة له ، بادئا بإقامة حكومة أحتلال على رأسها حاكم رومانى من طبقة الفرسان يكون نائبا عنه فى حكم مصر ، ويعاونه جهاز من كبار الموظفين يقيمون فى الإسكندرية عاصمة البلاد . كما ترك فى مصر جيش احتلال قوامه ٢٢ ألف جندى تقريبا ، ويتكون من ثلاث فرق ، فرقة منها تعسكر فى نيقوبوليس شرق الإسكندرية ، والثانية فى حصن بابليون على الضفة الشرقية للنيل والثالثة فى طيبة (الأقصر) العاصمة الدينية ، إلى جانب عدة ألوية من الفرسان تتعاقب على حراسة الأماكن الحيوية فى البلاد .

وقام اكتافيانوس سنة ٢٧ ق. م بحمل اسم جديد غير اسمه وهو « أغسطس » منحه السناتو إياه تكريما لفتحه مصر ، بل زيادة فى هذا التكريم أطلق هذا اللقب على الشهر الثامن الذى فتحت فيه مصر فأصبح يعرف بأسم شهر أغسطس ، وأطلق على الشهر السابق له إسم أبيه بالتبنى يوليوس قيصر ، فأصبح يعرف بأسم شهر يوليوس . كما أحتفظ بلقب إمبراتور (القائد الأعلى للجيوش) والذى التصق بلقبه وتحول إلى مصطلح سياسى جديد هو « الإمبراطور » وبذلك أصبح أغسطس أول سلسلة أباطرة الرومان .

ولقد حكم الإمبراطور أغسطس واحد وأربعين عاما ، أحدث خلالهاتغييرات جذرية فى جهاز الحكم وفى تركيبة المجتمع الرومانى القانونية والإجتماعية وفى نظام مصر الإدارى والمالى . ولعبت مصر دورا حيويا فى التنظيم الجديد للأمبراطورية وهو إمداد مدينة روما بثلث ما تحتاجه سنويا من القمح طعاما لشعبها .

وبسبب حرصه على ألا يعطى أى فرصة للعناصر المناهضة لحكمه من بقايا الجمهوريين وذوى النفوذ والطموحين من إتخاذ مصر قاعدة للمعارضة السياسية القائمة على التأييد العسكرى كما فعل كل من بومبيوس وماركوس أنطونيوس ، أختار الوالى على مصر من طبقة الفرسان أو الطبقة الوسطى وليس من طبقة السناتو ، وقد كان محرما عليه التمتع بسلطة الإمبريوم ، وهى السلطة المؤهلة للحكم وقيادة الجيوش ، وجعله يحمل لقباً متواضعا هو « نقيب الإسكندرية ومصر » . وبهذا التحديد لشخص

الوالى ولمكانته كان يحق للإمبراطور عزله فى أى وقت وتعيين حاكم غيره ، أو القاء القبض عليه ومحاكمته .

وخوفا على مصر أيضا أصدر أغسطس قرارا أسماه « سر الإمبراطورية » وهو اصطلاح قانونى يعفيه من اعطاء أى تفسير لما يفعله باعتباره مسألة أمنية عليا . ويتمثل هذا القرار فى تحريم دخول مصر على أفراد الأسرةالإمبراطوريةورجال طبقة السناتو والمشاهير من رجال طبقة الفرسان ، ومن الشخصيات العامة دون الحصول على إذن مسبق من الإمبراطور شخصيا .

وكان يساعد القائم بالأعمال فى مصر ثلاثة من كبار الموظفين الذين ينتمون أيضا إلى طبقة الفرسان ويقيمون أيضا فى الإسكندرية ، وهم : مدير ديوان القضاء ومدير ديوان المالية ومدير إدارة المحاسبات الطارئة والأوقاف .

ولقد رفض اكتافيانوس أغسطس طلب أهالى الإسكندرية بإعادة مجلس الشورى الخاص بمدينتهم ، لأنه يعرف أنه بؤرة الكبرياء الوطنى ومنبع الثورة .

أما بالنسبة للتقسيم الإدارى العتيق لمصر ، فقد أبقى أغسطس عليه كما هو مثلما فعل البطالمة من قبل ، أى أن مصر ظلت مقسمة إلى ثلاثين إقليما يحكم كل منها « استراتيجوس » نزعت منه السلطة العسكرية ليتحول إلى مجرد موظف تنفيذى مدنى ، وأصبحت السلطة العسكرية فى يد الرومان فقط .

وكانت الحال فى مصر الرومانية ، بوجه عام غير مرضية ، فالبلاد تحكم بواسطة حكومة مركزية أجنبية قوية ، تساندها قوات عسكرية كافية لحفظ الأمن الداخلى وأخماد الثورات الأهلية وصد إغارات بدو الصحراء . ونظام بيروقراطى محكم تطبقه الإدارة المركزية ، ومجتمع هرمى الشكل منقسم إلى طبقات ممتازة وطبقات عامة وتفرقة فى المعاملة بين من يحملون حق المواطنة الرومانية والمتأغرقين من سكان المدن وبين جمهرة الأهالى المصريين من سكان الريف .

وكان تاريخ مصر الرومانية قصة محزنة من قصص الإستغلال الأجنبى التى عاشت فيها البلاد فى تفكك إجتماعى وخراب أقتصادى .وأصبحت مصر خلاله مجردضيعة

تُنتج القمح لصالح الإمبراطورية الرومانية ، وكان فلاحوها عبيد وأقنان هذه الضيعة والزراع المسخرين فى حرثها وحصادها .

وأدرك المصريون أن قبضة الرومان الفولاذية لا تعرف الرحمة فاستداروا إلى عالمهم الخاص فى الريف البعيد ، يمارسون حياتهم فى الزراعة كما كانوا يمارسونها منذ آلاف السنين دون أى تغيير يذكر ، اللهم إلا أن حمل الضرائب بدى أكثر ثقلا على كواهلهم . فقد كان الرومان أكثر كفاءة وأشد صرامة من حكلم البطالمة المتأخرين الضعفاء فى حصر الضرائب والمكوس . فيما عدا ذلك سارت الحياة فى قراهم النائية تجرى فى رتابتها المعهودة دون تغيير .

ولقد أرسى اكتافيوس أغسطس قواعد وقوانين حكمت بمقتضاها مصر ، وسار خلفاؤه من بعده على نهجها حتى جاء دقلديا نوس وألغاها .

ولمدة تزيد عن ثلاثة قرون ونصف ، حكم الرومان مصر قبل أن تنقسم امبراطويتهم إلى قسمين : قسم غربى عاصمته ميلان أو رافنا وقسم شرقى عاصمته القسطنطينية . وظلت مصر تابعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية ، التى استمرت فى الصمود دون الإمبراطورية الغربية التى سقطت عام ٤٧٦م ، والتى عرفت عند العرب بأسم دولة الروم وأطلق عليها الأوربيون الغربيون إسم الدولة البيزنطية لعدم اعترافهم بأنها رومانية ، حتى أتم العرب فتحها سنة ٦٤٢م .

ولقد كان العداء شديدا بين أباطرة الروم وأقباط مصر ، وكانوا بنظرون بعين الشك إلى تصرفات المسيحيين وانعزالهم ورفضهم التعاون مع الإمبراطورية أو الخدمة العسكرية فى جيوشها . كما كانوا ينظرون إلى المسيحية على أنها ديانة شرقية جاءت لتهدم تراثهم الهيلينى الثقافى الذى يقوم على الوثنية .

وقد وقع الأضطهاد الدينى على المسحيين عموما ، وعلى أقباط مصر خصوصا بشدة فى عهد الإمبراطور دقلديا نوس لأن مصر كانت من أشد المناطق التى انتشرت فيها المسيحية ، وكانت هدفا من أهداف حركة اضطهاد المسيحيين . وقد قابل المصريون ذلك بالتحدى والتمسك بديانتهم وسرت فيهم الرغبة فى الأستشهاد وتحمل الإضطهاد والتعذيب والموت . ومن شدة مالاقى أقباط مصر فى عهد هذا الإمبراطور ،

أختارت الكنيسة المصرية لنفسها تقويما خاصا جعلته يبدأ بعام ٢٨٤م وهو العام الذى تولى فيه دقلديانوس عرش الإمبراطورية .

وبرغم أن الإمبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧م) ، الذى خلف دقلديانوس على عرش الإمبراطورية ، قد اعترف بالمسيحية كديانة من بين الديانات الأخرى فى الإمبراطورية فى المرسوم الذى أصدره سنة ٣١٣م وعرف بمرسوم ميلان ، إلا أن الإضطهاد وقع على أقباط مصر حتى بعد أن صارت المسيحية هى المذهب الرئيسى والأوحد فى الإمبراطوريةالرومانية بعد أن أعتنق أباطرة الرومان هذه الديانة وابتعدوا عن الوثنية . وكان سبب ذلك الإختلاف المذهبى الذى وقع بينهما أنه كان قد تفجر فى الإسكندرية خلاف عقائدى بات يهدد وحدة الكنيسة المسيحية حول طبيعة المسيح ، فقد دعا الأسقف آريوس إلي وجوب الفصل بين الأب والإبن ، لأنه لا يمكن أن يكون الإبن هو الأب فى نفس الوقت ، بل يجب أن يليه ويكون بعده ، ومن ثم فهو شبيه به وليس هو ذاته ، ومن ذلك توصل إلى أن للمسيح طبيعتين واحدة بشرية والأخرى إلهية ، وأن مرتبة الإله الأب الخالق أعلى من مرتبة الإله الإبن المخلوق ، فالمسيح ، فى نظره ، إله ولكنه دون أبيه فى المكانة والمرتبة . وبذلك أنكر آريوس أن الإبن والأب من طبيعة واحدة و إن لم ينكر ألوهية المسيح إنكارا مطلقا .

ولقى آريوس معارضة شديدة ، وكان وجه الخطأ عند معارضيه يكمن فى إنكار الطبيعة البشرية للمسيح أوالتهوين من شأنها وتقليل مكانة الإبن عن مكانة الأب ، الأمر الذى يقلل من صورة شخص المسيح المحبوبة فى عيون معتنقى المسيحية . وقد نادى هؤلاء المقاومون لآريوس والذين عرفوا فيما بعد ، بأسم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيت) بأندماج الطبيعتين فى التجسد ووجود طبيعة واحدة فقط بعد حدوث هذا الإندماج والتجسد وذوبان الطبيعة البشرية فى الطبيعة الإلهية وتلاشى الطبيعة البشرية تماما أمام الطبيعة الإلهية .

ولقد قاد المعارضة الأسقف أثناسيوس السكندرى وعارض الفصل بشدة وتمسك بوحدة الأب والإبن والروح القدس كرب واحد ، واعتنق آراؤه عامة الشعب المصرى الذين عرفوا بالمونوفيزتيين ، ثم اليعاقبة وأصبح مذهبهم يعرف بالمذهب اليعقوبى ، نسبة

إلى المروج لهذا المذهب في مصر وهو يعقوب البراذعي .

ولقد وجد آريوس له أنصارا فى كنيسة القسطنطينية التى كاد الإنشقاق يقضى على وحدتها مما أدى إلى تدخل الإمبرأطور قنسطنطين ، الذى دعا إلى عقد أول مجمع دينى مسكونى عقد فى نيقيه عام ٣٢٥م ، واتخذ قراره ضد آريوس واعتبره متهرطقاً وأقر طرده من رحمة الكنيسة ونفيه عن البلاد إلا أن آريوس تظلم من قرار الأمبراطور وشرح له وجهة نظره التى اقتنع بها فعقد مجمع آخر فى نيقية عام ٣٣٥ م انتهى لصالح آريوس وقضى بعزل أثانا سيوس ونفيه من البلاد .

ورفضت كنيسة الإسكندرية ، التى مارست نوعا من الإستقلال عن كنيسة القسطنطنية ، الإعتراف بقرارات هذا المجمع ، وتأزمت العلاقة بينها وبين الإمبراطور ورفضت أن تكون تابعة لكنيسة الدولة ، وبذلك عادت روح الوطنية ضد الرومان فى هذه المرة بزعامة الكنيسة المصرية . ومنذ ذلك الوقت لم يتوقف أساقفة الكنيسة المرقسية عن تزعم الثورات المطالبة باستقلال مصر تحت زعامة الكنيسة . وقد قابلت الإمبراطورية عناد الكنيسة المنشقة بمحاولة فرض آراء كنيسة القسطنطينية الملكانية الأريوسية بالقوة واضطهاد معتنقى المذهب المونوفيزيتى في الشام ومصر ، فزاد التعذيب والسجن والتشريد فى مصر آنذاك ، ونبع عن ذلك هروب عدد كبير من المتمسكين بعقيدتهم ومذهبهم إلى الصحراء وسكنوا الجبال وظهرت بسبب ذلك الرهبنة وكثر عدد الرهبان فى صحراوات مصر وجبالها الذين سكنوا المغارت والكهوف والأديرة .

ولقد ازداد العداء المذهبى بين أقباط مصر وكنيسة الإمبراطورية ، بعد انعقاد مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م ، وصدور قراراته التي لم تعترف بالمذهب اليعقوبى والمذهب الفسطورى ، والتى قضت بحرمان نسطوريوس أسقف الكنيسة المصرية وزعيم السكندريين - من رحمة الكنيسة وتعيين بدلا منه أسقف أريوسيا اسمه بروتيريوس . الأمر الذى أدى إلى ثورة شعب الإسكندرية التى قابلتها القوات الرومانية بمنتهى القوة والعنف .

ومع مطلع القرن السابع الميلادى ، أثناء حكم الامبراطور هرقل ، غزى الفرس مصر واستولوا عليها سنة ٦١٦م ، واستولوا على بعض مناطق فى آسيا الصغرى وهددوا

القسطنطينية العاصمة ، دوام حكم الفرس لمصر نحو عشر سنين .

وفى سنة ٦٢٨م توفى خسرو ملك الفرس ، واعتلى إبنه شيرويه العرش وطلب الصلح مع الروم ، الذى كان من ضمن شروطه الإنسحاب الفارسى من مصر ، وقد تم الإنسحاب بالفعل وعادت مصر ثانية إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية .

وقد قام هرقل ، بعد إنسحاب الفرس من مصر ، بفرض قبضته الحديدية على مصر بإرسال مزيد من قواته إليها ودمج منصب الأسقف بمنصب الوالى . وعين لذلك أسقفا ملكانيا بغيضا إلى نفوس المصريين اسمه « كيروس » وكنيته « المقوقس » ، الذى اتبع سياسة القهر مع اليعاقبة المصريين ، بأجبارهم على قبول مبدأ التثليث بالقوة ، وأحاط نفسه بمعاونين ملكانيين شديدى الكراهية للكنيسة المصرية . وقد قام المقوقس بالتنكيل برجال وكهنة الكنيسة المصرية أشد تنكيل فهربوا إلى الصحارى وسكنوا الكهوف والمغارات . والتف الشعب المصرى مسيحيوه ووثنيوه حول الكنيسة كقلعة المقاومة ضد المحتل ، وانتخب رجال الأكليروس المصرى سراً أسقفا لهم اسمه بنيامين كان دائم التنقل فى كهوف مصر الوسطى ، وبذلك أصبح الروم فى وادٍ والشعب المصرى وكنيسته فى وادٍ آخر .

بيد أن هذا الحال لم يدم طويلا ، ذلك لتطور الأحداث خارج الإمبراطورية تطوراً أضر بها ، ففى الوقت الذى كان فيه هرقل مشغولا بقتال الفرس ، كانت قد وقعت أحداث خطيرة فى الجزيرة العربية أحدثت تغيرات جذرية فيها وفى العالم أجمع . فقد ولد محمد النبى الرسول فى مكة فى عام الفيل سنة ٥٧٠م. وفى سنة ٦٢٢م هاجر إلى المدينة وأقام الدولة الإسلامية . وما أن فرغ هرقل من معاركه مع الفرس عام ٦٢٨م حتى جاءه مبعوث النبى دحية بن خليفة الكلبى يدعوه للدخول فى الإسلام ومعه كتاب من محمد ، وفى نفس الوقت تسلم كيروس المقوقس رسالة أخرى من النبى حملها إليه حاطب بن أبى بلتعة يدعوه فيها أيضا للدخول فى الإسلام . وكانت هذه الكتب التى أرسلها الرسول ضمن كتب أخرى أرسلها لكافة ملوك وحكام العالم آنذاك يدعوهم

لتقبل دعوة الإسلام ويخبرهم بأنه نبى آخر الزمان وصاحب أخر رسالات السماء إلى الأرض .

وبالرغم من المعاملة الطيبة التى لقيها مبعوثى الرسول من جانب هرقل والمقوقس ، إلا أنهما لم يقدرا الأمر حق قدره ولم يدركا حقيقة التحول الهائل الذى جرى فى الجزيرة العربية وحقيقة أن طوفان الإسلام سيمتد إلى خارجها . وحاول هرقل أن يؤجل النظر فى الرد حتى يستفسر عن الدعوة الجديدة وعن صاحبها من عملائه فى الجزيرة العربية ، واعتقاده فى أن الإسلام ماهو إلا حركة دينية توحيدية جديدة جاءت لتصحح مسار المسيحية شأنها فى ذلك شأن الحركة الأريوسية .

وفى سنة ٦٣٧م / ١٧هـ ، هاجمت القوات الإسلامية بلاد فارس ودكت حصون إمبراطوريتها . وفى سنة ٦٣٩م / ١٩هـ جاء الدور على فتح مصر بعد فتح الشام على يد قائد قوات المسلمين عمرو بن العاص فى عهد خلافة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب.

مراحل الفتح العربى لمصر :

عرف العرب مصر ، وكانوا على صلة قديمة بها ، فأم العرب السيدة هاجر ، زوج سيدنا إبراهيم الخليل وأم نبيهم إسماعيل عليه السلام أميره مصرية كان قد أهداها ملك العماليق له فتزوجها وأنجب منها إسماعيل أبو العرب المستعربة . وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم ولده إبراهيم مارية القبطية مصرية ، والتى كان قد أهداها المقوقس هى وأختها شيرين للنبى حين أرسل له رسوله يدعوه للدخول فى الإسلام ، . ثم إن التجارة بين العرب ومصر كانت متصلة منذ زمن طويل وأيام الجاهلية .

ولقد أوصى الرسول عليه السلام قبل وفاته بفتح مصر لأنه بدونها لن تتثبت أقدام الإسلام فى افريقيا وبلاد الشرق ، ولأنها أرض خيرات وثراء ، وجنودها خير أجناد الأرض لأنهم فى جهاد إلى يوم القيامة . غير أن هذه الوصية لم يتم تحقيقها إلا فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب الذى حكم فى الفترة ما بين سنوات ١٣ و ٢٣هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م ، والذى فتحت فى عهده بلاد الشام وفلسطين .

وتحت الحاح قائده المظفر عمرو بن العاص ، إقتنع ، بعد تردد ، فى إرساله قوات لفتح مصر لأهميتها الإستراتيجية والبحرية ، ولحماية ظهر قوات المسلمين الموجودة فى الشام . ومن المؤكد أن الخليفة عمر بن الخطاب قد وضع فى ذهنه خطة فتح مصر بعد فتح الشام ، ذلك لأن مصر وبلاد المغرب كانت أخر معاقل دولة الروم الشرقية ، وهى

فى ذات الوقت أغنى البلاد الخاضعة لأباطرة بيزنطة ومخزن غلالها الكبير . كما كانت عاصمتها الإسكندرية أكبر موانى العالم المعروف آنذاك وأكبر أسواقه التجارية وأعظم مراكزه العلمية والفنية والفكرية ، وكانت من أهم معالمها الثقافية مدرسة الإسكندرية الفلسفية الشهيرة ومكتبتها العظيمة ومنارتها المشعة الهائلة .

وكان عمرو بن العاص قد زار مصر ، لأول مرة ، حين ذهب فى تجارة فى الجاهلية وهو فى طريقه إلى بيت المقدس ، وقد نزل ضيفا على أحد رجال الدين الأقباط . وقام عمرو بن العاص بأنقاذ هذا القبطى من الموت مرتين ، إحداها حين تعرض للموت عطشا ، والأخرى حين تعرض لخطر ثعبان كبير وهو نائم قام عمرو بقتله .

وتحكى الروايات أن هذا الشماس القبطى أكرم عمرو فى الإسكندرية وأنه نزل ضيفاً عليه ، وأن أحد أعياد القبط كان قد حل ، وكان الأشراف والأمراء فى يوم هذا العيد يلعبون بكرة من ذهب يتبادلون قذفها فمن وقعت هذه الكرة فى كمه واستقرت ، كانوا يعتقدون ، بأنه لن يمت حتى يتملكهم ويصير ملكا عليهم . وبينما هم يترامون بالكرة سقطت هذه الكرة فى كم عمرو بن العاص ، فعجبوا لذلك وتشاءموا من أن يحكمهم هذا العربى البدوى . ولقد تحقق إعتقادهم وتأكد صدق تشاؤمهم حين رمتهم الأيام بعمرو وجيشه العربى ليحكموهم ويخلصوهم من طغيان واستبداد وعنصرية حكامهم الرومان . وكان عمرو يحب مصر لما سمعه عنها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متأكدا من فتح المسلمين لها فآثر أن يكون هو الفاتح .

وتورد رواية الفتح أن عمراً بن العاص أخذ يلح على الخليفة عمر عند بلدة الجابية ، قرب دمشق ، سنة ١٩هـ ، حين ذهب لتسلم بيت المقدس بعد فتح فلسطين ، فى فتح مصر ، فوافقه الخليفة على ذلك بعد تردد . وفى أواخر ذى القعدة وأوائل ذى الحجة الموافق شهر ديسمبر عام ٦٣٩م ، انطلق عمرو يقود مفرزة من الجند الذين كانوا يقاتلون معه فى الشام لا يزيد عددهم عن أربعة آلاف مقاتل كلهم من قبيلة عك اليمنية ، فاستولى على مدينة العريش الحدودية دون مقاومة تذكر فى ١٠ ذى الحجة ١٨هـ / ١٢ ديسمبر ٦٣٩ م ومنها إتجه إلى بيلوزيوم (الفرما ، بورسعيد الحالية) فى يناير ٦٤٠م وحاصرها لمدة شهر حتى استسلمت حاميتها له . ومن الفرما إتجه إلى مدينة بلبيس (فى محافظة الشرقية) فى منطقة الحوف الشرقى فاستولى عليها بعد هزيمة

قائد حاميتها الذى عرفه العرب بأسم « الأرطبون » ، وكان فى الأصل قائدا لحامية بيت المقدس قبل سقوطها فى يد عمرو ، فلما سقطت إتجه إلى بلبيس وتولى قيادة حاميتها أملاً فى الإنتصار على قوات عمرو والثأر لهزيمته السابقة منه .

وتورد الرواية أن الخليفة عمر حين عاد إلى المدينة لقى اللوم من بعض الصحابة وبخاصة من عثمان بن عفان على موافقته لعمرو على فتح مصر وتعريض المسلمين المنهكين من قتال الروم بالشام لخطر مقابلة الروم ثانية في مصر ، وخاصة أن قوات الروم فى مصر يعلمون أنها كانت كبيرة بينما جيش عمرو لم يكن يتألف سوى من أربعة آلاف مقاتل . وأظهر عمر لمعارضى حملة مصر أنه لم يعط لعمرو الموافقة النهائية على فتح مصر ، وأنه سوف يعطيه هذه الموافقة بعد استشارة الناس فى المدينة . ولذلك ، بسبب تلك المعارضة ، سارع عمر بإرسال كتاب إلى عمرو ، يطلب فيه منه العودة بقواته إلى المدينة إذا كان لا يزال خارج الحدود المصرية ، أما إذا كان قد تجاوز هذه الحدود فليسر على بركة الله . وجاء فى نص الرسالة التالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سر وأنا مستخير الله فى مسيرك ، وسيأتيك كتابى سريعا إن شاء الله تعالي ، فإن أتاك كتابى آمرك فيه بالإنصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » فسارعمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوف علي المسلمين فى وجهتهم هذه فكتب إلى عمرو أن ينصرف بمن معه من المسلمين ، ووصل الكتاب إلى عمرو وهو برفح من أرض فلسطين ، فتخوف عمرو إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الإنصراف كما عهد إليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش فسأل عنها فقيل أنها من مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ، فقال عمرو لمن معه : « ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ » ، قالوا : « بلى » ، قال : « فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله » .

وفى بلبيس قاتل عمرو بن العاص بقواته قوات الأرطبون (أرتيبانوس) لمدة شهر حتى إنتصر عليهم ، ثم توجه من بلبيس إلى قرية كانت تسمى « أم دنين » ، وكانت تقع عند بحيرة الأزبكية ، (والتى مكانها حديقة الأزبكية وجامع أولاد عنان الآن) .
وكان بأم دنين حامية رومية كبيرة قاتلت عمرو بشراسة ، ولما أبطأ الفتح على عمرو كتب إلى الخليفة عمر يطلب المدد منه ، فسارع الخليفة بإرسال أربعة آلاف مقاتل ، وصار عدد جيش عمرو بذلك ثمانية آلاف ، وقيل أنه أرسل له اثنى عشر ألف مقاتل فوصلوا إليه أرسالاً يتبع بعضهم بعضا . فكان فيهم أربعة آلاف عليهم قواد أربعة من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم : الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد .

وبفضل هذه القوات انتصر المسلمون على الروم فى أم دنين ، ثم بعد ذلك عند عين شمس (هليوبوليس بالقرب من المطرية) حيث قتل الأرطبون ثم اتجهوا بعد ذلك إلى حصن بابليون المنيع وحاصروه لمدة شهر أثناء فيضان النيل عام ٦٤٠م . وكان الإمبراطور تراجان قد بنى ذلك الحصن مكان قلعة كان الفرس قد بنوها هناك عندما احتلوا مصر ، فى المكان الذى يعرف الأن بقصر الشمع عند مصر القديمة . وقد قام الرومان بتقوية الحصن وزيادة تحصينه قبل الفتح العربى بقليل وأحاطوه بخندق عريض عميق ملأوه بالماء حتى يعيق حركة أى مهاجم للحصن .

وأحاط المسلمون بالحصن ، وأميره يومئذ المندقور الذى يقال له « الأعيرج » ، من قبل المقوقس ، وكان المقوقس ينزل بالإسكندرية نائبا عن ملك الروم هرقل ، غير أنه كان حاضر الحصن حين حاصره المسلمون . وحاصر المسلمون الحصن ومنعهم الخندق من التقدم إليه ، فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير « إنى أهب الله نفسى وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » فوضع سلما إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ، ثم صعد وأمر الجنود إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن ينكسر ، وكبرٌ الزبير فكبٌرت الناس معه وأجابهم المسلمون من خارج الحصن ، فلم

يشك أهل الحصن فى أن العرب قد اقتحموا الحصن جميعهم فهربوا . وعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فخاف المقوقس على نفسه ومن معه . فحينئذ سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو إلى ذلك ، وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر .

يقول المقريزى : « وقد سمعت فى فتح القصر وجها آخر هوأن المسلمين لما حاصروا بابليون كان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس فقاتلوهم شهراً فلما رأى القوم الجد من العرب على فتحه والحرص ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا عليهم فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلى ودونهم جماعة يقاتلون العرب فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل ، ويقال أن الأعيرج تخلف فى الحصن بعد المقوقس وقيل خرج معهم . فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوة والشرف وكانت سفنهم ملحقة بالحصن ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة . فأرسل المقوقس إلى عمرو يقول له « إنكم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل و إنما أنتم أسارى فى أيدينا فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبكم ورجائكم فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شئ .

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس ، فقال لأصحابه : « أترون أنهم يقتلون الرسل ويستحلون ذلك فى دينهم » وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين ، فرد عليهم عمرو مع رسله : « أنه ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما إن دخلتم الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم

بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » . فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال : « كيف رأيتم هؤلاء ؟ » قالوا : « رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » . فقال عند ذلك المقوقس : « والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبوا بعد اليوم إذا مكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم» فرد إليهم المقوقس رسلة قائلاً : « إبعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم » . فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت ، وكان طوله عشرة أشبار وأمره أن يكون متكلم القوم ولا يجيبهم إلى شئ دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث خصال . وكان عبادة أسوداً ، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده ، وقال : « نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى » ، فقالوا جميعا : « إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله » . قال : « وكيف رضيتم أ يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغى أن يكون هو دونكم » قالوا : « كلا وإنه وإن كان أسودا كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقه وعقلا ورأيا وليس ينكر السواد فينا » ، فقال المقوقس لعبادة : « تقدم يا أسود وكلمنى برفق فإنى أهاب سوادك وإن إشتد كلامك على ازددت لك هيبة » .

ويواصل المقريزى روايته بما جرى بين عبادة والمقوقس من حديث ، وتشير بعض المصادر إلى أن عمرواً شرع فى مفاوضة المقوقس الذى طلب المصالحة مع المسلمين ، وأن المقوقس أرسل مطراناً وأسقفاً لمعسكر عمرو بصدد التفاوض فى الصلح . وتقول هذه المصادر أن عمرواً قابل الرسل بالترحاب وأنه أشاد بعلاقة المقوقس الطيبة برسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وكيف أنه كان صاحب أرق رد على رسول الله حين أرسل إليه حاطب بن بلتعة بكتابه الذى يدعوه فيه للدخول فى الإسلام ، فى الوقت الذى مزق فيه بعض الملوك كتب رسول الله وأغلظوا القول لحامليها .

قال عمرو لرسل المقوقس : « نحن ندعوكم إلى الإسلام فمن أجابنا إليه فهو مثلنا ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وقدمنا له المنعة ، وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أننا مفتتموكم وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم وإن لكم إن أجبتونا بذلك ذمة إلى ذمة . وإنى أعيد إلى عظيمكم المقوقس ما جاء فى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من إتبع الهدى ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فاسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون والسلام عليكم ورحمة الله » .

ووافق المقوقس على مشروع معاهدة تنص على استسلام الرومان وسافر المقوقس إلى القسطنطينية ليعرض معاهدة الصلح على الإمبراطو هرقل ، لكن هرقل رفضها على الفور وأمر بنفى المقوقس عقاباً له على قبوله عرض المسلمين . ولكن هرقل كان يعيش آخر أيام عمره فى ذلك الوقت فسرعان ما أدركته الوفاة فى ١١ فبراير ٦٤١م ، وحالت الخلافات التى نشبت بعد موته بين المجالس الإمبراطورية دون إرسال الإمدادات إلى مصر فسقط حصن بابليون فى يد المسلمين (فى ٩ إبرايل ٦٤١م) بعد حصار دام له ستة شهور وبعد أن نجح الزبير بن العوام فى تسلق سور الحصن وفتح أحد أبوابه ودخول المسلمين الحصن مهللين مكبرين . ولم يملك جند الروم الموجودين بالحصن سوى الإستسلام لهؤلاء المقاتلين الذين عرفوا عنهم الشجاعة والرغبة فى الإستشهاد .

وبعد سقوط حصن بابليون فى يد المسلمين إتجهت القوات العربية إلى الشمال وإلى الصعيد وحاصرت القوات الرومانية فى مدن عديدة ، لكن عمرواً لحظ أن معظم

وأهم القوات الرومانية قد انسحبت إلى الإسكندرية . وكان المقوقس قد أعيد آنذاك إلى منصبه بعد موت هرقل وتولى زوجته مارتينا وقنسطانز العرش البيزنطى وموافقتهما على عقد الصلح مع المسلمين الذى عرف بصلح الإسكندرية . وتقدمت قوات عمرو فى الدلتا حتى وصلت إلى بلدة بلهيب قرب الإسكندرية . وهنالك أرسل المقوقس إلى عمرو ، بعد أن يئس من النصر ، يطلب الصلح منه على أن يدفع القبط الجزية مع بقائهم على ديانتهم وصيانة كنائسهم وأديرتهم ، وأن تجلو القوات الرومانية عن مصر خلال أحد عشر شهراً ، وعلى أن يستعيد الروم أسراهم وتؤمن حياة النصارى واليهود .

فأجاب عمرو بأنه سينقل العرض على الخليفة عمر فى المدينة ، ولما عرضه وافق الخليفة عليه ، وأعطى أماناً لأهل مصر وكتب لهم كتاباً بذلك وعهداً حمل لهم الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وممتلكاتهم مع التعهد بدفع الجزية التى قدرت بدينارين فى كل عام على كل رجل قادر وأعفى من دفعها النساء والأطفال والفقراء والرهبان .

وغادرت قوات الجيش الإمبراطورى الإسكندرية فى ١٧ سبتمبر ٦٤٢م / أول المحرم ٢١هجرية وعلى رأسها القائد تيودور ، ودخلها العرب يوم ٢٩ من نفس الشهر ، وانتهت بذلك تبعية مصر للإمبراطورية الرومانية لتدخل عهداً جديداً من عهود تاريخها وهو عهد العروبة والإسلام .

وأول ما فعله عمرو بن العاص حين دخل الإسكندرية ، تعبيراً عن شكره لمساعدة اليعاقبة المصريين له أعاد بنيامين مكرماً لكرسى الأسقفية بالإسكندرية بعد أن كتب له أمانا وأقر عودته ، وكانت صورة الأمان كما يلى : « أينما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان وعهد الله فليأت البطريق إلى هاهنا فى أمان وأطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته »

هل فتحت مصر بصلح أم عنوة ؟

أورد المقريزى بأنه « أختلف فى فتح مصر ، فقال قوم فتحت صلحا ، وقال آخرون

إنما فتحت عنوة . فأما الذين قالوا كان فتح بصلح فإن حسين بن شفى قال : لما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية بقى من الأسارى بها ممن بلغ الخراج وأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان ، فاختلف الناس على عمرو وفى قسمتهم فكان أكثر المسلمين يريد قسمتها فيما بينهم (كغنيمة) فقال عمرو لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين . فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها وأن المسلمين طلبوا قسمتها ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئاً للمسلمين وقوة لهم علي جهاد عدوهم فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج فكانت مصر كلها صلحاً بفريضة دينارين دينارين إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع إلا الإسكندرية فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرُى من وليهم لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولاذمة » .

وقال الليث عن يزيد بن أبى حبيب : « كلها صلح إلا الإسكندرية فإنها فتحت عنوة » . وقال آخرون : بل فتحت مصر كلها عنوة بلا عهد ولاعقد . قال سفيان بن وهب الخولانى : لما افتتحنا مصر بغير عهد ولاعقد قام الزبير بن العوام فقال : أقسمها ياعمرو بن العاص ، فقال عمرو : والله لا أقسمها ، فقال الزبير : والله لنقسمنها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر . فقال عمرو : والله لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين . فكتب إلى عمر ، فكتب إليه عمر يقره على قسمتها . وقال ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيره أن مصر فتحت عنوة . وعن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال : سمعت أشياخنا يقولون أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولاعقد منهم أبى يحدثنا عن أبيه وكان فيمن شهد فتح مصر . وعن أبى الأسود عن عروة أن مصر فتحت عنوة .

وقال ابن شهاب : كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر إبن الخطاب رضى الله عنه جميعها ذمة وحملهم على ذلك فمضى ذلك فيهم إلى اليوم . واشترى الليث بن سعد شيئا من أرض مصر لأنه كان يحدث عن يزيد بن أبى حبيب أن مصر صلح ، وكان مالك بن أنس ينكر على الليث ذلك وأنكره علية أيضاً عبد الله بن لهيعة ونافع بن يزيد لأن مصر عندهم كانت عنوة .

ذكر من شهد فتح مصر من الصحابة رضى الله عنهم ومن مات منهم ودفن فيها :

لو تساءلنا عن تعريف الصحابة والصحابى لوجدنا أن علماء اللغة يعرفون الصحابى بأنه من تبوأ الدار والإيمان من المهاجرين والأنصار السابقين إلى الإسلام والتابعين لهم باحسان الذين شهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم وسمعوا كلامه وشاهدوا أحواله ونقلوا ذلك إلى من بعدهم .

قال سعيد بن المسيب : « الصحابة لا نعدهم إلا من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين » .

وقال الواقدى : « ورأينا أهل العلم يقولون كل من رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أدرك الحلم فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممن صحب رسول الله صلى عليه وسلم ولو ساعة من نهار ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم فى الإسلام »

وقال أحمد بن حنبل : « أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من صحبه شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه » .

وقال البخاري : « من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه » .

وقال القاضى أبو بكر محمد بن الطيب : « لا خلاف بين أهل اللغة فى أن الصحابى مشتق من الصحبة وأنه ليس مشتقا على قدر مخصوص منها بل هو جارٍ على كل من صحب قليلاً كان أو كثيراً . ومع هذا فقد تقرر للأمة عرفاً أنهم لا يستعملون هذه التسمية إلا فيمن كثرت صحبته ولايجيزون ذلك إلا فيمن كثرت صحبته لا على من لقيه ساعة أو مشى معه خطاً أو سمع منه حديثاً . فوجب لذلك أن لا يجرى هذا الإسم إلا على من هذه حاله وعلى هذا فإن خبر الثقة الأمين عنه مقبول ومعمول به وإن لم تطل صحبته ولا سمع منه إلا حديثاً واحداً » .

وقال أبو حامد الغزالى : « لا يطلق إسم الصحبة إلا على من صحبه ثم يكفى فى الإسم من حيث الوضع الصحبة ولو ساعة ولكن العرف يخصصه بمن كثرت صحبته » .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلانى : « أصح ما وقفت عليه فى تعريف الصحابى

أنه من لقى النبى صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على الإسلام فيدخل فيه من طالت مجالسته له أو قصرت ومن روى عنه أو لم يرو ومن غزا معه أو لم يغزو ومن رآه رؤية بصر ولو لم يجالسه ومن لم يره لعارضٍ كالعمى » .

ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة وأربعة عشر ألفاً من أصحابه ممن روى عنه وسمع ، وهم أهل المدينة ومكة وما بينهما ومن الأعراب ومن شهد معه حجة الوداع كل رآه وسمع منه . ثم ذكر المحدثون أنهم ينقسمون إلى إثنتى عشرة طبقة :

الأولى : قدماء السابقين الذين أسلموا بمكة كالخلفاء الأربعة . ثم أصحاب دار الندوة ، ثم مهاجرة الحبشة ، ثم أصحاب العقبة الأولى ، ثم أصحاب العقبة الثانية ، ثم المهاجرون بين الحديبية وفتح مكة ، ثم مسلمة الفتح ، ثم الصبيان والأطفال الذين رأوا رسول الله فى الفتح وفى حجة الوداع .

ولقد روى أنه دخل مصر من الصحابة رضوان الله عليهم ما يزيد على مائة رجل ودفن بقرافتها جماعة منهم . ومنهم : الزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص وإبنه عبد الله ، وخارجه بن حذافة العدوى ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وقيس بن أبى العاص السهمى ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى ، ونافع بن عبد قيس الفهرى ، وعقبة بن نافع ، ويزيد بن أنيس الفهرى ، وأبورافع مولى رسول الله ، وعبادة بن الصامت ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى ، ومسلمة بن مخلد الأنصارى ، وأبو الدرداء عويمر بن عامر ، وأبو ذر جندب بن جناده الغفارى ، وهبيب بن معقل ، ومعاوية بن حديج الكندى ، وعمار بن ياسر ، وغيرهم .

ومنهم من اختط خطة له بالفسطاط ومنهم من لم يذكر له خطة ، فاختط عمرو بن العاص داره التى عند باب المسجد ، وفيها دفن عبد الله بن عمرو . واختط كل من الزبير بن العوام ، وخارجه بن حذافة العدوى ، ودحية بن خليفة الكلبى ، وعائذ بن ثعلبة البلوى ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو بن أبى العاص السهمى ، وعبادة بن الصامت ، وعبد الرحمن بن عديس البلوى ، وأبو ذر الغفارى ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح .

وأول من دفن من الصحابة فى مقابر سفح جبل المقطم التى سميت بالقرافة نسبة لطائفة من المعافر يقال لهم القرافة نزلوا هناك رجل من المعافر يقال له عامر ، فقيل : عمرت ، فقبر فيها خمسة نفر من صحابة رسول الله : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن حذافة السهمى ، وعبد الله بن الحارث ، وابن جزء الزبيدى ، وأبو بصرة الغفارى ، وعقبة بن عامر الجهنى .

وكان سبب إتخاذ سفح المقطم مدفنًا رواية تحكى « أن المقوقس سأل عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار ، فعجب عمرو من ذلك وقال أكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين ، فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر : سله لم أعطاك به ما أعطاك وهى لا تزرع ولا يستنبط بها ماء ولا ينتفع بها ؟ فقال : إنا نجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة ، فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر : إنا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين ، فأقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ولا تبعه » .

ومات من الصحابة بمصر من لم يدفن فى سفح المقطم ودفن فى غيره ، ومنهم مسلمة بن مخلد الأنصارى ، الذى توفى فى الإسكندرية ودفن بها سنة ٦٢ هـ . وتوفى كعب الأحبار بن نافع الحميرى فى الجيزة ، التى ينسب إليها الربيع الجيزى ، راوى الأم عن الإمام الشافعى ، ويعتبره البعض من الصحابة ويعتبره البعض الآخر من الطبقة الأولى من التابعين .

ومات ودفن فى الإسكندرية سفيان بن هانئ بن جبر ، ومات ودفن بالبرلس عائذ إبن ثعلبة البلوى . وتوفى عبد الله بن عمرو بن العاص بمصر سنة ٧٧ هـ ، ودفن بداره التى اختطها فى الفسطاط والتى دخلت ضمن جامع عمرو بن العاص . وتوفى ودفن بمصر معاوية بن حديج السكونى التجيبى سنة ٥٢ هـ .

وتوفى عمرو بن العاص ، أمير مصر وصاحب فتحها فى الفسطاط ليلة عيد الفطر سنة ٤٣ هـ ، وهو ابن تسعين سنة ودفن بمقابر المقطم .

وتوفى عقبة بن عامر الجهنى ، أبو حماد الصحابى بمصر سنة ٥٨ هـ ، وقبره يزار بالقرافة بالمقطم ولأهل مصر فيه اعتقاد عظيم ولهم عنه نحو مائة حديث .

والبقعة التى فيها قبر عقبة بها أيضًا قبر عمرو بن العاص وقبر أبى بصرة الغفارى الصحابى الجليل .

ومن التابعين الذين نزلوا مصر ومات بعضهم ودفن بها :

عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحى ، وأبو تميم الجيشانى ، وعبد الله بن زرير الغافقى ، وعبد الرحمن بن شماسة ، ووردان ، مولى عمرو بن العاص ، وعبد الله بن هبيرة ، ويزيد بن أبى حبيب ، وعمرو بن الحارث ، وحيوة بن شريح ، وعبد الله بن عقبة إبن لهيعة ، والليث بن سعد ، وغيرهم .

أولاً: مصر في عصر الولاة
(٢٠ - ٢٦٦ هـ / ٦٤١ - ٨٧٩ م)

أ - ولاية تابعة لخلافة الراشدين : ٢٠ - ٣٨ هـ / ٦٤١ - ٦٥٨ م .

ب - ولاية تابعة للدولة الأموية : ٣٨ - ١٣٢ هـ / ٦٥٨ - ٧٤٩ م .

جـ - ولاية تابعة للدولة العباسية : ١٣٢ - ٢٦٦ هـ / ٧٤٩ - ٨٧٩ م .

أ - مصر ولاية تابعة لخلافة الراشدين

تم لعمرو بن العاص فتح مصر سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م ، وغادرت القوات الرومانية مدينة الإسكندرية في يوم ١٧ سبتمبر من هذا العام ، ودخلها العرب يوم ٢٩ من هذا الشهر . ومنذ ذلك الوقت وحتى استقل أحمد بن طولون بحكم مصر عن دولة الخلافة سنة ٢٦٦ هـ ، تحولت هذه البلاد من كونها ولاية رومانية بيزنطية إلى ولاية عربية تابعة لدولة الخلافة التي كانت حاضرتها المدينة أيام الراشدين ، وحاضرتها دمشق أيام الأمويين ، وحاضرتها بغداد أيام العباسيين قرابة قرنين ونصف من الزمان .

وكان الخليفة يعين الحاكم على مصر الذي عرف بالوالي وبالعامل وبالأمير ، وكان مسئولا أمام الخليفة مسئولية مباشرة ومطلق التصرف في ولايته في حدود هذه المسئولية . وكان على الوالي إمامة الصلاة في المسجد الجامع في أيام الجمع والأعياد ، كما كان قائداً للقوات العربية الفاتحة التي تخلفت عن بقية الحملة التي فتحت مصر وأقامت فيها للدفاع عنها وتأمين حدودها ، وكان عليه أن يعين الموظفين المحليين اللازمين لإدارة الدواوين ويشرف على أعمالهم .

وكان إلى جوار الوالي موظف هام هو « عامل الخراج » ، وكانت مهمته جمع خراج مصر وإرساله إلى عاصمة الخلافة بعد استخلاص ما يلزم الولاية منه ، وكانت سلطته مستقلة عن سلطة الوالي وعلاقته علاقة مباشرة بعاصمة الخلافة . وقد كان كل من الوالي وعامل الخراج رقيباً على صاحبه .

وكان عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، أول والٍ عليها من قبل عمر بن الخطاب وهو عمرو بن العاص بن وائل بن سهم ، القرشي السهمي الصحابي ، أسلم يوم هدنة

الحديبية وهاجر ، واستعمله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على جيش غزوة ذات السلاسل وفيه أبو بكر وعمر لخبرته بمكيدة الحرب ، ثم ولى الإمرة فى غزوة الشام لأبى بكر وعمر ، ثم افتتح مصر ووليها لعمر أولاً ، ثم وليها لمعاوية بن سفيان ثانيًا على ما يأتى ذكره .

ولقد ورد فيه حديث رسول الله قوله حين أسلم : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » ، كذلك قوله : « عمرو بن العاص من صالحى قريش » . وكان عمرو بن العاص من أشد الناس دهاءً وجلداً وحزمًا ورأيًا وفصاحة ، وكان عمر بن الخطاب إذا رأى رجلاً يتلجلج فى كلامه يقول : « خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد » .

ولقد تولى عمرو بن العاص ولاية مصر مرتين الأولى بعد الفتح مباشرة حتى عزله عن ولايتها الخليفة عثمان بن عفان سنة ٢٥ هجرية واستبدله بعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، والثانية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان من سنة ٣٨ هـ حتى وفاته وهو عليها سنة ٤٣ هـ . وتعد فترة ولايته الأولى إختبار للحكم الإسلامى الجديد فى مصر ، لذلك كانت المهمة عليه شاقة ، وكان عليه مهمة إشعار أهل مصر بحقيقة التغيير الجديد فى حياتهم إلى الأحسن بعد أن تحولوا عن راية الروم واستظلوا براية الإسلام .

وتعد فترة ولاية عمرو على مصر فترة تطور وتقدم فى أحوالها السياسية والإدارية والإقتصادية والدينية . فقد أوجد نظمًا للحكم تختلف عما كانت عليه فى عهد الرومان وخاصة فى الإدارة والعمل فى الدواوين . ذلك لأن الدواوين لم تكن عربت بعد وأن لغة التعامل فى العهد البيزنطى استمرت هى لغة التعامل بعد الفتح العربى حتى عربت الدواوين فى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان .

ومن الناحية الدينية ، فلقد اتبع عمرو والولاة من بعده ، سياسة التسامح الدينى مع أهل البلاد الأقباط ومع يهود الإسكندرية ، والتزم معهم بعهد الأمان الذى قطعه لهم الخليفة عمر وكفل لهم حرية العقيدة والمحافظة على كنائسهم وأديرتهم وحرية العبادة فيها ، ولم يفرض عليهم تغييراً فى ملتهم أو قيوداً تجبرهم على التحول إلى الإسلام .

كذلك عمل عمرو على دعم اقتصادها من زراعة وصناعة وتجارة ، وإصلاح ما خربته الحروب من أرض زراعية وما أصابها من خراب وإهمال بسبب هروب الفلاحين منها أيام حكم الرومان هربًا من الضرائب الفادحة حتى تغل الأرض وتنتج وتحصل الدولة ما على هذه الأرض من خراج .

وقد إقتصر ما كانت تحصله دولة الخلافة من مال مصر يجمع ويرسل إلى بيت مال الخلافة على الجزية والخراج . وكان الله قد فرض فى كتابه الكريم الجزية على أهل الذمة من اليهود والنصارى بقوله تعالى :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

وكان أهل مصر قد صولحوا على أن يدفع جميع رجالهم ، الذين قدر عددهم آنذاك بنحو ثمانية ملايين رجل ، عن كل رجل قادر عامل دينارين جزية ، أو ضريبة رأس ، ولم تفرض لا على النساء ولا على الأطفال ولا على العجزة ولا على الرهبان ، وتدفع هذه الجزية مرة كل عام . وقد كانت هذه الجزية على اليهود والنصارى تقابل ضريبة الزكاة المفروضة على المسلمين وذلك حتى يشعر الذميون بمساهمتهم فى الدولة التى يستظلون برايتها والتى كفلت لهم الأمن والحماية .

وقام عمرو بن العاص بتحصيل الجزية وإرسالها إلى بيت مال الخلافة بالمدينة بعد حبس ما كانت تحتاج إليه البلاد من نفقات مثل : رواتب الجند ، ورواتب موظفى الدواوين ، والمال اللازم لاحتياجات الزراعة من حفر ترع وقنوات وبناء جسور وقناطر ، وكان جميع ما يُجمع من هذه الجزية فى عهد ولاية عمرو ١٢٠ ألف دينار فى العام .

وقد تقرر فى الإسلام أن تسقط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، وأخذ الزكاة منهم مساواةً لهم مع المسلمين ، تطبيقًا لقوله تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » . وقد التزم عمرو بن العاص بذلك ، والتزم به من تولى بعده ولاية مصر ؛ إلا أن بعض خلفاء الأمويين سمحوا لولاتهم بعدم إسقاط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة بسبب حاجة الدولة للمال فى حروب الفتح والقضاء على الفتن والثورات

لكن الخليفة عمر بن عبد العزيز بالذات تشدد فى أمر إسقاط الجزية عمن أسلم من نصارى مصر وكتب بذلك إلى عامله عليها أيام خلافته وهو حيان بن شريح ، يأمره بالإلتزام ويستنكر عليه المخالفة بقوله فى كتاب أرسله له :

« ... أما بعد ، فقد وليتك جند مصر ، وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطًا ، فضع الجزية ، فإن الله إنما بعث محمداً - صلى الله عليه وسلم - هاديًا ولم يبعثه جابيًا ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه » .

ومال الخراج الذى كان يحصل من مصر هو أقدم أنواع الضرائب فى تاريخ البشرية لارتباطه بالأرض ، عرفته الشعوب المختلفة وأقره الإسلام ووضع له نظاماً يتفق مع تعاليمه . وقد فرض الخراج في الإسلام على نوعين من الأراضى وهى :

أ - الأرض التى فتحها المسلمون عنوة ، إذا عدل الخليفة عن تقسيمها كغنيمة علي المحاربين وعوضهم عن نصيبهم فيها ، ويبقى على هذه الأرض أهلها يفلحونها على أن يدفعوا خراجها الذى قدر بنصف ما تغله الأرض من محصول وينتفعوا هم بالنصف الباقى .

ب - الأرض التى يستولى عليها المسلمون صلحًا ويتصالح أهلها على أداء خراجها وتظل فى أيديهم يتوارثونها وليس لأحد أن يأخذها منهم .

والخراج يظل لاصقًا بالأرض ولا يسقط عنها حتى ولو أسلم صاحبها أو انتقلت ملكيتها إلى أيدى مسلمين.

ويؤخذ الخراج إما مالاً أو غلة ، حسب رغبة الخليفة وحسب حاجة الدولة . وقد أخذ الخليفة عمر الخراج مالاً على أرض سواد العراق بعد فتحها ، وكان يحصل على الفدان المزروع قمحًا فى عهده سنويًا ١٤ درهم ، على اعتبار أن الفدان يساوى ٣,٥ جريب وأن على الجريب أربعة دراهم . أما ما يؤخذ غلة فيعرف بالمزارعة أو المعاملة ، وذلك وفقما عامل رسول الله - صلى الله عليه وسلم يهود خيبر على النصف مما تغله الأرض قل أم كثر فى كل عام بعد جنى المحصول .

ولقد جبى عمرو بن العاص خراج مصر عامًا ١٢ مليون دينار ، وجباه فى عام آخر ١٤ مليون دينار :

بناء الفسطاط :

وأسس عمرو بن العاص عاصمة جديدة لمصر ، بدلاً من الإسكندرية التى كانت عاصمتها فى عهد حكم البطالمة والرومان . وكان عمرو قد عزم - بعد فتح الإسكندرية السكنى فيها واستمرار إتخاذها عاصمة لمصر لحبه لها وإعجابه بها . وكان عمرو قد أرسل إلى الخليفة كتابًا مشهوراً يصف فيه الإسكندرية يظهر فيه حبه وإعجابه بها . وقد جاء فى هذا الكتاب : « لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعمائة ملهى واثنى عشر ألف بائع للخضر وأربعين ألفًا من اليهود أهل الذمة » .

واستأذن عمرو الخليفة عمر السكنى فيها واستمرار إتخاذها عاصمة لمصر فسأل عمر رسول عمرو قائلاً : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل » ، أى وقت الفيضان ، فكتب عمر إلى عمرو : « إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت »

فتحول عمرو عن الإسكندرية إلى موضع جديد فى السهل الذى يلى الحصن الرومانى عند مدينة منف القديمة عرف بالفسطاط (الخيمة) من اللفظ الرومانى فوساتم Fossatum وقيل إنما سميت العاصمة الجديدة بالفسطاط ، لأن عمرواً بن العاص لما أراد التوجه لفتح الإسكندرية لقتال من بها من الروم أمر بنزع فسطاطه (أى خيمته) فإذا فيه يمامة قد أفرخت ، فقال عمرو : « لقد تحرم منا بمحرم » فأمر به فأقر كما هو وأوصى به صاحب القصر ، فلما قفل المسلمون عائدين من الإسكندرية قالوا : « أين ننزل ؟ » ، قالوا : « الفسطاط » - يعنون فسطاط عمرو الذى خلفه بمصر مضروبًا لأجل اليمامة فغلب عليه ذلك - وكان موضع الفسطاط المذكور موضع الدار التى كانت تعرف بدار الحصاد عند دار عمرو الصغيرة .

ولما رجع عمرو من الإسكندرية سنة ٢١هـ نزل موضع فسطاطه وتنافست القبائل بعضها مع بعض فى المواضع فولى عمرو عدداً من قواده فصلوا بين مواضع القبائل ، منهم معاوية بن حديج التجيبى ، وشريك بن سمى الغطيفى ، وعمرو بن قحزم الخولانى وحيويل بن ناشرة المعافرى .

وكان موضع الفسطاط أرض فضاء ومزارع فيما بين النيل وجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن كان يعرف بقصر الشمع ، وكان هذا الحصن مطلاً على النيل وتصل السفن فى النيل إلى بابه الغربى الذى كان يعرف بباب الحديد ، ومنه ركب المقوقس فى السفن فى النيل من بابه الغربى حين غلبه المسلمون على الحصن وصار فيه إلى الجزيرة التى تجاه الحصن والتى عرفت بجزيرة الروضة . وكان بجوار هذا الحصن من الجهة الشمالية أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق ، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة للنصارى .

يقول المقريزى : « فلما افتتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية الفتح الأول نزل بجوار هذ الحصن واختط الجامع المعروف بالجامع العتيق وبجامع عمرو بن العاص ، واختطت قبائل العرب من حوله » .

ويُعد جامع عمرو بن العاص أول بيت من بيوت الله فى مصر وإفريقيا ، بنى سنة ٢١ هـ ، وهو أول موضع يجتمع فيه من الصحابة رضوان الله عليهم ما لم يجتمع فى غيره من المساجد الجامعة ، وهو رابع مسجد أقيم فى الإسلام ، بعد مساجد قباء ومسجد الرسول بالمدينة ومسجد الكوفة . وعرف هذا الجامع بتاج الجوامع . بنى فى الفضاء المجاور لحصن بابليون والواقع إلى الشرق من نهر النيل ، وكان طوله وقت إنشائه ٥٠ ذراع وعرضه ٣٠ ذراع . ولقد اشترك فى تحرى قبلته ثمانون من رجال الصحابة ممن حضر الفتح من بينهم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت وأبو ذر الغفارى .

أول زيادة له قام بها والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى سنة ٥٣ هـ فى خلافة معاوية بن أبى سفيان وزيد فى مساحته سنة ٧٧ هـ فى إمارة عبد العزيز بن مروان فى

عهد خلافة أخيه عبد الملك بن مروان ، وقام الوالى على مصر قرة بن شريك سنة ٩٣ هـ بتجديد عمارته وزخرفته فى عهد خلافة الوليد بن عبد الملك . وتعد أهم الزيادات والإصلاحات التى شهدها المسجد الجامع فى عصر الولاة تلك التي قام بها الأمير عبد الله بن صالح ، والى مصر من قبل الخليفة المأمون سنة ٢١٢ هـ . وأجمع علماء الآثار أن تلك الزيادة التى أحدثها عبد الله بن صالح لم يطرأ عليها تغيير يذكر حتى أصبحت مساحته ما هو عليها الآن والتى بلغت ١٦ مرة قدر المساحة التى بنى عليها عند إنشائه .

ولقد بنت القبائل خططها حول الجامع ، ويعرف المقريزى هذه الخطط بأنها بمنزلة الحارات التى بالقاهرة ، وعرفت هذه الخطط كل خطة بالقبيلة أو الجماعة التى اختطتها أو بصاحبها الذى اختطها . ومنها : خطة أهل الراية ، وهم جماعة من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار وثقيف ، وسموا أهل الراية ونسبت الخطة إليهم لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد بدعوة من الديوان فكره كل بطن منهم أن يدعى باسم قبيلة غير قبيلته فجعل لهم عمرو بن العاص راية ولم ينسبها إلى أحد فقال يكون موقفكم تحتها . وخطة تجيب ، وخطة لخم ، وخطة اللفيف ، وخطة غافق ، وخطة خولان ، وخطة مذحج ، وخطة يحصب ، وخطة المعافر ، وخطة الحمراوات ، وخطة حضرموت ، وغيرها . وكان فى خلال هذه الخطط دور جماعة كثيرة من الصحابة ممن حضر الفتح ، منها : دار عمرو بن العاص ، ودار الزبير بن العوام ، ودار مسلمة بن مخلد الأنصارى ، ودار سعد بن أبى وقاص ، ودار عقبة بن عامر الجهنى ، ودار عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وغيرها .

وقامت مدينة الفسطاط واتسعت ، واتخذ تسع وعشرون والٍ من ولاة مصر الفسطاط عاصمة لهم منذ إنشائها حتى سنة ١٣٣ هـ ، أى مدة ١١٣ عامًا (من ٢٠ - ١٣٣ هـ) ، حتى تأسست عاصمة ثانية جديدة لمصر هى مدينة العسكر ، شمال شرقى الفسطاط (موضعها الآن حى زين العابدين وحى البغالة بالقاهرة) . وكان قد بنى هذه المدينة " صالح بن على " ، أول والٍ عباسى فى مصر من قبل الخليفة أبى العباس السفاح ، وأول من سكنها من ولاة العباسيين الوالى " أبو عون عبد الملك " .

وبعد بناء الفسطاط أقبل عمرو بن العاص على عمل عظيم آخر وهو حفر خليج تراجان ، وكان ذلك الخليج يخرج من النيل إلى شمال بابليون فيمر بمدينة عين شمس ، ثم يسير فى وادى الطميلات إلى موضع القنطرة حتى يتصل بالبحر الأحمر عند القلزم (السسويس الحاليه) وقد أهمل الروم أمره حتى سده الطين . وكان هذا الخليج أقدم عهداً من حكم تراجان ، وكان يعرف بقناة سيزوستريس ، وإنما سمى باسمه لأنه أعاد تراجان فتحه كما عزم عمرو بن العاص على أن يفعل به عند ذلك ويبلغ طول هذه القناة حوالى تسعون ميلاً .

وقيل أن عمرواً أراد أن يربط البحر الأحمر بالأبيض بقناة تصل بين البحرين وتسهل الملاحة الدولية ، ويكون بذلك قد قطع البرزخ بالبحر كما هو اليوم ، ولكن عمر بن الخطاب أبى عليه ذلك وأنكره قائلا أنه يمكن الروم من السير إلى البحر الأحمر وقطع السبيل على من أراد الحج إلى الأراضى المقدسة .

ولم ينصرف عمرو بن العاص كل الانصراف إلى هذه الأعمال السلبية فلم تشغله عن أمور الحرب والقتال ، فإنه رأى البلاد قد صارت إلى الإذعان للعرب منذ عهد الإسكندرية لا ينقص من سلطانهم عليها إلا بعض بلدان فى شمال الدلتا ولاسيما ما كان منها على شاطىء البحر المتوسط ، إذ أبت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من العهد .

وكان لعمرو أن يسير إليها إذا شاء فيقاتلها ولو كان ذلك فى مدة االهدنة . ويتضح لنا أنه قد توجه لقتالها فى ربيع سنة ٦٤٢ م . فتوجه إلى إقليم الحوف الغربى حيث توجد مدينة إخنا القريبة من الإسكندرية ، وكان حاكمها يسمى "طلما " فأتى إليه كتاب عمرو يعرض عليه شروط الصلح الذى صالح عليه المقوقس ، فرفضها هذا الحاكم فتوجه إليه عمرو بقواته وأرغمه على التسليم بها . وقد حدث مثل ذلك لمدينة بلهيب ، وكانت مدينة منيعة فى جنوب رشيد تبعد عنها أميال قليلة .

كذلك عقد عمرو صلحاً مع قزمان حاكم رشيد ومع حنا حاكم البرلس .

ومن البرلس توجه عمرو إلى دمياط فاستولى عليها فسيطروا بذلك على جميع منافذ النيل إلى البحر . ثم توجه عمرو بقواته واستولى على بلدة تنيس فى بحيرة المنزلة ، وهى مدينة اشتهرت بجودة صناعتها للملابس الكتانية الفاخرة ، واتصل باستيلاء المسلمين على جزيرة تنيس استيلائهم على مدن شطا ودبيق الواقعة بين تنيس ودمياط ، وكانت بلاد الصعيد قد تم فتحها ولا سيما إلى حدود إقليم طيبة ، قبل إنهاء فتح الدلتا بزمن طويل ، وكان فتح الصعيد على يد سرية أميرها خارجة بن حذافة ، ولنا أن نقول أن بلاد الصعيد أذعنت للعرب بغير قتال بعد فتح الإسكندرية .

وبعد فتح الإسكندرية إتجه عمرو بن العاص بأنظاره غربًا لفتح بلاد المغرب (بنطا بولس) حتى يؤمن حدود مصر الغربية من هجمات الروم ، إذ كانت هذه البلاد تابعة لدولة الروم . وقد أنفذ عمرو قواته إلى بلاد برقة أول عام ٢٢ هـ / ٦٤٣ م . ولم يقع بين العرب والروم قتال يذكر حتى وصلت قواتهم برقة ، التى سلمت لهم صلحًا على أن تدفع للعرب ثلاثة عشر ألف دينار جزية معلومة كل عام .

وسار عمرو بعد ذلك إلى طرابلس وكانت أمنع حصونًا وأعز جيشًا ، فقد كانت بها مسلحة كبيرة من الروم فأقفلت أبوابها وصبرت على القتال والحصار الذى فرضه العرب عليها حوالى شهراً . ونجحت قوات عمرو من التسلل إلى المدينة عن طريق البحر وفتحها ، وجاءت له قبيلة لواته البربرية التى كانت تسكنها تدين بالطاعة والولاء ، فلما تم هذا الفتح لعمرو عاد إلى مصر ومعه عدد كبير من الأسرى وقدر كبير من الغنائم فى صيف عام ٢٢ هـ / ٦٤٣ م .

وحتى يؤمن عمرو مصراً من ناحية الجنوب ، وأرسل قواته لغزو النوبة لمنع غاراتها الحدودية على مصر ، ونجحت هذه القوات فى مهمتها ، وعقد المسلمون مع النوبة الاتفاق المعروف بالبقط Pactum الذى نظم العلاقة بينهما ، وذلك بعد الحملة الناجحة التى قادها ضدهم والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣١ هـ / ٦٥١ م .

مكتبة الإسكندرية وامر حرقها:

إن أول مكتبة كانت بالإسكندرية هى المكتبة الشهيرة فى حى البروكيون ، وإن كان إنشاء هذه المكتبة العظمى التى إجتمعت فيها أجل مؤلفات العالم يرجع الفضل فيه إلى بطليموس سوتر فإنها لم تتحقق ولم يتم تجهيزها ويكمل نظامها إلا على يد خلفه بطليموس فلادلفوس . والظاهر أنها كانت فى جزء من مجموعة الأبنية الفخمة التى كانت تعرف بالمتحف . وقد قال سترابو عن ذلك المتحف أنه كان فى جوار قصور الملك العظيمة التى كان بناؤها على ربع مساحة المدينة . وكان بناء المكتبة له بهو عظيم فى وسطه من حوله عمد مصفوفة تحيط به وأفنية . وكانت هذه الأبنية تتصل بسواها مما كان فيه مدرسة الطب والتشريح والجراحة ومدرسة الرياضيات والفلك ومدرسة القانون والفلسفة . وكان يتصل بالبناء بستان وحديقة لعلم النبات ومرصد . وفى ذلك جهاز جامعة من أكبر الجامعات ، ولا نستطيع أن نعين على وجه الدقة الموضع الذى كانت فيه المكتبة ولها هيئة بناء المتحف إذ اختلف العلماء فى تعيين موضع ذلك المتحف . ومن المؤلم أن سترابو لا يذكر شيئا عن المكتبة فإنه لو ذكر عنها شيئًالكان دليلاً قاطعًا فى مسألة إحراق هذه المكتبة ، ولعرفنا الحقيقة فيما رواه بعض المؤرخين القدماء عن ضياع المكتبة فى حريق سنة ٤٨ ميلادية ، أى قبل زيارته للمدينة ببضع سنين .

فقد كان قيصر عند ذلك محصوراً فى حى البروكيون يحيط به المصريون من كل جانب وعليهم قائدهم أخيلاس ، فأحرق السفن التى فى الميناء ، وقيل أن النار امتدت من هناك وأحرقت المكتبة فأفنتها . ولقد ذكر بلوتارك صراحة حرق قيصر للمكتبة بقوله : « ولما رأى أسطوله يقع فى يد عدوه اضطر أن يدفع الخطر بالحريق فامتدت النار من المراسى فى الميناء فأحرقت المكتبة » .

وقد قال "سنيكا " « لقد أحرقت فى الإسكندرية أربعمائة ألف كتاب » .

وقال " ديوكاسيوس " : « وامتدت النيران إلى ما وراء المراسى بالميناء فقضت على أهراء القمح ومخازن الكتب » . ولقد اتفق الكتاب الأقدمون على أن مكتبة الإسكندرية كانت تحتوى على سبعمائة ألف كتاب بذل فى جمعها البطالمة جهداً كبيراً ولقوا فى سبيل ذلك عناءً كبيراً وقد أحرقتها النيران فى حرب الإسكندرية عندما غزاها قيصر وخربها » . وقد كتب " أورسيوس " ما يعزز هذا القول حيث يقول : « وفى أثناء النضال أمر بإحراق أسطول الملك وكان عند ذلك رأسيًا على الشاطئ فامتدت النيران فى جزء من المدينة وأحرقت منها أربعمائة ألف كتاب فى بناء قريب من الحريق فضاعت خزانة أدبية عجيبة مما خلفه آباؤنا الذين جمعوا هذه المجموعة الجليلة من مؤلفات النابغين » . وخلاصة القول أننا نرى الأقرب إلى العقل أن نصدق ما جاء من أخبار ضياع المكتبة فى حريق الإسكندرية على يد قيصر لا أن نكذبها .

ولكن بعد سبع سنوات أو ثمان من ذلك الحادث الذى وقع لقيصر أرسل مارك أنطونيو إلى الإسكندرية مكتبة ملوك برجاموس ، وكان ذلك منشأ مكتبة السرابيوم المتأخرة في معبد السرابيوم علي قلعة الأكروبوليس . وكانت هذه المكتبة تعرف بالمكتبة الصغرى أو المكتبة الوليدة تميزاً لها عن مكتبة الإسكندرية الكبرى التى أحرقها قيصر وقضى عليها فى القرن الرابع . ولكن هذه المكتبة الصغرى قد قضى عليها أيضًا أثناء نضال المسيحيين مع عبدة الأوثان عام ٣٩١ م حين هدم معبد السرابيوم وخرب ولحق المكتبة نفسها الخراب .

وإذا سلمنا برأى من يقول أن مكتبة السرابيوم ظلت باقية على عهدها حتى فتح العرب الإسكندرية ، إذا سلمنا بذلك كان أبعد الأمور أن يكون العرب قد أتلفوها ودمروها - والدليل على ذلك أن العرب لم يدخلوا المدينة إلا بعد أحد عشر شهراً من الفتح ، وقد جاء فى شروط الصلح أن الروم فى مدة الهدنة لهم أن يخرجوا من البلد إذا شاءوا وأن يحملوا معهم كل ما استطاعوا نقله من متاعهم وأموالهم ، وكان البحر فى كل هذه المدة خاليًا من العدو لا يقف شئ فيه بين الروم وبين القسطنطينية أو سواها من ثغور البحر ، فلو كانت مكتبة السرابيوم عند ذلك باقية لطمع الناس فى ثمن كتبها

وأغراهم ذلك بنقلها إن لم يغرهم شئ آخر ، إذ كانت كتبًا عظيمة القدر يقبل على شرائها كثير من الناس الذين لهم شغف بالعلوم وطلبها . وكان لابد لمثل هؤلاء أن يسعوا إلى نقل تلك الكنوز العلمية فى وقت الهدنة إذا كانت الفرصة ممكنة وما كانوا يتركوها تقع فى يد محاربى الصحراء الذين لا علم لهم بقيمتها وهم على وشك دخول المدينة .

وبعد فقد بقى الصمت لازمًا لكتاب القرنين الخامس والسادس عن ذكر تلك المكتبة وبقى إلى ما بعد الفتح ، ولا يمكن أن يكون قد حدث ذلك عن العرب دون أن يذكره الأسقف المصرى حنا النقيوسى ، الذى كتب كتاباته فى آخر القرن السابع ، وكان رجلاً من أهل لعلم وقد كتب فى ديوانه كل الأخبار المفصلة وأحاط فيه بمختلف الأحداث التى رفعت فى ذلك القرن ولم يفصل بينه وبين فتح العرب لمصر إلا خمسون عامًا . وقد أفاض حنا فى ذكر الإسكندرية وفصل فى وصف فتحها على يد العرب ، وما كان ليبيح لنفسه أن يتناسى حادثة كان لها عظيم الأثر إذ ذهبت بما كان يمكنه الإعتماد عليه فى كتابة تاريخه وحرمت العالم أجمع من أكبر كنوز العلم حرمانًا أبديًا .

ولقد كثر الجدل فى أمر مكتبة الإسكندرية العظمى وطالما احتدم الخلاف فى شأن إحراقها وهل كان للعرب يد فى ذلك عند فتحهم للمدينة ، أم أنهم براء من ذلك .

ونستطيع أن نلخص حقيقة الأمر فى التالى :

١ - إن قصة حرق العرب لمكتبة الإسكندرية لم تظهر إلا بعد خمسمائة عام من وقت وقوع الحادثة .

٢ - أن الرجل الذى حكى قصة الإحراق هذه على يد العرب وهو من أهل الإسكندرية ويدعى حنا الأجرومى ، والتى وردت على لسان المؤرخ أبى الفرج ، كان قد توفى قبل الفتح العربى لمصر بزمن طويل .

٣ - إن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين : الأولى مكتبة المتحف وهذه ضاعت فى الحريق الكبير الذى أحدثه قيصر ، وإن لم تتلف عند ذلك كان ضياعها فيما بعد فى وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل فتح العرب . وأما الثانية وهى مكتبة السرابيوم ، فإما أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ ، وإما أن تكون هلكت كتبها أو تفرقت وضاعت ، فتكون على أى حال قد اختفت قبل فتح العرب لمصر بقرنين ونصف قرن من الزمان .

٤- أن كتاب القرنين الخامس والسادس الميلاديين لا يذكرون شيئا عن وجود هذه المكتبة وكذلك كتاب أوائل القرن السابع .

٥- أن هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عند عقد المقوقس صلحه مع العرب على تسليم الإسكندرية لكان من المؤكد أن تنتقل هذه الكتب ، وقد أبيح ذلك فى شرط الصلح الذى يسمح بنقل المتاع والأموال مدة الهدنة التى بين عقد الصلح ودخول العرب فى المدينة ، وقدر ذلك أحد عشر شهراً .

٦- لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة لما أغفل ذكر كاتب من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح مثل : حنا النقيوسى ، ولما مر ذلك بغير أن يكتب حرفا عنه .

ولا يمكن أن يبقى شك فى الأمر بعد ذلك فإن الأدلة قاطعة وهى تبرر ما ذهب إليه المؤرخ رينودو من الشك فى قصة أبى القرج وما ذهب إليه جيبون من عدم تصديقها ، ولابد لنا أن نقول إن رواية أبى الفرج لا تعددو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس فى التاريخ .

ثبت بأسماء ولاة مصر

		سنة
أ - فى عهد الراشدين :	- عمرو بن العاص	٢١ - ٢٥ هـ
	- عبد الله بن سعد بن أبى سرح .	٢٥ - ٣٥
	- قيس بن سعد بن عبادة .	٣٥ - ٣٦
	- الأشتر النخعى مالك بن حارث (لم يصل إلى مقر ولايته قط)	٣٦ - ٣٦
	- محمد بن أبى بكر الصديق .	٣٦ - ٣٨
ب - فى العهد الأموى :	- عمرو بن العاص (للمرة الثانية)	٣٨ - ٤٣
	- عتبة بن أبى سفيان ، أخو معاوية .	٤٣ - ٤٤
	- عقبة بن عامر الجهنى .	٤٤ - ٤٧
	- مسلمة بن مخلد .	٤٧ - ٦٢
	- سعيد بن يزيد بن علقمة .	٦٢ - ٦٤
	- عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم .	٦٤ - ٦٥
	- عبد العزيز بن مروان بن الحكم .	٦٥ - ٨٥
	- عبدالله بن عبد الملك بن مروان .	٨٥ - ٩٠
	- قرة بن شريك بن الحارث العبسى	٩٠ - ٩٦
	- عبد الملك بن رفاعة الفهمى .	٩٦ - ٩٩
	- أيوب بن شرحبيل الأصبحى .	٩٩ - ١٠١
	- بشر بن صفوان بن حنظلة .	١٠١ - ١٠٢
	- حنظلة بن صفوان .	١٠٢ - ١٠٥
	- محمد بن عبد الملك بن مروان .	١٠٥ - ١٠٥
	- الحر بن يوسف بن الحكم .	١٠٥ - ١٠٨

- حفص بن الوليد بن الحارث . ١٠٨ - ١٠٩هـ
- عبد الملك بن رفاعة (للمرة الثانية) . ١٠٩ - ١٠٩
- الوليد بن رفاعة . ١٠٩ - ١١٧
- عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمى . ١١٧ - ١١٩
- حنظلة بن صفوان (للمرة الثانية) . ١١٩ - ١٢٤
- حفص بن الوليد (للمرة الثانية) . ١٢٤ - ١٢٧
- حسان بن عتاهية التجيبى (١٦ يومًا) ١٢٧ - ١٢٧
- حفص بن الوليد (للمرة الثالثة) . ١٢٧ - ١٢٨
- الحوثرة بن سهيل الباهلى . ١٢٨ - ١٣١
- المغيرة بن عبيد الله الفزارى . ١٣١ - ١٣٢
- عبد الملك بن مروان اللخمى . ١٣٢ - ١٣٣

جـ - فى العهد العباسى

- صالح بن على بن عبد الله بن العباس (للمرة الأولى) . ١٣٣ - ١٣٣
- أبو عون عبد الملك بن يزيد الخراسانى (للمرة الأولى) . ١٣٣ - ١٣٦
- صالح بن على (للمرة الثانية) ١٣٦ - ١٣٧
- أبوعون عبد الملك (للمرة الثانية) ١٣٧ - ١٤١

- موسى بن كعب . ١٤١ - ١٤١هـ
- محمد بن الأشعث . ١٤١ - ١٤٣
- حميد بن قحطبة . ١٤٣ - ١٤٤
- يزيد بن حاتم بن قبيصة . ١٤٤ - ١٥٢
- عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج . ١٥٢ - ١٥٤
- محمد بن عبد الرحمن بن حديج . ١٥٤ - ١٥٥
- موسى بن على بن رباح . ١٥٥ - ١٦١
- عيسى بن لقمان الجمحى . ١٦١ - ١٦٢
- منصور بن يزيد الرعينى . ١٦٢ - ١٦٢
- يحيى بن داود . ١٦٢ - ١٦٥
- إبراهيم بن صالح بن على (للمرة الأولى) . ١٦٥ - ١٦٧
- موسى بن مصعب . ١٦٧ - ١٦٨
- عسامة بن عمرو . ١٦٨ - ١٦٨
- الفضل بن صالح . ١٦٨ - ١٦٩
- علي بن سليمان . ١٦٩ - ١٧٢
- مسلمة بن يحيى . ١٧٢ - ١٧٣
- محمد بن زهير . ١٧٣ - ١٧٣
- داود بن يزيد . ١٧٣ - ١٧٤
- موسى بن عيسى . ١٧٤ - ١٧٥
- إبراهيم بن صالح (للمرة الثانية) . ١٧٥ - ١٧٦
- عبد الله بن المسيب . ١٧٦ - ١٧٧

- إسحاق بن سليمان بن على . ١٧٧ - ١٧٨هـ
- عبد الملك بن صالح بن على . ١٧٨ - ١٧٩
- موسى بن عيسى (للمرة الثالثة) ١٧٩ - ١٨١
- عبيد الله بن المهدى (للمرة الثانية) . ١٨١ - ١٨٢
- إسماعيل بن صالح . ١٨٢ - ١٨٣
- الليث بن فضل . ١٨٣ - ١٨٨
- أحمد بن إسماعيل . ١٨٨ - ١٩٠
- عبد الله بن محمد . ١٩٠ - ١٩١
- الحسين بن جميل . ١٩١ - ١٩٢
- مالك بن دلهم . ١٩٢ - ١٩٣
- الحسن بن البحباح . ١٩٣ - ١٩٤
- حاتم بن هرثمة . ١٩٤ - ١٩٥
- جابر بن الأشعث . ١٩٥ - ١٩٦
- عباد بن محمد . ١٩٦ - ١٩٨
- المطلب بن عبد الله (للمرة الأولى) . ١٩٨ - ١٩٨
- العباس بن موسى . ١٩٨ - ١٩٩
- المطلب بن عبد الله (للمرة الثانية) . ١٩٩ - ٢٠٠
- السرى بن الحكم . ٢٠٠ - ٢٠٥
- محمد بن السرى . ٢٠٥ - ٢٠٦
- عبيد الله بن السرى . ٢٠٦ - ٢١٠

د - حكام مستقلون : أحمد بن طولون والطولونيون . ٢٥٤ - ٢٩٢

هـ - ولاة عباسيون : ٢٩٢ - ٣٢٣

و - حكام مستقلون :
- محمد بن طغج الإخشيد والإخشيديون . ٣٢٣ - ٣٥٨
- الفاطميون . ٣٥٨ - ٥٦٧
- الأيوبيون . ٥٦٧ - ٦٤٨
- المماليك . ٦٤٨ - ٩٢٢

أهم الأحداث التي وقعت في مصر في عهد الولاة :

أ - في عهد الخلفاء الراشدين :

كان عمرو بن العاص أول ولاة مصر من قبل الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتحها ، دامت ولايته الأولى لها أربع سنوات إلى أن عزله الخليفة عثمان بن عفان عنها سنة ٢٥ هـ ، وأحل مكانه في ولايتها أخاه لأمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وقد قيل في سبب عزله أن الخليفة عثمان كان قد ولى ابن أبي السرح على صعيد مصر وأن عمرواً قدم على الخليفة وسأله عزله عن صعيد مصر ، فرفض عثمان ذلك وعزل عمرواً عن مصر وعقد لابن أبي السرح على مصر كلها بما فيها الصعيد وغيره .

عبد الله سعد بن أبي سرح :

ولى عبد الله إمرة مصر بعد عزل عمرو بن العاص سنة ٢٥ هـ من قبل الخليفة عثمان ، وجاءه الكتاب بولايته وهو بالفيوم ، وسكن الفسطاط ومكث أميراً على مصر مدة خلافة عثمان كلها . ولما ولى مصر أحسن السيرة في الرعية وكان جواداً كريمًا ، وأمره عثمان أن يغزو إفريقية (تونس) فسار في عشرة آلاف جندي وغزاها ، واجتمع أهلها على الطاعة والإسلام وحسن إسلامهم . ثم غزاها مرة ثانية سنة ٣٤ هـ حين نقض أهلها العهد حتى أقرهم على الإسلام والجزية .

وقام ابن أبي السرح ببناء أول أسطول حربي إسلامي في مصر ، استطاع بواسطته أن يهزم أسطول البيزنطيين في المعركة البحرية الشهيرة التي عرفت بمعركة " ذات الصواري " لكثرة صواري المراكب التي شاركت فيها في عهد الإمبراطور قنسطنطين بن هرقل . وكان عدد سفن المسلمين مائتي سفينة ، بينما كانت سفن الروم ألف سفينة ، وبفضل هذا الانتصار صارت السيطرة في البحر المتوسط للعرب المسلمين وبدأ هذا البحر يتحول إلى بحيرة إسلامية .

ومن أهم أعمال ابن أبى السرح غزو بلاد النوبة حتى بلغ دنقلة عاصمة مملكتها " مقرة " المسيحية سنة ٣١ هـ ، وعقد معهم معاهدة عرفت بالبقط Pactum ، تعهدت فيها النوبة بتأمين حدود مصر الجنوبية وعدمالقيام بمهاجمتها ، وإرسال عدد من شبان النوبة سنوياً ضريبة لمصر تسلم عند بلدة القصر بالقرب من أسوان . كذلك قام ابن أبى السرح بمحاربة قبائل البجة الوثنية المنتشرة فى الصحراء الشرقية وفى وادى العلاقى ، وعقد معهم إتفاق مصالحة مثل إتفاق البقط الذى عقده مع ملك النوبة .

وفى سنة ٣٥ هـ توجه ابن أبى السرح إلى المدينة لما استعرت الفتنة ضد الخليفة عثمان وقام الثوار بحصاره فى داره ومنع الزاد والطعام عنه ، واستخلف مكانه على ولاية مصر عقبة بن عامر الجهنى ، «وأثناء غياب بن أبى السرح وثب محمد بن أبى حذيفة على مصر وخلع عقبة بن عامر عن الولاية وأخرجه من الفسطاط ودعا إلى خلع عثمان ، وأسعر البلاد وحرض على عثمان بكل شر يقدر عليه فاعتزله شيعة عثمان ونابذوه وهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة وبسر بن أرطاة ومسلمة بن مخلد فى جمع كثير وبعثوا إلى عثمان بأمرهم وبصنيع ابن أبى حذيفة فبعث سعد بن أبى وقاص ليصلح أمرهم فخرج إليه جماعة فقلبوا عليه خيمته وسبوه وأصابوه بجراح فعاد راجعاً ، وعاد عبد الله بن سعد بن أبى السرح إلى الفسطاط من المدينة لكنهم منعوه من دخولها فعاد إلى عسقلان ، وقتل عثمان وابن أبى السرح فى عسقلان ، الذى قتل بدوره بفلسطين وقيل بالرملة ، وقتل أيضاً محمد بن أبى حذيفة سنة ٣٦ هـ بفلسطين ، ولما بلغ الخبر الخليفة على بن أبى طالب ، وكان قد تولى الخلافة آنذاك ، جعل ولاية مصر لقيس بن سعد بن عبادة الأنصارى وكان قيس من دهاة العرب وكان ضخماً جسيماً صغير الرأس ليست له لحية» .

ووصل قيس مصر فى مستهل شهر ربيع الأول سنة ٣٦ هـ ، فدخلها ومهد أمورها وكانت ولايته عليها مدة قصيرة لم تتجاوز الأربعة أشهر . وكان سبب عزله أن كاد له كل من معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص عند الخليفة باتهامه بالموالاة لقبيلة قيس وأنها من شيعته وحزبه ، وقد كانت قبيلة معادية لعلى ، كذلك اتهموه بالتآمر مع هذه القبيلة ومكاتبتها سراً ضد الخليفة . وقد ساعدهم محمد بن أبى بكر على توصيل هذه الوشاية إلى الخليفة لرغبتة فى تولى إمارة مصر . فكتب على لقيس يأمره بالقدوم إليه وعزله عن مصر وولى مكانه عليها الأشتر النخعى .

ولقد وقعت معركة الجمل في السنة التي تولى فيها قيس بن سعد ولاية مصر ، في مكان يقال له الخريبة في جمادى الأولى من تلك السنة ، وهي المعركة التي قتل فيها كل من طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، حواري رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وابن عمته صفية .

وكان الأشتر النخعي (مالك بن الحارث) من الأبطال الشجعان المشهورين ، وكان من أصحاب علي وكان معه يوم الجمل . ولقد تهيأ الأشتر للذهاب إلى مصر للقيام بأمر ولايتها ، فلما قدم القلزم شرب عسلاً به سم ، فمات قبل أن يصل الفسطاط ، ولما بلغ خبره عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان ، قال عمرو : « إن لله جنوداً من عسل » .

ولما علم بموت الأشتر جعل ولاية مصر لمحمد بن أبي بكر الصديق ، الذي كان يكنى بأبي القاسم ، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية ، ومولده سنة حجة الوداع بذي الحليفة . وقد تربى محمد هذا عند علي بن أبي طالب الذي تزوج أمه أسماء بعد وفاة أبيه أبي بكر الصديق . ولما سار علي إلى واقعة الجمل كان محمد هذا معه ، ثم شهد موقعة صفين ، ثم ولاه مصر فتوجه إليها ودخلها في النصف الثاني من شهر رمضان سنة ٣٧ هـ .

« وقام محمد بمحاربة شيعة عثمان فهدم دورهم ونهب أموالهم وسجن ذراريهم ، فنصبوا له الحرب ، ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية فلحقوا بمعاوية بالشام » .

فبعث معاوية عمرو بن العاص في جيوش أهل الشام إلى الفسطاط وحاربت قوات ابن أبي بكر وانتصرت عليها ، فهرب ابن أبي بكر وآوى إلى إحدى الخرابات ، وجاء عمرو بن العاص ودخل الفسطاط ، وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد بن أبي بكر إلى أن عثر عليه ووقع في يده وقام بقتله ووضع جثته في جيفة حمار ميت ثم أحرقه بالنار في شهر صفر سنة ٣٨ هـ ، وكانت ولايته خمسة أشهر .

ب - في العهد الأموي:

ثم ولى مصر عمرو بن العاص ولايته الثانية من قبل معاوية بن أبى سفيان (٣٨ - ٤٣ هـ) ، ودخلها فى شهر ربيع الأول سنة ٣٨ هـ ، وجمع إليه معاوية الصلاة والخراج فى ولايته هذه ، وقام عمرو بالإصلاح فى مصر وتمهيد أمورها ، ثم خرج منها وافداً على معاوية بالشام واستخلف على مصر إبنه عبد الله ، وحضر أمر الحكمين ، ثم رجع إلى مصر على ولايته التى دام بها حتى وفاته بها ودفنه فيها فى سفح جبل المقطم .

ولقد تعرض عمرو لمحاولة قتل دبرها بنو لخم الخوارج لقتله وقتل كل من معاوية وعلى معه ، فخرج عبد الرحمن بن ملجم لقتل على وقيس لقتل معاوية ويزيد لقتل عمرو بن العاص وسار الثلاثة كل واحد إلى جهة من هو متوجه لقتله ، وتواعد الجميع أن يثب كل واحد علي صاحبه فى سابع عشر شهر رمضان . فأما عبد الرحمن فإنه وثب على على وقتله وأما قيس فوثب على معاوية وضربه فى فخذه فلم تؤثر فيه الضربة غير أنه جرح وأما يزيد فإنه توجه إلى عمرو فعرضت لعمرو علة تلك الليلة منعته من الصلاة فصلى خارجة رئيس شرطته بالناس ، فوثب عليه يزيد يظنه عمرواً وقتله وأخذ يزيد وأدخل على عمرو فقال يزيد : «أما والله ما أردت غيرك » ، فقال عمرو : « ولكن الله أراد خارجة » ، فصار مثلاً : « أردت عمرواً وأراد الله خارجه » .

ولقد عقد عمرو لشريك بن سمى على غزو قبيلة لواته من البربر ، فغزاهم سنة ٤٠ هـ ، وصالحهم ، ولكنهم نقضوا الصلح بعد ذلك ، فأرسل بهم سنة ٤١ هـ عقبة بن نافع الفهرى فغزاهم وهزمهم وأجبرهم علي قبول الصلح وفى سنة ٤٣ هـ عقد عمرو لشريك بغزو قبيلة لبدة ولعقبة بغزو قبيلة هوارة ببلاد المغرب ، فقاما بغزوها ، وعادا ليجدا عمرو مريضًا يغالب الموت وقد توفى عمرو بن العاص فى ليلة عيد الفطر سنة ٤٣ هـ ، فصلى عليه إبنه عبد الله ودفنه ثم صلى بالناس صلاة العيد ، وقيل أنه عند وفاته كان قد بلغ عمره ما بين تسعين ومائة عام ، وأنه دفن بسفح المقطم .

ثم ولى مصر بعد وفاة عمرو ، عتبة بن أبى سفيان ، أخو معاوية بن أبى سفيان لأبيه في شوال سنة ٤٣ هـ ودخل مصر فى ذى القعدة منها وأقام بها أشهراً ثم خرج منها وافداً على أخيه معاوية بدمشق ، واستخلف على مصر عبد الله بن قيس بن الحارث . وكانت في عبد الله شدة فكرهه الناس بمصر ، فبلغ ذلك عتبة فرجع إلى مصر وأقام العدل بها . وتوفى عتبة بالإسكندرية ودفن بها ، وكانت ولايته على مصر عامًا واحداً .

ولما توفى عتبة جعل معاوية بن أبى سفيان ولاية مصر للصحابى الجليل ، الذى كان يقود بغلة رسول الله فى الأسفار، عقبة بن عامر الجهنى (٤٤ - ٤٧ هـ) . وكان عقبة قد شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وكان قارئًا عالمًا بالفرائض والفقه شاعراً كاتبًا وهو آخر من جمع القرآن ، وشهد عقبة الفتوح ، وشهد صفين مع معاوية وجمع له معاوية إمرة مصر بين الخراج والصلاة . ثم وفد مسلمة بن محمد الأنصارى علي معاوية فولاه مصر وأمره أن يكتم ذلك عن عقبة وجعل عقبة على رئاسة أسطول وأمره أن يسير به إلى جزيرة رودس ويفتحها ، وقدم مسلمة ولم يعلم عقبة بإمارته ، وخرج عقبة إلى الإسكندرية ، فلما توجه إليها استولى مسلمة على إمارة مصر فبلغ ذلك عقبة وعلم أنه خلع عن إمارة مصر وأنها صارت لمسلمة بن محمد وذلك فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٤٧ هـ ، فكانت ولاية عقبة بذلك سنتين وثلاثة أشهر ، وتوفى عقبة سنة ٥٨ هـ بمصر ودفن بقرافتها وقبره يُزار فيها ، ويجاور قبره قبر عمرو بن العاص والصحابى أبى بصرة .

وتولى بعد عقبة ولاية مصر مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصارى من قبل معاوية وهو صحابى جليل ، شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وجمع له معاوية الصلاة والخراج وبلاد المغرب ، ولما ولى مسلمة مصر انتظمت غزواته فى البر والبحر ، وفى أيام ولايته نزلت الروم البرلس سنة ٥٣ هـ فاستشهد فى الوقعة وردان ، مولى عمرو بن العاص فى جمع من المسلمين . وأمر ببناء منار لمسجد عمرو ، وهو أول من أحدث المنار بالمساجد والجوامع .

وخرج مسلمة إلى الإسكندرية فى سنة ٦٠ هـ واستخلف على مصر عابس بن سعيد ، فجاءه الخبر بموت معاوية بن أبى سفيان فى شهر رجب منها واستخلاف يزيد بن معاوية بعد أبيه ، وكتب إليه يزيد وأقره فى ولاية مصر ، وطلب منه أخذ البيعة له ، فكتب إلى عابس بذلك ، فطلب عابس ذلك من أهل مصر فبايعوا وبايع الناس يزيد .

واستمر مسلمة بن مخلد واليًا على مصر حتى وفاته بها فى ٢٥ رجب سنة ٦٢ هـ وكانت ولايته عليها خمس عشرة سنة وأربعة أشهر .

ثم تولى ولاية مصر بعده سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدى ، وهو من أهل فلسطين ولى إمرة مصر بعد وفاة مسلمة من قبل يزيد بن معاوية ، ودخلها فى مستهل رمضان سنة ٦٢ هـ . ولم تلق ولايته قبولاً من المصريين وظلوا على خلاف معه وإعراض عنه وتكبر عليه حتى توفى يزيد بن معاوية ودعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه وقام أهل مصر بدعوته وسار منهم جماعة كبيرة إليه ، فبعث عبد الله بن الزبير أميراً من طرفه على مصر هو عبد الرحمن بن جحدم ، وعزل سعيد نفسه عن الإمارة ، فكانت ولايته حوالى عامين . وفى خلال هذين العامين وقعت حروب كثيرة فى الشرق والغرب ، ففى الشرق كانت ثورة عبد الله بن الزبير ضد الأمويين حتى قدوم أمير ابن الزبير إلى مصر ودعوته له فيها ، وفى المغرب حدث خروج كسيلة البربرى على الدولة الإسلامية واستيلائه على إفريقيا ودخوله القيروان .

ثم ولى مصر عبد الرحمن بن جحدم ، من قبل عبد الله بن الزبير لما بويع بالخلافة فى مكة وبايعه المصريون وتوجه إليه منهم جماعة كثيرة وبايعوه ، فأرسل لهم عبد الرحمن هذا فى شعبان سنة ٦٤ هـ - ودخل معه مصر جماعة كثيرة من الخارجين على حكم الأمويين وأظهروا دعوة ابن الزبير فى مصر ودعوا الناس لمبايعته بالخلافة . ولما وصل عبد الرحمن إلى مصر وصل الخبر من الشام ببيعة مروان بن الحكم بالخلافة وإن أمره قد تم ، فصارت مصر معه فى الباطن وفى الظاهر لابن الزبير حتى جهز مروان بن الحكم جيشًا مع ابنه عبد العزيز بن مروان إلى أيله ليدخل مصر من هناك . ثم ركب مروان بن الحكم فى جيوشه وجموعه وقصد مصر ، فلما بلغ ابن جحدم ذلك استعد لحربه وحفر خندقًا عند القرافة خلال شهر من الحفر ، وسار مروان حتى نزل عين شمس فخرج إليه

ابن جحدم واقتتلوا يومين ، ثم اتفقا بعد ذلك على الصلح مقابل أن يقر مروان ابن جحدم على ولاية مصر وأن تدخل مصر فى طاعة مروان . ودخل مروان مصر أول جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، إلا أنه نقض عهده واتفاقه مع ابن جحدم فقام بعزله عن ولاية مصر وجعلها لابنه عبد العزيز بن مروان ، وقد كانت مدة ولاية ابن جحدم على مصر تسعة أشهر وأياماً .

وتوفى مروان بن الحكم فى أول شهر رمضان من هذا العام ، وعهد بالخلافة من بعده إلى ابنه عبد الملك ، ثم بعده إلى ابنه عبد العزيز أمير مصر . ولما تولى عبد الملك الخلافة أقر أخاه عبد العزيز على إمارة مصر . وحكم عبد العزيز والٍ على مصر وأحسن السياسة وأقام العدل مدة واحد وعشرين عامًا ، ولم تطل مدة ولاية والٍ بمصر فى الإسلام مثله . وكان عبد العزيز قد تخوف من ولاية مصر قبل أن يبرحها أبوه فقال له : « يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ فقال له أبوه مروان : يا بنى عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقًا تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن لك عينًا على غيره وينقاد قومه إليك » .

ولما أقام عبد العزيز بمصر وقع بها الطاعون سنة ٧٠ هـ ، فخرج عبد العزيز من الفسطاط ونزل حلوان فأعجبته واتخذها سكنًا وجعل بها الحرس والأعوان وبنى بها الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وغرس نخلها وكرمها . ثم جهز قواته لقتال عبد الله بن الزبير فى البحر سنة ٧٢ هـ .

ثم لما طالت أيام عبد الملك فى الخلافة بعد قتل ابن الزبير ثقل على عبد الملك أمر عبد العزيز أخيه وأراد أن يخلعه من ولاية العهد ويجعلها من بعده لولديه الوليد ثم سليمان ، فمنعه قبيصه بن ذؤيب ، وكان أقرب المقربين إليه ، من ذلك وقال له : لا تفعل ذلك فإنك باعث على نفسك صوتًا ولعل الموت يأتيه فتستريح منه ، فكف عن ذلك ونفسه تنازعه ، حتى دخل عليه روح بن زنباع الجزامى وكان أيضًا أجل الناس عند عبد الملك ، فشاوره فى ذلك ، فقال روح : لو خلعته ما انتطح فيها عنزان ، فبينما هما

على ذلك ، وقد نام عبد الملك وروح تلك الليلة عنده ، إذ دخل عليهما قبيصة ليلاً ، وكان لا يحجب عن عبد الملك ، وكانت الأخبار والكتب تأتيه فيقرؤها قبل عبد الملك ، فقيل له : قد جاء قبيصه ، فدخل قبيصة فقال : آجرك الله يا أمير المؤمنين فى عبد العزيز ، فاسترجع عبد الملك وقال لروح : يا أبا زرعة . كفانا الله ما أجمعنا عليه ، فقال له قبيصه : «فداك ما أردت ولم تقطع رحم أبيك ولم تأت بما تعاب به ، ولم يظهر عليك غدر» .

اقترح عبد العزيز على أخيه أن يسك عملة إسلامية تحل محل الدينار الرومانى والدرهم الفارسى .

وكانت وفاة عبد العزيز فى ١٣ جمادى الأولى سنة ٨٥ هـ ، قبل أخيه عبد الملك بسنة واحدة فى الطاعون الذى كان فى هذه السنة بمصر وأعمالها . وعبد العزيز هو الذى أشار على أخيه عبد الملك بضرب الدراهم والدنانير فضربها فى سنة ٧٦ هـ .

وولى مصر بعد عبد العزيز بن مروان عبد الله بن الخليفة عبد الملك سنة ٨٥ هـ وهو ابن سبع وعشرين سنة ، وما كاد يتولى الإمارة عدة أشهر حتى توفى أبوه الخليفة عبد الملك وولى الخلافة من بعده أخوه الوليد بن عبد الملك ، فأقره الوليد على إمرة مصر . ولقد أمر عبد الله أن تنسخ دواوين مصر بالعربية وكانت تكتب بالديموطيقية القبطية وتم تنفيذ ذلك . وفى ولاية عبد الله وقع الجفاف بمصر وغلت الأسعار بها غلواً شديداً ، حتى قيل إن أهل مصر لم يروا فى عمرهم مثل تلك الأيام . وقاسى أهل مصر الشدائد بسبب الغلاء فتشاءم الناس به هذا مع ما كان عليه من الشدة والجور وأخذه مال الخراج وأخذه الرشوة . ولما شاع ذلك عنه طلبه أخوه الوليد من مصر ، فخرج عبد الله من مصر إليه بدمشق فى صفر سنة ٨٨ هـ ، وأقام عند الوليد مدة يسيرة ثم عاد إلى مصر حتى عزله أخوه عن إمرتها سنة ٩٠ هـ وولى مكانه قرة بن شريك . فكانت ولاية عبد الله علي مصر ثلاث سنين وعشرة أشهر .

وتولى قرة بن شريك إمارة مصر للوليد بن عبد الملك بن مروان بعد عزل أخيه عبد الله عن إمارتها ، ودخلها يوم الإثنين ثالث شهر ربيع الأول سنة ٩٠ هـ وكان قرة سئ

التدبير خبيثًا ظالمًا غشومًا فاسقًا . وتوفى قرة وهو على إمارة مصر سنة ٩٥ هـ ، وقيل أنه ورد على الوليد البريد فى يوم واحد بموت قرة وموت الحجاج بن يوسف الثقفى ، ثم تبعهم الوليد بعد قليل . وكانت ولاية قرة بن شريك على مصر ست سنين إلا أيامًا .

وولى إمارة مصر عبد الملك بن رفاعة الفهمى بعد وفاة قرة بن شريك من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان فى شهر ربيع الآخر سنة ٩٦ هـ ، فلم يكن بعد ولايته إلا أيام ومات الوليد وخلفه فى الخلافة أخوه سليمان بن عبد الملك .

فأقر عبد الملك هذا على عمل مصر ، فدام على ذلك وحسنت سيرته . وكان عفيفًا عن الأموال متدينًا عادلاً على الرعية ، أمينًا فاضلاً . ولما مات سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ . وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أقر عبد الملك بن رفاعة على عمله بمصر مدة ثم عزله وأحل مكانه أيوب بن شرحبيل فى شهر ربيع الأول سنة ٩٩ هـ . وكانت ولاية ابن رفاعة على مصر ثلاث سنين .

وولى أيوب بن شرحبيل إمارة مصر من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز فى شهر ربيع الأول سنة ٩٩ هـ . وعند توليته الإمارة ورد كتاب الخليفة بالزيادة فى أعطيات الناس عامة وتحريم الخمر وكسر آنيتها وتعطيل حاناتها ، وحسنت أحوال الديار المصرية فى أيامه فقد أخذ أيوب فى إصلاح الأمور بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وبينما هو فى ذلك جاءه الخبر بموت الخليفة عمر بن عبد العزيز فى رجب ١٠١ هـ وتولية يزيد إبن عبد الملك بن مروان الخلافة ، وأن يزيد أقره على إمارة مصر ، لكن حياة أيوب لم تطل بعد ذلك ، إذ توفى فى ١٧ رمضان من نفس العام الذى توفى فيه الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فكانت ولايته على مصر سنتين ونصف .

ثم ولى إمارة مصر بشر بن صفوان بن حنظلة الكلبى من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك ، فقدم إليها فى ١٧ رمضان ١٠١ هـ . وفى أيامه نزل الروم تنيس ، ثم ولاه الخليفة يزيد على إفريقية (تونس) فخرج إليها فى شوال سنة ١٠٢ هـ ، واستخلف مكانه على إمارة مصر أخاه حنظلة بن صفوان ، فأقره يزيد بن عبد الملك على إمرة

مصر بدل أخيه برغبة من أخيه . وخرج حنظلة إلى الإسكندرية سنة ١٠٣ هـ واستخلف على مصر عقبة بن مسلمة التجيبى . وتوفى الخليفة يزيد وبويع أخوه هشام بن عبد الملك بالخلافة من بعده ، فقام هشام بصرف حنظلة عن إمارة مصر فى شوال سنة ١٠٥ هـ فكانت ولايته ثلاث سنين .

وقام هشام بتولية إمرة مصر لأخيه محمد بن عبد الملك بن مروان ، فدخلها يوم الأحد ١١ شوال سنة ١٠٥ هـ ، وحين وصوله إليها وقع بها وباء شديد فهرب محمد من الوباء إلى الصعيد أيامًا فلم تطل مدته بالصعيد وعاد بعد أيام إلى مصر ثم خرج منها مسرعًا إلى الأردن وطلب من أخيه إعفائه من إمارة مصر فصرفه عنها بالحر بن يوسف فكانت إمارته شهراً واحداً .

ثم تولى إمارة مصر الحر بن يوسف بن الحكم بن أبى العاص ، من قبل هشام بن عبد الملك بعد عزل محمد بن عبد الملك ، وكان المتولى على خراج مصر آنذاك عبيد الله بن الحبحاب ، فدخل الحر مصر فى الثالث من ذى الحجة سنة ١٠٥ هـ ، وباشر أمورها .

وفى إمرته حدثت أول ثورة للقبط ضد الحكم الإسلامى فى مصر سنة ١٠٧ هـ ووقع له معهم أمور طويلة ، ثم خرج إلى دمياط وأقام بها ثلاثة أشهر ، ثم عاد إلى مصر وأقام بها أيامًا ، ثم خرج منها ووفد على الخليفة هشام بالشام ، واستخلف مكانه حفص بن الوليد على الصلاة بمصر . فأقام عند الخليفة مدة يسيرة وعاد إلى مصر سنة ١٠٧ هـ ، وكانت مياه الفيضان قد انحسرت عن الأرض فقام بإصلاحها وتدبير أمورها ودام بها إلى ذى القعدة سنة ١٠٨ هـ ، ثم صرف عن إمارة مصر فى هذا الشهر باستعفائه لمغاضبة وقعت بينه وبين عبيد الله بن الحبحاب متولى خراج مصر ، فكانت ولاية الحر على مصر ثلاث سنوات كاملة . وتولى من بعده حفص بن الوليد ، الذى كان الحر قد استخلفه على الصلاة لما وفد على الخليفة هشام .

وتولى حفص بن الوليد إمارة مصر من قبل هشام بن عبد الملك على الصلاة مكرهًا على ذلك ، ولكن ولايته فى هذه المرة لم تزد عن أسبوعين فعزل بشكوى ابن الحبحاب يوم عيد الأضحى سنة ١٠٨ هـ .

فتولى إمارة مصر عبد الملك بن رفاعة للمرة الثانية ، وكان بالشام وقدم منها عليلاً ١٨ من المحرم ١٠٩ هـ ، وكان أخوه الوليد بن رفاعة ينوب عنه ، وتوفى عبد الملك بعد أسبوعين من قدومه إلى مصر ، فخلفه فى إمارتها بعهد من الخليفة هشام أخوه الوليد بن رفاعة .

وتولى الوليد بن رفاعة إمارة مصر ، واستمر على إمرتها وطالت أيامه ووقع له بها أمور ووقعت فى أيامه أحداث . وفى أيامه نقلت قبائل قيسية إلى مصر ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك . وفى أيامه أيضًا خرج وهيب اليحصبى من مصر سنة ١١٧ هـ من أجل أنه أذن للنصارى فى عمارة كنيسة يوحنا بالحمراء (التى تعرف اليوم بأبى مينا) ، وبعد أيام قليلة من ذلك مرض الوليد ولزم الفراش حتى مات يوم الثلاثاء أول جمادى الآخرة سنة ١١٧ هـ . وكانت إمرته على مصر تسع سنين وخمسة أشهر ، ولم تطل مدة الوليد هذا على مصر إلا لخروج عبيد الله بن الحبحاب المتولى على خراج مصر منها بأمر من الخليفة هشام واستعماله على إفريقية .

وتولى إمارة مصر بعد الوليد ، عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمى من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ، وكان الوليد قد استخلفه قبل موته على صلاة مصر ، وكان قبل ذلك أيضًا قد ولى شرطتها عدة سنين . وفى ولايته على مصر نزلت الروم بنواحى مصر وأسروا منها عدداً كبيراً ، فلما بلغ ذلك هشام عزله عن إمرة مصر وأعاد حنظلة بن صفوان ثانيًا على إمارة مصر فى سنة ١١٨ هـ ، وكانت ولاية ابن مسافر على مصر سبعة أشهر .

وتولى إمرة مصر حنظلة بن صفوان ، للمرة الثانية فى الخامس من المحرم سنة ١١٩ هـ ، ودام بها إلى سنة ١٢١ هـ . وفى هذه الولاية الثانية ثار ضده أقباط مصر فحاربهم وهزمهم ، واستمر على إمرة مصر حتى عزله عنها الخليفة هشام وولاه إفريقية ٧ ربيع الآخر سنة ١٢٤ هـ ، فكانت ولايته الثانية على مصر خمس سنين وثمانية أشهر .

وتولى الإمرة من بعده حفص بن الوليد للمرة الثانية فى ١٣ شعبان ١٢٤ هـ ، لمدة ثلاث سنوات توفى خلالها الخليفة هشام بن عبد الملك ، وخلفه فى الخلافة الوليد بن يزيد ، وقتل الوليد وخلفه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فى الخلافة ، ثم توفى يزيد وبويع لإبراهيم بن الوليد الذى خلعه مروان بن محمد الذى صارت له الخلافة وهو آخر خلفاء بنى أمية . وكان حفص قد كتب للخليفة مروان ليعفيه عن إمارة مصر فأعفاه وولى مكانه عليها حسان بن عتاهية .

وتولى إمرة مصر حسان بن عتاهية التجيبى لمدة ستة عشر يومًا ، فقد ثار عليه الجند وقاتلوه وعزلوه . ثم تولى من بعده إمرة مصر حفص بن الوليد للمرة الثالثة واستمر حفص فى إمارته شهرى رجب وشعبان ، وقدم عليه حنظلة بن صفوان من إفريقية وقد أخرجه أهلها منها فنزل بالجيزة وظل هنالك إلى أن جاءه خطاب الخليفة مروان بن محمد بولايتة على مصر ، فاعترض أهل مصر على ولايته ومنعوه من دخول مصر والمقام بالفسطاط وحاربوه وهزموه . واستمر حفص فى الإمارة بقية سنة ١٢٧ هـ إلى أن عزله الخليفة سنة ١٢٨ هـ وولى مكانه الحوثره بن سهيل الباهلى ، الذى قام بمحاربة حفص وقتله فى الثانى من شهر شوال سنة ١٢٨ هـ .

وتولى الحوثرة بن سهيل الباهلى إمارة مصر من قبل مروان بن محمد بعد عزل حفص ، ولما وصل الحوثرة مصر أجمع جند مصر وأهلها على منعه الدخول إلى مصر ، إلا أنه دخلها رغمًا عنهم ، وبعث حوثرة فى طلب رؤساء مصر فجمعوا له فضرب أعناقهم وفيهم رجاء بن الأشيم الحميرى من كبار المصريين ، ثم قتل حفص بن الوليد وأخذ فى تمهيد أمور مصر وتم له ذلك حتى سنة ١٣١هـ ثم عزله مروان بن محمد عن إمره مصر وبعثه إلى العراق لقتال الخراسانية دعاة بنى العباس فقتل هناك . وكانت ولايته على مصر ثلاث سنين وستة أشهر ، ثم تولى الإمارة بعده المغيرة بن عبيد الله .

وتولى المغيرة بن عبيد الله إمارة مصر من قبل مروان بن محمد بعد عزل الحوثرة ، وقدم إلى مصر فى ١٦ رجب سنة ١٣١ هـ ، ولم تطل مدة إمارته وتوفى فى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٢ هـ ، فكانت إمارته عشرة أشهر ، وقد استخلف المغيرة ابنه الوليد لكن الخليفة مروان لم يقره على ذلك وولى مصر لعبد الملك بن مروان بن موسى اللخمى .

وتولى عبد الملك بن مروان اللخمى إمارة مصر من قبل الخليفة مروان بن محمد ، وكان عبد الملك قد ولى خراج مصر قبل أن يلى إمرتها . وفى عهده ثار القبط واجتمعوا على قتاله فحاربهم وقتل منهم عدداً كبيراً . وقدم عليه الخليفة مروان بن محمد من الشام بعد أن إنهزم من أبى مسلم الخرسانى ولما دخل مروان وجد أن أهل الحرف الشرقى من بلاد مصر وأهل الإسكندرية والصعيد قد لبسوا السواد وصاروا من أعوان بنى العباس ، وقدم القائد العباسى صالح بن على فى طلب مروان ، فهرب مروان إلى بوصير بالجيزة ومعه عبد الملك وأمرائه وأقاربه من بنى أمية ، فلحق به صالح وقاتله وهزم قواته وقتله يوم الجمعة ٢١ ذى الحجة ١٣٢ هـ . ثم عاد صالح ودخل الفسطاط يوم الأحد ٨ المحرم سنة ١٣٣ هـ . وبعث برأس مروان إلى العراق وزالت دولة بنى أمية . وقد قام صالح بن على بإعطاء الأمان للأمير عبد الملك بن مروان ولأخيه معاوية وعفا عنهما بسبب حسن سيرتهما فى أهل مصر .

ج- فى العهد العباسى:

العصر العباسى ← ٥٢٤ عاماً

كان صالح بن على بن عبد الله العباسى ، أول من ولى إمارة مصر من قبل ابن أخيه الخليفة عبد الله السفاح بعد قتل مروان بن محمد فى أول المحرم ١٣٣ هـ . ولما وليها بعث ببيعة أهل مصر للسفاح ولخلفاء بنى العباس ، ثم أخذ فى إصلاح أمر مصر وقام بالقبض على جمع كبير من المصريين أتباع الأمويين منهم عبد الملك بن مروان بن موسى أمير مصر السابق وأخيه . وقتل كثيراً من شيعة بنى أمية وحمل طائفة منهم إلى العراق وقتلوا بفلسطين .

ولم تطل مدة ولاية صالح بن على الأولى على مصر إذ ورد عليه كتاب السفاح بإمارته على فلسطين والاستخلاف على مصر ، فاستخلف على مصر أبا عون عبد الملك إبن يزيد من أهل جرجان وخرج منها فى شعبان سنة ١٣٣ هـ ، فكانت ولايته فى هذه المرة سبعة أشهر .

وخلفه فى إمارة مصر أبو عون بن يزيد فى أول شعبان سنة ١٣٣ هـ ، واستمر بمصر إلى أن وقع الوباء بها فخرج منها ، ثم عاد إليها بعد الوباء وأقام بها إلى أن خرج منها ثانيًا إلى دمياط سنة ١٣٥ هـ . وفى هذه السنة ثار القبط فى بلدة سمنود فبعث إليهم أبو عون جيشًا فحاربهم وقاتلهم .

منطقة الحوض المرصود حالياً

العسكر :

وفى أيام أبى عون سكن أمراء مصر العسكر ، وكان العسكر يمتد على شاطئ النيل ، وكان وقتئذٍ أقرب إلى الشرق من موضعه الحالى لأنه بجرى بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ثم ابتعد عنه على توالى الزمن نحو خمسمائة متر .

وكان يحد العسكر جنوبًا كوم الجارح حيث تمتد الآن قناطر مجرى العيون وشمالاً شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبى . وغربًا بين شارعى السد والديورة وشرقًا خط تصورى يمتد من مصطبة فرعون بجوار مسجد الجاولى بشارع مراسينا إلى باب السيدة نفيسة .

وكان سبب بناء العسكر أن صالح بن على وأباعون لما جاءوا بجموعهم إلى مصر فى طلب مروان بن محمد نزلت عساكرهما الصحراء جنب جبل يشكر الذى فيه الآن جامع أحمد بن طولون ، وقد كان فضاءً ، فلما رأى أبو عون إتساع هذا الفضاء أمر أصحابه بالبناء فيه فبنوا وبنى هو دار الإمارة ومسجد عوف بجامع العسكر . وسمى من يومئذ ذلك الفضاء باسم العسكر وصار منزلاً لأمراء مصر بعد أبى عون ، وصار العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة وفيه أيضًا بنى أحمد بن طولون جامعه وبيمارستانه . وزادت العمائر فى العسكر إلى أن ولى أحمد بن طولون مصر وقدم إليها من العراق ونزل بدار الإمارة بالعسكر على عادة الأمراء فما زال ابن طولون بها إلى أن بنى القصر والميدان بالقطائع وتحول إليها .

ودام ابن طولون بالقطائع إلى أن مات وولى ابنه خمارويه وجعل دار الإمارة بالعسكر ديوان الخراج . فلما زالت دولة بنى طولون وولى محمد بن سليمان الكاتب سكن بدار فى العسكر ، وما زالت الأمراء بعد ذلك تنزل بالعسكر إلى أن قدم جوهر الصقلى من المغرب إلى مصر وبنى القاهرة المعزية سنة ٣٥٨ هـ .

وأما أبو عون ، فبعد أن حارب القبط بسمنود ، وبينما هو كذلك فى أموره ورد عليه كتاب الخليفة أبى العباس عبد الله السفاح بعزله عن ولاية مصر وتوليتها ثانيةً لصالح بن على العباسى للمرة الثانية . وكانت ولاية أبى عون فى هذه المرة الأولى ثلاث سنين إلا أربعة أشهر .

ثم ولى صالح بن على إمارة مصر للمرة الثانية من قبل السفاح ، فقدم مصر بجيوش كثيرة من فلسطين لغزو بلاد المغرب ، وكان قدومه إلى مصر فى ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٦ هـ .

وقد ولّى صالح أبا عون قيادة جيوش المغرب ووجهه نحو إفريقية . وبينما هو كذلك جاء الخبر بوفاة السفاح وخلافة أبى جعفر المنصور ، فأقر أبو جعفر عمه صالح بن على على عمل مصر على عادته فكتب إلى أبى عون بالرجوع عن غزو إفريقية ، فأرسل صالح إلى أبى عون بالخبر ، فأقام أبو عون ببرقة أحد عشر شهراً ثم عاد إلى مصر بجيشه ، فجهزه صالح إلى فلسطين لحرب الخوارج بها فسار أبو عون وحاربهم وهزمهم وقتل منهم أعداداً كبيرة . ثم خرج صالح بعد ذلك من مصر إلى فلسطين واستخلف ابنه الفضل مكانه فسافر حتى بلغ بلبيس ثم رجع إلى مصر وأقام بها إلى أن خرج منها ثانيةً فى الرابع من رمضان سنة ١٣٧ هـ ، فلقى أبا عون فكلفه بإمارة مصر وخراجها معًا ومضى إلى فلسطين .

ودخل أبو عون الفسطاط فى ٢٦ رمضان ١٣٧ هـ وسكن العسكر ودام على إمرة مصر ، واستمر صالح بفلسطين إلى أن أمره المنصور بالتوجه لغزو الروم سنة ١٣٨ هـ فحاربهم عند مرج دابق وانتصر عليهم ، وفى سنة ١٤١ هـ قام بغزو الروم فى صائفة ذلك العام ومات بقنسرين .

ولقد استمر أبو عون واليًا على مصر فى ولايته الثانية حتى شهر ربيع الأول سنة ١٤١ هـ حين عزله المنصور عن إمارة مصر وولى عليها موسى بن كعب ، فكانت ولاية عون الثانية على مصر ثلاث سنين ونصف .

ثم ولى إمارة مصر موسى بن كعب من قبل المنصور بعد عزل أبى عون لمدة سبعة أشهر ثم عزله المنصور عنها ، وولى مكانه أمرة مصر وخراجها لمحمد بن الأشعث فقدمها يوم الإثنين ٥ ذى الحجة سنة ١٤١ هـ ، واستمر فى الإمارة سنتين إلى أن عزل عنها أوائل سنة ١٤٣ هـ وولى المنصور مكان حميد بن قحطبة . ووصل حميد بن قحطبة إلى مصر ٥ رمضان ١٤٣ هـ .

ولم تدم إمارته على مصر سوى عام واحد وشهرين ، فعزله المنصور وأحل مكانه يزيد بن قبيصه . وقد دامت إمارة يزيد بن حاتم بن قبيصة مدة سبع سنوات ونصف . وخلفه في إمارة مصر عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج من قبل المنصور لمدة سنتين وشهرين ، ثم خلفه من بعده أخوه محمد بن عبد الرحمن لمدة ثمانية أشهر وتوفى بعدها ، وكان قد استخلف موسى بن على بن رباح الذى أقره المنصور على الولاية . وفى عهد ولايته ثار القبط بمنطقة هبيب سنة ١٥٦ هـ فأرسل قواته إليهم وقام بهزيمتهم وفى أيام إمارته توفى أبو جعفر المنصور يوم ٦ ذى الحجة ١٥٨ هـ ، وبويع بالخلافة إبنه محمد المهدى الذى أقر موسى على امارته فى مصر حتى ١٧ ذى الحجه ١٦١ هـ فكانت ولايته عليها ست سنوات . وولى المهدى بعده إمارة مصر لعيسى بن لقمان الجمحى لمدة أربعة أشهر فقط ، ثم ولاها لمنصور بن يزيد الرعينى ، ابن خال الخليفة المهدى لمدة شهرين ، ثم صرف عنها فى منتصف ذى الحجة من نفس العام ، ثم قام المهدى بتولية مصر ليحيى بن داود من أهل خراسان ، وكان شديداً على الناس ، واستمرت إمرته حتى المحرم سنة ١٦٥ هـ ، ثم صرف عنهـا وولى مكانه إبراهيم بن صالح بن على العباسى من قبل المهدى لمدة ثلاث سنين ثم عزله المهدى آخر عام ١٦٧ هـ .

ثم ولى إمرة مصر موسى بن مصعب سنة ١٦٧ هـ لمدة عشرة أشهر ، وقد ثار عليه أهل مصر لظلمه وقتلوه . وولى بعده عسامة بن عمرو فى شوال ١٦٨ هـ لمدة ثلاثة أشهر ، ثم خلفه الفضل بن صالح أول المحرم ١٦٩ لمدة عام ، ثم خلفه عليها على بن سليمان حتى وفاته سنة ١٧٢ هـ . ثم خلفه مسلمة بن يحيى لمدة عام ، ثم محمد بن زهير لمدة خمسة أشهر ، ثم داود بن يزيد لمدة عام ، ثم موسى بن عيسى لمدة عام ، ثم إبراهيم بن صالح للمرة الثانية لمدة عام حتى وفاته سنة ١٧٦ هـ .

ثم ولى إمرة مصر عبد الله بن المسيب من قبل الرشيد لمدة ثمانية أشهر ثم صرف عنها فى رجب ١٧٧ هـ . ثم وليها اسحاق بن سليمان بن على الذى اشتد على المزارعين وزاد فى خراجهم مما أدى إلى ثورة أهل الحوف عليه فقام بمقاتلتهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ، فصرفه الرشيد عن ولاية مصر بسبب ذلك سنة ١٧٨ هـ وولى مكانه هرثمة بن أعين لمدة شهرين ونصف ، ثم أحل مكانه عبد الملك بن صالح لمدة تسعة أشهر ، ثم صرفه عنها وأعاد موسى بن عيسى للمرة الثالثة حتى سنة ١٨٠ هـ .

وفى خلافة الرشيد تولى إمارة مصر عدة أمراء لمدد قصيرة لم تقع بها أحداث تذكر وتكرر الأمر فى عهد الأمين إلى أن تولى السرى بن الحكم وأبناؤه إمارة مصر فى خلافة المأمون .

ثم تولى بعد ذلك عبد الله بن طاهر بن الحسين من قبل المأمون ، ثم عيسى بن يزيد الجلودى وسكن عيسى العسكر على عادة الأمراء ، ودام عيسى على إمرة مصر حتى ١٧ ذى القعدة سنة ٢١٣ هـ . وصرف المأمون عبد الله بن طاهر عن إمرة مصر وولاها لأخيه المعتصم محمد بن هارون الرشيد ، فلمًا ولى المعتصم أقر عيسى هذا على الصلاة فقط وجعل خراج مصر لصالح بن شيرزاد . فلما ولى صالح الخراج ظلم الناس وزاد الخراج وتعسف فثار عليه أهل الحوف وعزموا على قتاله وقاتلوه وقتلوه فى صفر سنة ٢١٤ هـ . فعظم الأمر على المعتصم وقام بعزل عيسى عن إمرة مصو وولى مكانه عمير بن الوليد التميمى .

وتولى عمير بن الوليد إمارة مصر وخرج ومعه عيسى الجلودى فى ١٧ صفر لقتال أهل الحوف ودخل معهم فى معارك دامية انتهت بقتل عمير . فكانت مدة إمارته شهرين فقط . فتولى عيسى الجلودى إمارة مصر للمرة الثانية فحارب أهل الحوف ، ثم انهزم ، فأقبل المعتصم بنفسه إلى مصر على رأس جيش يتكون من أربعة آلاف مقاتل وقاتل أهل الحوف فى شعبان ودخل الفسطاط فى ٢٢ من شعبان ، وقتل أكابر الحوف ثم خرج إلى الشام بعد أن ولى على مصر عبدويه بن جبلة فخرج الناس بالحوف عليه فحاربهم حتى ظفر بهم ثم قدم الأفشين حيدر بن كاوس الصفدى إلى مصر فى الثالث من ذى الحجة فصرف عبدويه عن إمارة مصر وأحل مكانه عيسى بن منصور الرافعى أول سنة ٢١٦ هـ ، فقام أهل الدلتا عربها وقبطها بالثورة فى جمادى الأولى وأخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة فقدم الأفشين من برقة ثم خرج هو وعيسى وحاربا القوم وأسرا منهم وقتلا ومضى الأفشين ورجع عيسى فسار الأفشين إلى الحوف وقتل جماعتهم ووقعت معارك بينهما إلى أن قدم المأمون بنفسه إلى مصر فى العاشر من المحرم سنة ٢١٧ هـ فسخط على عيسى وقام بعزله من ولاية مصر .

ثم سار عسكره لمقاتلة أهل الغربية بالدلتا والحوف وأوقعوا بهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً ثم ارتحل الخليفة المأمون عن مصر فى ١٨ صفر بعد إقامته بها مدة خمسين يوماً وولى على إمرة مصر كيدر ، وهو نصر بن عبد الله الصفدى .

ودام كيدر على إمارة مصر إلى أن ورد عليه كتاب المأمون فى جمادى الآخرة ٢١٧ هـ بإمتحان الناس فى مسألة خلق القرآن ، وقام كيدر بامتحان القضاة وأهل الحديث وغيرهم . وأثناء قيام كيدر بذلك ورد عليه الخبر بموت المأمون فى شهر رجب ومبايعة المعتصم بعده بالخلافة ، وأمره بإسقاط العرب من الديوان وقطع العطاء ففعل كيدر ذلك . فخرج يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام عن الطاعة فتجهز كيدر لحربهم لكن الأجل وافاه وتوفى فى شهر ربيع الآخر سنة ٢١٩ هـ ، واستخلف ابنه المظفر بعده على ولاية مصر .

وأقر المعتصم المظفر بن كيدر على إمارة مصر ، وسكن العسكر على عادة الأمراء ، فخرج عليه الجروى ووقعت بينهما معركة كبيرة انتهت بانتصار المظفر فى جمادى الآخرة سنة ٢١٩ هـ ، ولكن المظفر لم تدم إمارته لأكثر من أربعة أشهر ذلك لأن المعتصم جعل إمارة مصر لقائده أبى جعفر أشناس التركى فقام أشناس بصرف المظفر عن إمارتها فى شهر شعبان من السنة .

ولقد أناب أشناس عنه موسى بن أبى العباس ثابت فى إمارة مصر فى مستهل شهر رمضان سنة ٢١٩ هـ . وقد جرت عادة كبار قواد الأتراك آنذاك حين يلون إمارات الدولة إستمرار إقامتهم فى سامرا أو بغداد إلى جوار الخليفة وينيبون عنهم أمراء يحكمون إماراتهم نيابة عنهم ويحصلون لهم خراج هذه الإمارات . ولقد استمرت نيابة موسى على مصر أربع سنين وسبعة أشهر ، حارب خلالها أهل الحوف وقام بامتحان الناس فى مسألة خلق القرآن وقتل بسبب ذلك عدداً كبيراً من علماء مصر وفقهائها وأجبرهم على القول بخلق القرآن .

وتولى إمرة مصر بعد عزل موسى مالك بن كيدر من قبل القائد أشناس وقدم إليها ٢٣ ربيع الآخر سنة ٢٢٤ هـ ، وسكن العسكر ، وساس الناس إلى أن صرف عن الإمارة فى الثالث من ربيع الآخر سنة ٢٢٦ هـ ، فكانت إمارة كيدر سنتين .

وتولى الإمارة من بعده على بن يحيى الأرمنى سنتين وثمانية أشهر ، توفى خلالها المعتصم وخلفه أخوه الواثق الذى أقره على إمارته ثم عزله ، ثم ولى إمارة مصر عيسى بن منصور للمرة الثانية من قبل أشناس فى السابع من المحرم سنة ٢٢٩ هـ ، وتوفى أشناس سنة ٢٣٠ هـ ، وحل مكانه إيتاخ ، الذى أقر إمارة عيسى ، وتوفى الواثق وبويع للمتوكل الذى صرف عيسى عن إمارة مصر فى منتصف ربيع الأول سنة ٢٣٣ هـ .

ثم تولى إمرة مصر هرثمة بن نصر الجبلى لمدة عام وتوفى ، وخلفه ابنه حاتم بن هرثمة فى ٢٣ رجب ٢٣٤ هـ ، إلا أن إيتاخ صرفه عن إمرة مصر وأحل مكانه على بن يحيى للمرة الثانية على مصر بعد شهر ونصف فقط من إمارته . واستمر على فى إمارته إلى أن قبض الخليفة المتوكل على إيتاخ فى المحرم سنة ٢٣٥ هـ وتصفية أمواله بمصر ، وقام المتوكل بتولية ابنه وولى عهده محمد المنتصر إمارة مصر ، فدعى للمنتصر من على منابرها . ولما ولى المنتصر إمرة مصر أقر على بن يحيى على عمل مصر ، ثم عزله عنها وأحل مكانه اسحاق بن يحيى بن معاذ فى ذى الحجة سنة ٢٣٥ هـ ، فكانت ولاية على بن يحيى الثانية سنة واحدة وثلاثة أشهر . ولم تزد إمارة إسحاق عن عامين إذ قام المنتصر بعزله عنها فى أول ربيع الأول سنة ٢٣٧ هـ . ثم ولى مكانه عبد الواحد إبن يحيى إلى أن عزله المنتصر فى ٧ صفر من نفس العام .

وولى مصر من بعده عنبسة بن إسحاق الضبى ، وهو من أهل هراة ولاة المنتصر مصر فقدمها فى مستهل ربيع الأول سنة ٢٣٨ هـ . وسكن العسكر على عادة الأمراء وأمر العمال برد المظالم وتخليص الحقوق وإنصاف الناس ، وأظهر الرفق والعدل مع الرعية والإحسان إليهم ما لم يسبقه إليه أحد من قبل . وكان يتوجه ماشياً إلى المسجد الجامع من مسكنه بالعسكر بدار الإمارة . وفى أول ولايته نزل الروم على دمياط يوم

عرفه واستولوا عليها وأخذوا ما فيها وقتلوا جمعًا كبيراً من المسلمين وسبوا النساء والأطفال . فلما بلغه ذلك من وقته بجيوش مصر ونفر إليهم يوم النحر سنة ٢٣٨ هـ ، فوجد الروم قد هربوا وأخلوا دمياط ، فقام بإصلاح شأنها وعاد إلى مصر . وعنبسة هذا آخر من ولى مصر من العرب وآخر من صلى بالناس فى المسجد الجامع ، وصرف عنبسة عن إمارة مصر بعد ولاية دامت أربع سنين وأربعة أشهر وخرج إلى العراق سنة ٢٤٠ هـ .

وولى إمارة مصر بعد عنبسة ، يزيد بن عبد الله بن دينار ، وكان من الموالى فى شهر رجب سنة ٢٤٢ هـ من قبل المنتصر . وقد توجه يزيد لمحاربة الروم لما نزلوا دمياط لكنه لم يلحق بهم ، وفى أيامه فى سنة ٢٤٧ هـ بنى مقياس النيل بجزيرة الروضة .

وجرت على العلويين فى ولايته شدائد كثيرة ، وتوفى المتوكل فى شوال وبويع بالخلافة لابنه محمد المنتصر ، وتوفى الفتح بن خاقان وزيره ، فأقر المنتصر يزيد على إمارة مصر ، ثم مات المنتصر فى ربيع الأول سنة ٢٤٨ هـ وبويع المستعين بالخلافة ، وخلع فى المحرم سنة ٢٥٢ هـ ، وبويع المعتز بالخلافة ، فخرج جابر بن الوليد عن الدولة بالإسكندرية ووقعت هنالك حروب جاء بسببها القائد مزاحم بن خاقان من العراق لمعاونة يزيد فى جيش كبير فى ١٧ رجب فحاربهم حتى ظفر بهم . ثم قام مزاحم بن خاقان بصرف يزيد عن إمارة مصر بعد أن وليها لمدة عشر سنين وسبعة أشهر .

وقام الخليفة المعتز بتولية إمارة مصر لمزاحم بن خاقان التركى ، أخو الفتح بن خاقان فى الثالث من شهر ربيع الأول سنة ٢٥٣ هـ ، وسكن العسكر ، وثار ضده أهل الحوف وقام بمقاتلتهم وأوقع بهم وقتل منهم وأسر . كذلك قاتل أهل تروجة (فى محافظة البحيرة) لما ثاروا ضده ، كذلك قاتل أهل الفيوم وقام بالتضييق على أهل مصر فى أمور كثيرة .

ولم يزل فى تشدده مع أهل مصر حتى مرض ومات ليلة الإثنين ٥ المحرم سنة ٢٥٤ هـ ، فاستخلف من بعده ابنه أحمد بن مزاحم الذى تولى إمارة مصر لمدة عام وعشرة أشهر فقط ، وتوفى بمصر ٧ ربيع الآخر سنة ٢٥٤ هـ . وتولى من بعده ياركوج إبن أولوغ طرخان التركى باستخلافه ، فأقره الخليفة المعتز على ذلك ، وكانت ولايته خمسة أشهر ونصف ، وخرج أول ذى القعدة سنة ٢٥٤ هـ ، بعد أن صرف عنها ، وحل مكانه فى شهر رمضان من نفس العام القائد أحمد بن طولون .

التعريب ونشر الإسلام فى مصر فى عهد الولاة :

عرف العرب ، منذ القدم ، الطريق إلى مصر وإلى وادى النيل طلبًا للتجارة عبر مسالك سيناء ودروبها ، أو عبر البحر الأحمر ، كما تسببت الأحوال الإقتصادية السيئة التى تعرضت لها شبه جزيرة العرب من وقت لآخر طوال حقب التاريخ المختلفة ، فى دفع أعداد من سكانها على الهجرة إلى وادى النيل سالكين الطرق ذاتها ، وقد تمت هذه الهجرات ، بأعداد متفاوتة وعلى مراحل متباعدة عبر القرون . غير أن هذه الهجرات التي ترجع إلى عصور التاريخ القديمة لم يترتب عليها تغيير جذرى فى تكوين شعب وادى النيل مثلما حدث بعد الفتح العربى لمصر . ويكفى - فى هذا المجال - أن نشير إلى ما تمخض عنه هذا التغيير الجذرى من تعريب مصر واعتناق غالبية أهلها دين الإسلام ، وتحول هذه البلاد من كونها معقل للمسيحية إلى صيرورتها معقلاً للإسلام وقلعة للمسلمين .

فبعد أن تم للعرب فتح مصر ، استقرت القوات الفاتحة فيها ، كما تلتها قوات أخرى بعد الفتح . وكان الجند العرب الذين استقروا فى مصر عقب الفتح ينتسبون إلى قبائل مختلفة ، قحطانية وعدنانية . وكان كل والٍ على مصر يصطحب معه عدداً من أهل قبيلته ليقيموا معه بمصر ويكونوا عونًا وعزوة له فى هذه البلاد .

ويتعذر على الباحث معرفة أسماء كل القبائل العربية التى ينتسب إليها هؤلاء الجند الذين شاركوا فى فتح مصر والذين قدموا مع الولاة إليها بعد الفتح لاختلاف الروايات بين من أرخ للفتح من المؤرخين العرب أمثال ابن عبد الحكم والبلاذرى .

غير أن الباحث يمكنه أن يخرج على الرغم من هذا الاختلاف فى الروايات - بحقيقة هامة وهى أن غالبية القبائل التى شاركت فى الفتح أو هاجرت إلى مصر فى أعقابه، كانت قبائل يمنية قحطانية من عرب جنوب الجزيرة العربية .

وتأتى قبيلة " بلى " التى جاءت إلى مصر وقت الفتح بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب واستقرت فى منطقة عيذاب على البحر الأحمر ، على رأس هذه القبائل ، كذلك قبيلة " جهينة " التى استقرت فى أعالى صعيد مصر ، وقبيلة " عك " وبلادهم فى تهامة اليمن على البحر الأحمر ، وكانوا يمثلون جانبًا كبيراً من جيش عمرو بن العاص الفاتح . كذلك قبيلة " همدان " التى شارك رجالها فى فتح حصن بابليون ، بالإضافة إلى قبائل " لخم " ، " وكندة " ، و" الأزد " ، و"جذام " ، " وخولان " ، وتنوخ ومذحج ، وغيرها .

ولقد تركز استقرار هذه القبائل القحطانية فى منطقة الحوف الشرقى (حول بلبيس بمحافظة الشرقية) فى بلاد : أهناس ، وطما ، ووسيم ، وببا وبوصير ، وأتريب وقربيط . هذا فضلاً عن استقرار البعض منها فى بلاد أخرى مثل : منف ، ومنوف ، وعين شمس ، وسخا ، والفيوم .

وتشير الروايات إلى أن أعداداً قليلة من القبائل العدنانية شاركت فى حملات الفتح ، وكانت من قريش ، أهم بطون كنانة ، ومن قبائل بنى مخزوم وبنى أمية ، وفهم وعدوان .

وازداد عدد القبائل العدنانية التى قدمت إلى مصر فى العهد الأموى ، ابتداءً من عهد ولاية عبد العزيز بن مروان ، الذى استقدم أعداداً كبيرة منها سنة ٦٥ هـ . كذلك نقلت أعداد من القبائل القيسية إلى مصر فى عهد ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى على مصر (١٠٩ - ١١٧ هـ) بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك ، وكان ذلك حين وفد عبيد الله بن الحبحاب ، متولى خراج مصر ، على هشام وسأله أن ينقل إلى مصر أبياتًا منها ، فأذن له الخليفة فى إلحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر على ألا ينزلهم الفسطاط .

فقدم ابن الحبحاب بألف وخمسمائة بيت وأنزلهم بلبيس بالحوف الشرقى وفرقهم فيها ، وقد تم ذلك فى الفترة ما بين سنوات ١٠٩ و ١١٤ هجرية . وفى سنة ١٣١ هـ اكتمل هذا العدد إلى ثلاثة آلاف أسرة من قيس سكنوا الحوف الشرقى ، وكانت غالبيتها من فزازة وبنى هلال وبنى سليم وهوازن . وقبيلة ربيعة واحدة من هذه القبائل العدنانية التى هاجرت إلى مصر وشقت طريقها إلى وادى حوف بالصحراء الشرقية ، ثم اتجهت ، بعد ذلك ، إلى وادى العلاقى ، جنوب هذه الصحراء .

ولم يستمر استقرار هذه القبائل فى الحوف الشرقى ، فقد تحركت أعداد منها واتجهت إلى صعيد مصر ، وجاوز بعضها الصعيد إلى بلاد النوبة ، كما واصل البعض الآخر المسير إلى السودان ، فكان ذلك نتيجة لعدم مقدرتهم على دفع خراج الأرض الزراعية التى سمح لهم ، فى العهد الأموى ، بتملكها وزراعتها ، فضلاً عن تعنت الولاة فى جمعه .

وازداد انتشار هذه القبائل فى صعيد مصر وازداد اختلاطها بأهالى البلاد المصريين الأقباط ابتداءً من عهد الخليفة المعتصم العباسى (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) ، بسبب قراره الخاص بإسقاط العرب من الديوان وحرمانهم من العطاء المقدر لهم منذ عهد الخليفة عمر ولأسرهم واحلال الأتراك مكانهم ، وعندما قام والى الخليفة كيدر بن نصر الصفدى (٢١٧ - ٢١٩ هـ) بتنفيذ هذا القرار ، لم يجد العرب بداً من العمل سعيًا وراء الرزق عن طريق آخر غير الجهاد والحرب ، فاحترفوا الزراعة والتعدين والرعى وغيرها من الحرف التى كان العربى يترفع عن العمل بها ، وأدى ذلك إلى اختلاطهم بالمصريين ونشر الإسلام بينهم ومصاهرتهم ، وأدى اعتناق المصريين للإسلام إلى اندماجهم التام مع العرب وإلى تعريب بلادهم .

يقول المقريزى فى ذلك : « إن العرب منذ أن نزلوا ريف مصر واستوطنوا فيه هم وأهاليهم اتخذوا الزرع معاشًا وكسبًا واختلطوا بالأقباط وتزوجوا من بناتهم ، فانقاد الرجال من الأقباط إلى إظهار الإسلام ليتزوجوا من المسلمات ، فاختلطت بذلك أنسابهم بأنساب المسلمين » .

واضطر أهل مصر إلى تعلم العربية لأنها لغة القرآن ، بعد أن دخلت أعداد كبيرة منهم فى الإسلام ، كذلك لأن العمل فى الدواوين ، منذ أن عربت فى عهد عبد الملك بن مروان ، صار يقتضى لمن يرغب فى إحراز المكانة فيها تعلم العربية .

ولقد رأى رجال الكنيسة المصرية أن عليهم أن يترجموا بعض الصلوات الكنسية من اللغتين اليونانية والقبطية بعد أن تفشى بين القبط تعلم العربية ، وبدخول اللغة العربية في صلوات الكنيسة المصرية أصبحت هذه اللغة هى اللغة القومية للمسلمين والمسيحيين على السواء من أبناء مصر .

وبانتشار العروبة والإسلام فى مصر ، نجد أنه بعد مضى قرنين من الزمان ، تصطبغ البلاد بالصبغة العربية الإسلامية ويصبح المسلمون هم غالبية سكانها ، وتتحول مصر إلى قلب العروبة والإسلام النابض منذ العصور الوسطى الإسلامية وحتى اليوم .

ثورات القبط فى عهد الولاة :

برغم تحرير الفتح العربى الأقباط المصريين من ظلم واستبداد واستعباد الروم لهم وحصولهم على الحرية والمساواة فى ظل الفتح الإسلامى ، إلا أننا سمعنا من المصادر عن نشوب ثورات قام بها القبط فى عهد الولاة ضد الحكم الجديد ، ذلك لأن السياسة التى اتبعها بعض هؤلاء الولاة مع أهالى البلاد المصريين كانت لا تتفق مع تعاليم الإسلام خاصة فيما يتصل بأمر الجزية والخراج .

وقد أمر المشرع المسلم أن تسقط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة . لكن بعض الولاة أخذوا الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ، وكان أول من أخذها الحجاج بن يوسف الثقفى ، لكن الخليفة عمر بن العزيز وضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة من أهل مصر ، وكتب بذلك إلى حيان بن شريح قائلاً : « أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى قال فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم وقال قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

وكتب حيان بن شريح إلى عمر بن عبد العزيز : « أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » . فكتب إليه عمر :

« أما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطًا فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمداً - صلى الله عليه وسلم - هاديًا ولم يبعثه جابيًا ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه » .

وكانت أول ثورات القبط فى عهد ولاية « الحر بن يوسف بن الحكم » (١٠٥ - ١٠٨ هـ) ففى سنة ١٠٧ هـ انتقض أهل الصعيد وقبط الحوف الشرقى . وكان صاحب خراج مصر عبد الله بن الحبحاب فى ولاية الحر قد كتب للخليفة هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل زيادة الخراج فزاد على كل دينار قيراطًا فثار أهل كورة تنوديمى وقربيط وطرابية وعامة الحوف الشرقى ، فبعث إليهم الحر بأهل ديوان الجند فحاربوهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً . ورابط الحر بقواته بدمياط ثلاثة أشهر .

ثم ثار أقباط الصعيد سنة ١٢١ هـ ضد أميرهم حنظلة بن صفوان ، فأرسل إليهم حنظلة رجال الديوان فقتلوا منهم أعداداً كبيرة وظفر بهم . وفى سنة ١٣٢ هـ ثار القبط فى بلدة سمنود وقاد ثورتهم رجل يسمى (بخنس) فبعث إليه بعبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، أمير مصر آنذاك فقتل بخنس فى كثير من أصحابه . كذلك أعلن القبط التمرد فى مدينة رشيد فأرسل لهم الخليفة مروان بن محمد لما دخل مصر فاراً من بنى العباس بعثمان بن أبى قسعة فهزمهم .

«وفى سنة ١٥٠ هـ ، ثار القبط فى سخا وشبرا على واليهم يزيد بن حاتم بن المهلب إبن أبى صفرة ، وصاروا إلى شبرا سنباط وانضم إليهم أهل اليشرود والأريسية والنجوم فأتى الخبر ليزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجوه مصر فخرجوا إليهم فباغتهم القبط وقتلوا من المسلمين فألقى المسلمون النار فى عسكر

القبط وانصرف المسلمون إلى فسطاط مصر منهزمين» . وفى سنة ١٥٦ ثار القبط فى عهد ولاية موسى بن على بن رباح ببلدة بلهيب ، فخرج إليهم العسكر وهزمهم ، ثم ثاروا سنة ٢١٦ هـ ، فى خلافةالمأمون ، فأرسل إليهم قائده " الأفشين " فأوقع بهم فى ناحية اليشرود ، وأخمد ثورتهم ، ومن بعد ذلك صمتت المصادر عن ذكر ثورات قام بها القبط في مصر ضد حكامها فى عصر الولاة .

مصر إقطاعا للأتراك :

وكان عنبسة بن إسحاق الضبى ، آخر من ولى مصر من الولاة العرب : ذلك لأن الخليفة العباسى " المعتصم " ، الذى تعصب للأتراك لكونهم أخواله ، بدأ حكمه باستبدال العرب فى الجيش والقيادة بالأتراك ، وأسقط العرب من الديوان وأحل مكانهم الترك ، وأهل الولاة الأتراك مكان الولاة العرب على الولايات وجعل ولاياتهم إقطاعًا خاصًا لهم . وبالطبع كانت مصر أحد هذه الإقطاعات الخاصة لمن تولى أمرها من أمراء الترك .

وكان شرط إقطاع هؤلاء الولاة الأتراك أن يدفعوا مبلغًا معلوما لدار الخلافة كل عام على أن يستخلصوا ذلك المبلغ وما يزيد عنه من خراج الولايات التى يملكونها ومن مواردها المالية المختلفة ليعوضوا بذلك ما يقومون بدفعه لدار الخلافة . ولقد كان هذا النظام مجحفًا وظالماً لشعوب هذه الولايات ذلك لأن هؤلاء المقطعين الأتراك كانوا يبذلون كل ما فى وسعهم للضغط على هذه الشعوب واستنزافهم لأكبر قدر ممكن حتى يتمكنوا من الحصول على المال اللازم لهم ، وكان هذا المال المطلوب يفوق فى قيمته قدر ما دفعوه لدار الخلافة بأضعاف مضاعفة .

وقد أثر هؤلاء الولاة الأتراك البقاء فى سامرا أو بغداد ، إلى جوار الخليفة وفى مركز الأحداث فى العاصمة ، وينذبون عنهم حكامًا يديرون شئون ولاياتهم ويحكمونها نيابة عنهم ، وكانوا يدعون لهم فوق منابر ولاياتهم فى خطبة الجمعة بعد دعائهم للخليفة ، ويلتزمون بتحصيل الخراج المقرر على ولاياتهم .

ولقد استمرت مصر إقطاعًا للولاة الأتراك ، إلى أن تولى إمرتها أحمد بن طولون ، سنة ٢٥٤ هـ ، نائبا عن أحد هؤلاء الولاة الأتراك ، واستمر إبن طولون تابعا لدولة الخلافة ونائبا لسيده على مصر ، إلى أن أتيحت له فرصة الاستقلال عن دولة الخلافة بعد إثنى عشرة عامًا من إنابته ، فأعلن استقلاله بمصر سنة ٢٦٦ هـ ، وأنشأ بها دولة مستقلة عرفت بالدولة الطولونية ، حكمت لمدة ستة وعشرين عامًا حكماً مستقلاً عن الخلافة العباسية .

ثانيا: الدولة الطولونية

(٢٦٦ - ٢٩٢ هـ / ٨٧٩ - ٩٠٤ م)

١ - أحمد بن طولون ، واليًا (٢٥٤ - ٢٦٦ هـ) .

، أميراً مستقلاً (٢٦٦ - ٢٧٠ هـ) .

٢ - خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٠ - ٢٨٢ هـ)

٣ - أبو العساكر جيش بن خمارويه (٢٨٢ - ٢٨٣ هـ)

٤ - هارون بن خمارويه (٢٨٣ - ٢٩٢ هـ)

٥ - شيبان بن أحمد بن طولون (٢٩٢ - ٢٩٢)

أحمد بن طولون

(٢٥٤ - ٢٧٠ هـ)

ساءت أحوال مصر فى أواخر عهد الولاة ، وخاصة حين صارت إقطاعًا للقواد الأتراك ، الذين أهملوا أمرها واكتفوا بتحصيل أكبر قدر من أموالها واعتصار خيراتها وانتعشت منذ قيام الحكم الطولونى بها ، الذى استقل بحكمها استقلالاً يكاد يكون تامًا ، ولم يتبق للسيادة العباسية عليها سوى التبعية الروحية المتمثلة فى الولاء لمذهب الخلافة السنى ، وعلى الرغم من أن عمر دولة الطولونيين لم يتعدى الثمانية والثلاثين عامًا ، إلا أن مصر فى عهدها صلحت أحوالها وازدهرت معيشة أهلها وأخذت بقسط وافر من الرقى والتمدن يشهده عليه ما خلفته هذه الدولة من آثار معمارية حضارية لا تزال باقية حتى اليوم .

وتنتسب دولة الطولونيين لمؤسسها أحمد بن طولون ، الذى ينتسب إلى والده طولون ، وهو من الأتراك (الطغرغر) ، وكان مولى لعامل ببخارى نوح بن أسد السامانى ، وأهداه نوح ، فى جملة مماليك ، إلى الخليفة العباسى المأمون ، فرقاه المأمون حتي صار من جملة أمرائه وقد ولد أحمد لأبيه طولون ببغداد أو سامرا

سنة ٢٢٠ هـ من أم جارية تدعى " قاسم " وقد نشأ أحمد نشأة طيبة وحفظ القرآن وأتقنه وتفقه فى الدين على مذهب الإمام أبى حنيفة ، ويقول المقريزى عن نشأة أحمد ما نصه :

« نشأ أحمد نشأة جميلة ووصف بعلو الهمة وحسن الأدب والبعد بنفسه عما كان يترامى إليه أهل طبقته ، وطلب الحديث ، ولقد أحب الغزو فخرج إلى طرسوس مرات ولقى المحدثين وسمع منهم ، وكتب العلم وصحب الزهاد وأهل الورع فتأدب بآدابهم وظهر فضله فاشتهر عند الأولياء وتميز على الأتراك وصار فى عداد من يوثق به ويؤمن على الأموال والأسرار » .

ولقد أعجب الخليفة المستعين بأحمد بن طولون ، فوهبه جارية اسمها " مياس " هى أم ابنه خمارويه ولدته فى منتصف المحرم سنة ٢٥٠ هـ . فلما خلع المستعين من الخلافة وبويع المعتز أخرج المستعين إلى واسط واختار قواد الأتراك أحمد بن طولون أن يكون معه ، فسُلم إليه ومضى به فأحسن عشرته وأطلق له حرية الخروج للتنزه والصيد . وقد كتبت " قبيحة " أم المعتز إلى أحمد بن طولون تأمره بقتل المستعين وقلدته واسط ، فامتنع من ذلك وكتب إلى قواد الأتراك يخبرهم بأنه لا يقتل خليفة فى رقبته بيعة له ، فزادت مكانته عند الأتراك بذلك ، ووجهوا سعيد الحاجب وكتبوا إلى ابن طولون بتسليم المستعين له فتسلمه منه وقتله وواراه ابن طولون وتولى دفنه وعاد إلى سامرا .

ولما مات طولون والد أحمد ، فوض إليه الخليفة العباسى ما كان لأبيه ، ثم تقلبت به الأحوال إلى أن ولى إمرة الثغور وإمرة دمشق ، ثم إمرة مصر .

وكان القائد التركى " باكباك " قد ولى إمارة مصر ، من قبل الخليفة المعتز ، لكن باكباك ، كعادة كبار الأتراك ، آثر البقاء فى سامرا واختيار نائبًا عنه يتولى أمر مصر ، فطلب من يوجهه إليها فذكر له أحمد بن طولون ، فقلده خلافته عليها وضم إليه جيشًا وسار به إلى مصر فدخلها يوم الأربعاء ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤ هـ .

واستطاع ابن طولون أن يوطد سلطته فى مصر ويزيح عن طريقه العقبات التى اعترضته فى حكمها ، وأن ينجح ، بعد ذلك ، فى الاستقلال بها ، ويؤسس بها دولة نسبت إلى اسمه وعرفت فى التاريخ باسم الدولة الطولونية .

وتمثلت أول العقبات فى طريق ابن طولون فى شخصيتى عامل البريد وعامل الخراج . فقد كان صاحب البريد لا يخضع لسلطان الوالى إنما يكون إتصاله المباشر بعاصمة الخلافة ، فهو رقيب على الوالى ومهمته الأولى هى التجسس عليه ومراقبة أعماله وكتابة تقرير عنها لدار الخلافة أولاً بأول . وكان ابن طولون يعلم حقيقة عمل هذا العامل وكان لا يريد أن يخضع لرقابته بل يريد أن يكون له التصرف المطلق فى ولايته دون أن تتحسس دار الخلافة أخباره وتعيق طموحاته .

وكان يلى هذا المنصب عند قدوم ابن طولون مصر ، شقير غلام السيدة قبيحة أم الخليفة المعتز . وقد أدرك شقير هذا خطورة تولى ابن طولون لمصر فأرسل يحذر دولة الخلافة منه ومن خطره . وقد نجح ابن طولون فى كشف دور شقير هذا بحصوله على نصوص المكاتبات التى كان يرسلها عنه إلى عاصمة الخلافة . على أن سلطان شقير هذا انتهى من مصر بعد عزله من منصبه عقب مقتل المعتز وزوال سلطان السيدة والدته . فصار أمر البريد بيد ابن طولون ، فضمن كتمان أسراره وأخباره ونواياه عن دار الخلافة .

وكان عامل الخراج ، هو العقبة الثانية أمام طموحات ابن طولون ، ذلك لأن دولة الخلافة درجت على فصل الرئاسة السياسية العسكرية والدينية عن الشئون المالية ، فصارت تبعث إلى جوار الوالى على الصلاة عاملاً يتولى أمر خراج الولاية ويخضع خضوعًا مباشراً لسلطان الخليفة لا لسلطان الوالى .

وكانت ولاية الخراج يوم قدم أحمد بن طولون إلى مصر بيد أحمد بن محمد بن المدبر ، الذى كان قد ولى أمر خراج مصر منذ عام ٢٤٨ هـ فى عهد الوالى يزيد بن عبد الله بن دينار (٢٤٢ - ٢٥٣ هـ) ، وكان سلطانه واسعًا إلى أبعد الحدود . وكانت قوته فى الحقيقة مستمدة من ابتزازه لأموال الناس وتزويده الخلافة بموارد غير شرعية متزايدة باستمرار ، عن طريق فرض ضرائب هلالية واحتكار النطرون ، وكذلك استناده على نفوذ أخيه إبراهيم بن المدبر ، الذى كانت له المكانة والحظوة فى بلاط الخلافة ببغداد وله تأثيره على الخليفة .

ولقد أورد المقريزى عن وصف ابن المدبر بقوله : «.كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب . وحين قدم ابن طولون مصر قام ابن المدبر بإهدائه هدية قيمتها عشرة آلاف دينار ، فرأى ابن طولون بين يدى ابن المدبر مائة غلام من الأتراك الغور اختبارهم أقوياء الأجساد زائدين فى الطول عليهم أقبية ومناطق ثقال عراض وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة نصل من فضة ، وكانوا يقفون بين يديه فى حافتى مجلسه إذا جلس فإذا ركب ركبوا بين يديه فيصير له بهم هيبة عظيمة فى صدور الناس . فلما بعث ابن المدبر بهديته إلى ابن طولون ردها عليه . فقال ابن المدبر : « إن هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الأطراف » فخافه وكره مقامه بمصر معه . وسار ابن المدبر مع شقير الخادم صاحب البريد ، واتفقا على مكاتبة الخليفة بعزل ابن طولون . وبعد أيام قليلة أرسل ابن طولون إلى ابن المدبر يطلب منه أن يهاديه بغلمانه بدل المال الذى كان قد رده ابن طولون إليه ففعل ، فتحولت بذلك هيبة ابن المدبر إلى ابن طولون وكتم الأمر فى نفسه ولم يظهره . واتفق موت المعتز فى رجب سنة ٢٥٥ هـ وقيام المهتدى بن الواثق بأمر الخلافة ، كذلك قتل باكباك ورد جميع ما كان بيده إلى ياركوج التركى حمو ابن طولون . فكتب ياركوج إلى ابن طولون يقول له : « تسلم من نفسك لنفسك » ويبشره بعزل ابن المدبر عن خراج مصر»

وكانت ولاية ياركوج تؤذن بتحقيق رغبة أحمد بن طولون ليس فى الحصول على سلطان مطلق فى مصر ، بل فى تولى أمور البلاد رسميًا . وفقد أطلقت يد ابن طولون منذ عام ٢٥٧ هـ فى شئون البلاد ، فأسندت إليه ولاية الإسكندرية وخضع له صاحب برقة ودان له حكام كور مصر جميعهم بالطاعة والولاء .

ولما تولى المعتمد الخلافة ، تخوف من نفوذ ابن طولون المتزايد وأراد التخلص منه بطريقة ذكية دون إثارته ، فكتب إليه يطلب منه الرحيل من مصر ليتسلم منصبًا هامًا فى عاصمة الخلافة بغداد . لكن أحمد أدرك نوايا الخليفة الحقيقية وهي إبعاده عن مصر ، لذلك بعث كاتبه محمد الواسطى إلى بغداد محملاً بالهدايا للخليفة الجديد ، واستطاع بفضل مجهودات صهره ياركوج وأصدقائه فى بلاط الخليفة تثبيت أمره فى مصر وموافقة الخليفة على ذلك .

ولم يفقد ابن طولون نفوذه بعد وفاة صهره ياركوج لأن نفوذه لم يعد يعتمد بعد ذلك على باكباك أو ياركوج أو غيرهما من قواد الأتراك ، إنما اعتمد على قوة شخصيته وقوة جيشه وعسكره ووفرة ماله ، وأصبح ابن طولون بذلك أميراً على مصر ولم يعد مجرد نائب لقائد تركى إقطاعى يقيم فى سامرا أو بغداد .

ولقد غاود ابن المدبر الكرة مرة أخرى ليتولى خراج مصر مستعيناً فى ذلك بنفوذ أخيه إبراهيم لدى الخليفة المعتمد ، ونجح ابن المدبر فى مسعاه واستعاد وظيفة الخراج ، وربما ينسب إليه ، ما كان من محاولة الخليفة استدعاء ابن طولون إلى بغداد تمهيداً لعزله عن ولاية مصر . وظل الصراع قائماً بين ابن طولون وابن المدبر إلى أن نجح ابن طولون فى إقناع الخليفة بأنه لو عزل ابن المدبر عن الخراج سيقوم هو بإرسال خراج مصر سراً له دون أخيه الموفق طلحة الذى تفاقم آنذاك نزاعه معه . فكان له ما أراد وقام الخليفة المعتمد بنقل ابن المدبر ليتولى خراج بلاد الشام على أن يجمع ابن طولون بين الإمارة والخراج . وسرعان ما ضم ابن طولون خراج الثغور الشامية له فوق خراج مصر سنة ٢٦٣ هـ الذى عزز انتصاره الساحق على خصمه ابن المدبر الذى كان يشكل عقبة كأداء كبرى أمام مطامعه وطموحاته .

وما كاد الأمر يستقيم لابن طولون فى حكم مصر حتى واجهته فتن داخلية ، بعضها كان يمثل ثورات قام بها العلويون ضد الخلافة العباسية ، وكان على ابن طولون أن يتصدى لها ليثبت مركزه فى البلاد ويدافع عن دولة الخلافة والظهور بمظهر رجلها المخلص القوى . وقد أخمد ابن طولون ثورتين قام بها أنصار العلويين ، قاد إحداهما القائد التركى " بغا الصغير " فى إقليم برقة ، بعد أن فر من بغداد واستقر فى منطقة الإسكندرية وبرقة . ولقد إدعى بغا لنفسه نسباً علوياً حتى يكسب إلى جانبه أنصاراً علويين وأعلن الثورة على دولة الخلافة سنة ٢٥٥ هـ . وسار بغا بقواته إلى الصعيد ، وتصدى له فى الصعيد بهم فى الحسين ، قائد ابن طولون ، فهزمه وقتله وحمل رأسه إلى الفسطاط فى شهر شعبان من ذلك العام .

وقاد الثورة العلوية الثانية ضد دولة الخلافة ونائبها أحمد بن طولون على مصر ، رجل يعرف بابن الصوفى ، وهو إبراهيم بن مخمد يحيى بن عبد الله بن محمد بن عمر إبن على بن أبى طالب ، وظهر فى فى صعيد مصر عند مدينة إسنا ، فى شهر ذى القعدة سنة ٢٥٥ هـ ، واستولى على هذه المدينة وقتل أهلها . وقيل أن ابن طولون أرسل إليه جيشًا بقيادة ابن يزداد ، قائد جيشه ، ونجح ابن الصوفى فى الانتصار عليه فى ربيع الأول سنة ٢٥٦ هـ ، فأرسل إليه ابن طولون جيشًا آخر بقيادة القائدين ابن الحسين وابن عجيف ، ونجح هذا الجيش فى هزيمته عند أخميم وهروبه إلى الواحات .

كذلك قضى ابن طولون على ثورة قام بها رجل فى الصعيد الأقصى يدعى عبد الرحمن العمرى ، ويدعى انتسابه للخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ويبدو أن هذا الرجل لم يرد الخروج عن ابن طولون ، وأنه كان يتخذ من حربه لقبائل البجة الوثنية ، التى كانت تسكن الصحراء الشرقية ، نوعًا من الجهاد فى سبيل الله ومحاولة نشر الإسلام بينهم . وقد نجح العمرى فى ذلك ، بعد أن قدم من القيروان إلى تلك البلاد ، واستقر عند ثغر عيذاب على البحر الأحمر ، واستطاع أن يستميل إليه قبائل تلك المنطقة ويمنع خطر عدوانها على حدود مصر ويمنع سلبهم ونهبهم للناس فدان له البجة وأهل منطقة الصحراء واقليم العلاقى بالطاعة ودفعوا له الجزية وكوّن العمرى لنفسه فى تلك المنطقة ماهو أشبه بولاية مستقلة .

ولم يرتح ابن طولون لذلك النفوذ الذى حققه العمرى فى جنوب البلاد وخشى أن يمتد ويشمل سائر الصعيد . فأرسل من قواد جيشه من قام بمحاربته ، وتكررت الحروب والمعارك بينهما ، إلى أن نجح بعض غلمان ابن طولون فى التمكن من العمرى وقتله وإرسال رأسه إليه .

ولم تكن ثورة العمرى آخر الثورات التى تعرض لها حكم ابن طولون فى مصر ، فقد ذكرت المصادر أنه تعرض لثورة وتمرد قاد ضده ابنه العباس .

القطائع :

حين تمت السيادة الداخلية لابن طولون ، وتغلب على منافسيه جميعًا وأزاح عقباتهم من أمامه ، وأصبح له الإشراف على الخراج والسيطرة على كل بلاد مصر ، إستأذن الخليفة فى إتخاذ الجند والإكثار من الموالى والغلمان ، فسمح له الخليفة بذلك فكثر جنده وعبيده ورجاله .

ويقول المقريزى بصدد ذلك : « وصار أحمد بن طولون من كثرة العبيد والرجال والآلات بحال يضيق به داره ولا يتسع له فركب إلى سفح الجبل فى شعبان (٢٥٥ هـ) وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى واختط موضعها فبنى القصر والميدان . وتقدم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء لعمارة الفسطاط . ثم قطعت القطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها ، فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم وكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم . وبنى القواد مواضع متفرقة ، فعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران ، وسميت أسواقها ، فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين ، وسوق الفاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين ... وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين ، ولكل من الباعة سوق حسن عامر . فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام .

وبنى ابن طولون قصره ووسعه وحسنه وجعل له ميدانًا كبيراً يضرب فيه بالصوالجة فسمى القصر كله الميدان» ، ولقد شرع ابن طولون فى بناء القطائع سنة ٢٦٣ هـ واختار موقع هذه المدينة مكانًا يقع إلى الشرق من مدينة العسكر وإلى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط حيث يوجد الآن ميدان صلاح الدين ، وتعد امتداداً للعاصمتين القديمتين الفسطاط والعسكر صوب الشرق فى المنطقة ما بين قبة

الهواء (القلعة الحالية) إلى جامع ابن طولون طولاً ، ومن قبة الهواء إلى حى زين العابدين الحالى عرضًا . وكانت مساحتها ، وقت التأسيس ، ميلاً في ميل . وسميت القطائع لأن ابن طولون بنى لنفسه فيها القصر والميدان ثم أمر أصحابه وغلمانه أن يختطوا لأنفسهم قطعًا حول قصره وميدانه بنوا فيها بيوتهم ، فاختطوا وبنوا حتى اتصل بناؤهم بعمائر الفسطاط . ولقد سميت كل قطعة ، أى كل حارة ، باسم الطائفة التى بنتها ، وجاء تخطيط هذه المدينة مثل تخطيط المدن العراقية بغداد وسامرا ، وجاءت عمائرها عراقية الأسلوب والطابع . وسرعان ما عمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها الشوارع والحارات وبنيت القصور والمساجد والأسواق والحمامات وسميت أسواقها فعرف كل سوق باسم من كان يشغله من أصحاب الحرف والصناعات والأعمال .

وكان قصر ابن طولون ، أول ما بنى فى القطائع ، وقد جعله يشرف على ميدان كبير أمامه يلعب فيه بالكرة ، فسمى القصر والميدان بالميدان ، وجعل للقصر أبواب كثيرة ونوافذ تفتح على سائر نواحى الأبواب . وكانت هذه الأبواب لا تفتح كلها إلا فى يوم العيد ويوم عرض الجيش أو يوم صدقة ، وما كانت تفتح الأبواب إلا بترتيب فى أوقات معروفة ، وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون على عروض الجنود والخيل .

كذلك أنشأ ابن طولون الجامع المنسوب إليه الآن ، وكان يعرف أيامه بالجامع الجديد ، تمييزاً له عن المسجد العتيق بالفسطاط ، وهو جامع عمرو بن العاص . واختار ابن طولون موقع هذا الجامع بين مدينة الفسطاط وقبة الهواء (مكان قلعة الجبل الآن) على جبل يشكر خارج القاهرة . وقد بدئ فى بنائه سنة ٢٦٣ هـ ، وانتهى منه سنة ٢٦٥ هـ ، وقيل أنه صرف على البناء ما يزيد على المائة وعشرين ألف دينار.

وقال ابن عبد الظاهر : " سمعت غير واحد يقول أنه لما فرغ أحمد بن طولون من بناء هذا الجامع أسر للناس بسماع ما يقوله الناس فيه من العيوب فقال رجل : محرابه

صغير ، وقال آخر : ما فيه عمود ، وقال آخر : ليست له ميضأة . فجمع الناس وقال : أما المحراب فإنى رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد خطه لى فأصبحت فرأيت النمل قد أطافت بالمكان الذى خطه ، وأما العمد فإنى بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز وما كنت لأشوبه بغيره ، وهذه العمد إما أن تكون من مسجد أو كنيسة فنزهته عنها ، وأما الميضأة فإنى نظرت فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها وها أنا أبنيها خلفه ثم أمر ببنائها » . وقيل إنه لما فرغ من بناء الجامع رأى فى منامه كأن ناراً نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله ، فلما أصبح قصى رؤياه فقيل له : « أبشر بقبول الجامع لأن النار كانت فى الزمان الماضى إذا قبل الله قربانًا نزلت نار من السماء أخذته، ودليله قصة قابيل وهابيل .

ولقد أمر ابن طولون وطلب المعمار على الجامع وأمر ببناء المنارة للأذان فبنيت على الصورة التى هى عليها الان ، وكانت من تصميم ابن طولون نفسه . وكان بجوار الجامع الطولونى دار أنشأها أحمد بن طولون عندما بنى الجامع وجعلها فى الجهة القبلية ولها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة بجوار المحراب والمنبر ، وجعل فى هذه الدار جميع ما يحتاج إليه الجامع من الفرش والستور والآلات فكان ينزل بها إذا ذهب لصلاة الجمعة لأنها كانت تجاه القصر والميدان فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه ، وكان يقال لها دار الإمارة . وقد ظلت هذه الدار باقية إلى أن قدم المعز لدين الله الفاطمى مصر فكان يستخرج فيها أموال الخراج .

ولقد قام ابن طولون أيضًا ببناء مارستانًا كبيراً لعلاج مختلف الأمراض خصص له الأطباء والصيادلة والعمال والممرضين ، وجعل صرف الدواء فيه بالمجان لعامة الناس . وقد تكلف بناء هذا المارستان وأعداده ستين ألف دينار .

كذلك بني القناطر والسدود على النيل ، وأصلح مقياس الروضة لتتبع زيادة فيضان النيل ونقصانه لاتخاذ التدابير اللازمة فى الحالتين .

إعلان الاستقلال :

وبعد أن تخلص أحمد بن طولون من الصعاب التى اعترضت طريق ولايته على مصر ، إعترضته صعوبة أكبر وأخطر كادت تبدد أحلامه لولا حسن سياسته ورباطة جأشه . وكان أبو أحمد ، الموفق طلحة ، أخو الخليفة المعتمد على الله العباسى ، هو مصدر هذه الصعوبة والخطورة . وكان الموفق قد إستبد بأمر الخلافة بعد تصديه لثورة الزنج ضد الخلافة العباسية ونجاحه فى معالجتها والتصدى لها بعد أن عجز الخليفة عن ذلك ، وكادت الخلافة أن تضيع بسببها . وكان العداء قد بدأ بين الموفق وابن طولون حين طلب من ابن طولون أن يمده بالمال اللازم للقضاء على ثورة الزنج ، بعد أن انقطعت عن الدولة موارد ولاياتها الشرقية ، بسبب تقاعس أهلها عن دفع الخراج ، فبعث له ابن طولون بمبلغ مليونًا ومائتى ألف دينار ، فاستقل الموفق هذا المبلغ . فبعث إليه بكتاب يظهر فيه الجفاء وعدم الرضا ، فرد عليه ابن طولون بخطاب شديد اللهجة أعلن فيه عدم التزامه بتقديم المال اللازم لدولة الخلافة معلنًا استقلاله بمصر ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٦ هـ .

وأمر الموفق قائده موسى بن بغا بتجريد حملة ضد ابن طولون وعزله عن مصر وتعيين أماجور الخادم مكانه . وحاول الموفق عزل إبن طولون عن ولاية مصر لكنه فشل فى ذلك ، أما ابن طولون فقد أظهر من جانبه ، مدى قوته فى مصر فأرسل قواته لتستولى على الشام بعد وفاة واليها واضطراب الأمور فيها ، فنجح فى ذلك ودعى له من فوق منابرها .

وبينما هو فى دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسى المعتمد ينبئه فيه برغبته فى اللجوء إليه فى مصر والاحتماء به ضد استبداد أخيه الموفق . فرحب ابن طولون به وأرسل له كتابًا يرجوه فيه بتنفيذ هذه الرغبة ، وقد رأى فى ذلك تقوية لمركزه فى مصر وفى وجه الموفق ، لكن الأمر لم يتم ، بسبب تصدى الموفق لمخطط لجوء الخليفة إلى مصر ، وتصدى عامل الموصل له واعادته إلى بغداد .

وأعلن ابن طولون استقلاله بمصر عن دولة الخلافة سنة ٢٦٦ هـ ، وإلغائه التبعية السياسية لها ، مع إبقاء التبعية الروحية فقط ، التى تتمثل فى الدعاء للخليفة المعتمد من فوق منابر بلاده يوم الجمعة مع الدعاء له . كما دعا إلى خلع الموفق من ولاية العهد ولعنه من فوق المنابر لمخالفته أخيه الخليفة المعتمد وتضييقه عليه ، وذلك فى إجتماع دينى عقده فى دمشق .

وقد رد الموفق طلحة على ابن طولون بالأمر بلعنه من فوق منابر ولايات دولة الخلافة بعد أن أخذ على ذلك الموافقة كرهًا من أخيه الخليفة المعتمد ، وإعلان خلعه عما في يده من البلاد وتولية والٍ غيره . ولعن أحمد بن طولون من فوق منابر ولايات دولة الخلافة بما صيغته : « اللهم إلعنه لعنًا يفل حده ويتعس جده واجعله مثلاً للغابرين إنك لا تصلح عمل المفسدين » .

وكان للعداء بين ابن طولون والموفق طلحة ، ولعنه من فوق منابر ولايات الخلافة وبخاصة منبر المسجد الحرام ، واعتباره خارجًا عن دولة الخلافة ، أثره فى إضعاف نفوذ ابن طولون فى البلاد الخاضعة له وفى نظر العالم الإسلامى . فحلت الهزيمة بجيشه فى مكة ، وثار عليه أهل طرسوس ، وتوالت عليه الهزائم ، كما ثار ضده والى المصيصة وهزم قواته فى الشام . ومضى ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ إلى طرسوس فنازلها وكان البرد شديداً ثم رحل عنها إلى أذنة وسار إلى المصيصة فنزلت به علة الموت ، فأعد السير يريد مصر حتى بلغ الفرما فركب النيل إلى الفسطاط فدخلها فى ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ هـ ، وتزايدت به العلة حتى مات يوم الإثنين ١٨ ذى القعدة من نفس العام ، وهو فى الخمسين من العمر ، بعد حكم لمصر استمر سبع عشرة عامًا .

وكان ابن طولون قد مرض بمعدته وازداد عليه الإسهال ، وعلل الأطباء سببه بكثرة شربه للبن الجاموس وحبه له . ولما اشتدت عليه العلة نصحه طبيبه بالامتناع مدة يومين عن الطعام تمامًا ولكنه لم يتحمل الجوع فأمر بالطعام فاستدعى له خروفًا وفراريج فأكل منها فعاوده الإسهال وكانت فيه نهايته .

ولقد أنجب ابن طولون ٣٣ مولوداً من بينهم ١٧ من الذكور . وخلف فى خزائنه من الذهب النقد عشرة مليون دينار ، ومن المماليك سبعة آلاف مملوك ، ومن الغلمان ٢٤ ألف غلام ، ومن الخيل الميدانية سبعة آلاف رأس ، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس ، ومن الدواب الخاصة ٣٠٠ ومن مراكبه الجياد مائة . وكان ما يدخل إلى خزائنه فى كل سنة بعد مصاريفه مليون دينار .

شخصية ابن طولون :

ولقد كان أحمد ابن طولون من الشخصيات العظيمة التى حكمت مصر ، ومن المحاربين الأشداء والسياسيين المهرة والإداريين المحنكين ، اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى برقة ومن النوبة إلى آسيا الصغرى ، وخشى بأسه امبراطور الروم فأرسل إليه الهدايا ليكتسب صداقته . كان كريمًا وعادلاً ومحبًا للعلم والعلماء ، كثير التصدق على الفقراء ، دؤوبًا على فعل الخير ، حافظًا للقرآن ومقربًا حفظته إليه .

وقد جعل ابن طولون للفقراء والمساكين مطابخ فى كل يوم فكان يذبح فيها البقر والغنم ويفرق للناس فى القدور والفخار والقصع ولكل قصعة أو قدر أربعة أرغفة فى اثنين منها فالوذج . وكان فى الغالب يعمل سماط عظيم وينادى فى الفسطاط : « من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر » ويجلس هو بأعلى القصر ينظر ذلك ويأمر بفتح جميع أبواب الميدان فينظرهم وهم يأكلون ويحملون إلى بيوتهم فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته » .

وكان ينفق على مطبخه فى اليوم ألف دينار ، وكان يبعث بالصدقات إلى دمشق والعراق والجزيرة والثغور وبغداد وسامرا والكوفة والبصرة والحرمين وغيرها ، فحسب ذلك كله فكان مليونين ومائتى ألف دينار ، وقد قال له وكيله فى الصدقات : « ربما امتدت إلىَّ الكف المطوقة والمعصم فيه السوار والكم الناعم أفأمنع هذه الوظيفة عنهم ؟ فقال له : ويحك ! هؤلاء المستورين الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، إحذر أن ترديداً امتدت إليك » .

وكان أحمد ابن طولون من أهل القرآن إذا جرت منه إساءة استغفر وتضرع . استغل موارد البلاد لصالح شعب مصر ، وعمل على رفع المعاناة عنهم حين أسقط عنهم المكوس والضرائب غير الشرعية التى ابتدعها ابن المدبر ، وعرفت بالمعاون والمرافق . وكان مقدار هذه الضرائب التى أسقطها ١٠٠ ألف دينار كانت تحصل منهم فى كل عام دون وجه حق .

وقال المؤرخون أن الله عوضه عن ذلك بكنز من الذهب ، يبدو أنه من آثار ملوك الفراعنة ، قدرت قيمته بأكثر من مليون دينار ، بنى منها المارستان ، وسك منها سنة ٢٦٦ هـ ديناره الذهبى الخالص الشهير بالدينار الأحمدى ، والذى كان عياره ٢٤ قيراط ذهبًا خالصًا وكان الطلب عليه متزايداً فى الأسواق العالمية بسبب شدة نقاوته .

وزاد خراج مصر فى عهد ابن طولون لزيادة محاصيل الأرض وإقبال الناس على الزراعة والإنتاج فبلغ ٤ ملايين و ٣٠٠ ألف دينار فى العام ، بعد أن كان قد انتقص قبله إلى المليون دينار فقط . وقد ساد الرخاء عهده ورخصت الأسعار حتى بيع العشرة أرادب من القمح بدينار واحد .

ويحكى لنا البلوى ، الذى أرخ لابن طولون ، جهود هذا الحاكم فى إصلاح حال شعبه وتوفير الرخاء فى بلده بقوله : « وكان شغله واهتمامه بإسعاد بلده وسائر ما بعد بلدانه ، وكان يسعى فيما يرخص الله جل اسمه به أسعارهم وجميع ما يباع فى بلده وسائر بلدانه . فكان الرخص به عامًا فى كل بلد من سائر الأطعمة ، وكان السبيل به آمنًا والأرزاق ، ببركة داره والنعمة من الله جل وعلا ، على سائر الناس مترادفة متكاتفة » .

(٢) خمارويه بن احمد ابن طولون (٢٧٠ - ٢٨٢ هـ) :

بايع الجند بعد وفاة ابن طولون ابنه الأكبر وولى عهده أبا الجيش خمارويه فى ١١ ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ ، الذى ورث عن أبيه دولة قوية وغنية بعد أن وطد

أركانها وحارب أعداءها وانتصر عليهم . إلا أن الموفق طلحة ، أخا الخليفة المعتمد والحاكم الفعلى لدولة الخلافة ، لم يعترف بولايته ، فدخل مع جيش الخلافة في معارك قاد جيشه فيها بنفسه فى بلاد الشام وانتهت هذه الحرب بانتصاره بعد ثلاث سنوات على قوات الخليفة ، الأمر الذى اضطر الخليفة لطلب الصلح . وقد وقع الصلح بين الطرفين ، وأرسل الموفق لخمارويه تفويضًا بحكم مصر والشام والثغور الشامية ، له ولأبنائه من بعده مدة ثلاثين عامًا . وهنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق من على المنابر والدعاء له مع الخليفة والأمير ، وظلت علاقته طيبة مع الموفق طلحة حتى وفاته سنة ٢٧٨ هـ .

ولما توفى الموفق طلحة بايع كبار قواد دولة الخلافة بولاية العهد ابنه أبا العباس أحمد بن الموفق ، الذى تحولت إليه سلطة أبيه ولقب بالمعتضد ، وسار على سياسته فى إضعاف نفوذ عمه الخليفة المعتمد والاستئثار بالسلطة الفعلية فى دولة الخلافة دونه . ولما توفى الخليفة المعتمد فى رجب سنة ٢٧٩ هـ ، بويع المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق بالخلافة . واستطاع خمارويه أن يتقرب للخليفة الجديد بالهدايا ، فأقره على ولاية البلاد التى كانت فى حوزته ، وورد كتاب المعتضد بذلك إلى خمارويه فى السادس من ربيع الأول سنة ٢٨٠ هـ ، بولاية خمارويه على مصر هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقة ، وجعل له الصلات والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل لدولة الخلافة فى كل عام مائتى ألف دينار عما مضى وثلثمائة ألف عما هو آت فى المستقبل . ثم قدم رسول المعتضد بالخلع إلى خمارويه وهى اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح مع خادم فى شهر رمضان من نفس العام .

وكان من أثر سياسة حسن التفاهم بين خمارويه والخليفة المعتضد أن عرض خمارويه على الخليفة زواج ابنته أسماء ، الملقبة بقطر الندى من المكتفى بالله ابن الخليفة ، لكن الخليفة اختارها لنفسه زوجة له بعد أن سمع عن جمالها الزائد وأدبها الجم وحسن خلقها وتربيتها ، فتزوج منها سنة ٢٨١ هـ ، وأصدقها مليون درهم ، ودخل بها ببغداد فى آخر هذا العام بعد إعداد أعظم عرس جرى لفتاة فى التاريخ .

ويقال أن المعتضد أراد بزواجها أن يفقر أباها خمارويه فى جهازها ، وهذا ما وقع بالفعل ، فإنه جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف . « وكان من جملة الجهاز أريكة من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا تقدر بثمن » ، كذلك «كان من جملة جهازها ألف هاون من الذهب » وكان خمارويه قد ولى أبا عبد الله بن الجصاص ، وكان أكبر تجار الجوهر والذهب فى عصره الإشراف على جهاز عرس ابنته ، وطلب منه ألا يبخل على الجهاز بشئ حتى يظهر بالمظهر اللائق أمام خليفة بغداد . وقد قيل أن خمارويه ، حين قام بمحاسبة ابن الجصاص ، بعد الفراغ من الجهاز ، وجد أنه تبقى معه مبلغ أربعمائة ألف دينار كسراً متبقيًا من الحساب فوهبها خمارويه له مكافأة على جهوده فى تجهيز إبنته . ولما فرغ خمارويه من جهاز ابنته أمر فبنى لها على رأس كل منزلة تنزل فيها قصراً فيما بين الفسطاط وبغداد مفروشًا ومزوداً بكل ما تحتاج إليه . وكان عرس قطر الندى من أشهر أعراس التاريخ ، ولا يضاهيه فى فخامته وكثرة نفقته سوى عرس الخليفة العباسى المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل .

وقدمت قطر الندى ، مع موكبها المهيب بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢ هـ ، فى نفس العام الذى قتل فيه أبوها فى دمشق . ولقد قال المؤرخون أن احتفالات زواج قطر الندى وتكلفة جهازها قد أفقرت مصر بالفعل وأدت إلى إفلاس خزائنها ونفاذ ثروة خمارويه ، إذ أنه أنفق على هذا العرس التاريخى جميع ما كان فى خزائن البلاد من أموال مدخرة .

وقد كان خمارويه ، مسرفًا بطبعه ، محبًا للترف والظهور ، يبذل الأموال على الأبهة والمبانى الفخمة والمتنزهات والمطابخ . وكان مصروف مطبخه فى كل شهر ثلاثة وعشرون ألف دينار ، سوى مصروف حريمه وجواريه وما يتعلق بهن ، وكان خمارويه قد زاد في عمارة قصر أبيه وقام بتوسيعه والزيادة فيه ، وقد قال المقريزى فى ذلك ما نصه :

« ... أقبل خمارويه على قصر أبيه وزاد فيه وأخذ الميدان الذى كان لأبيه فجعله كله بستانًا وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ... ونقل إليه خيار النخل وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد وزرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاسًا مذهبًا حسن الصنعة وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر إلى فساقى معمولة ويفيض منها الماء إلى مجارى تسقى سائر البستان. وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقراض حتى لاتزيد ورقة على ورقة. وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر .. وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن. وبنى فيه برجًا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص وزوقه بأصناف الأصباغ وبلط أرضه وجعل فى تضاعيفه أنهاراً لطافًا جداولها يجرى فيها الماء مدبراً من السواقى التى تدور على الآبار العذبة ويسقى منها الأشجار وغيرها وسرح فى هذا البرج من أصناف القمارى وكل طائر مستحسن حسن الصوت....

وعمل فى داره مجلسًا برواقه سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجلل باللازورد المعمول فى أحسن نقش وأظرف تفصيل وجعل فيه على مقدار ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتى تغنينه بأحسن تصوير وأبهج تزويق وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص والمرصعة بأصناف الجواهر وهى مسمرة فى الحيطان ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة. فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا. وجعل بين يدى هذا البيت فسقيه مقدرة وملأها زئبقًا. وذلك أنه شكا إلى طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتغميز (التدليك) فأنف من ذلك وقال لا أقدر على وضع يد أحد علىَّ فقال له تأمر بعمل بركة من زئبق، فعمل بركة يقال أنها خمسون ذراعًا طولاً فى خمسين ذراعًا عرضًا وملأها بالزئبق فأنفق فى ذلك أموالاً عظيمة وجعل فى أركان

البركة سككًا من الفضة الخالصة وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضة وعمل فرشًا من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذٍ شده ويلقي على تلك البركة الزئبق وتشد زنانير الحرير التى فى حلق الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه .

وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية فكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق ، ولقد أقام الناس بعد خراب القصر مدة يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة وما عرف ملك قط تقدم خمارويه فى عمل مثل هذه البركة » .

وبنى خمارويه فى القصر قبة تضاهى قبة الهواء وسماها (الدكة) «فكانت أحسن شئ بنى وجعل لها الستر التى تقى الحر والبرد فتسبل إذا شاء وترفع إذا أحب وفرش أرضها بالفرش السرية وعمل لكل فصل فرشًا يليق به . وكان كثيراً ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره من البستان وغيره ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة . وبنى ميدانًا آخر أكبر من ميدان أبيه .... »

«وبنى أيضًا فى داره داراً للسباع عمل فيها بيوتًا كل بيت يسع سبعًا وزوجته .. وكانت هذه البيوت مملوءة من السباع ولهم أوقات يفتح فيها سائر بيوت السباع فتخرج إلى القاعة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضًا فتقيم يومًا كاملاً إلى العشى فيصيح بها السواس فيدخل كل سبع إلى بيته لا يتخطاه إلى غيره . وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقًا فى الدار لا يؤذى أحداً ويقام له بوظيفة من الغذاء فى كل يوم فإذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه فيرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدى ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به وكانت له لبؤة لم تستأنس كما أنس فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه ، فإذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه فإن كان قد نام على سرير ربض بين يدى السرير وجعل

يراعيه ما دام نائمًا وإن كان إنما نام على الأرض بقى قريبًا منه وتفطن لمن يدخل ويقصد خمارويه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة وكان على ذلك دهره قد ألف ذلك ودرب عليه وكان فى عنقه طوق من ذهب فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائمًا لمراعاة زريق له وحراسته إياه حتى إذا شاء الله إنفاذ قضائه فى خمارويه كان بدمشق وزريق غائب عنه بمصر ليعلم أنه لا يغنى حذر من قدر » .

وبنى أيضًا دار الحرم ونقل إليها أمهات أولاد أبيه مع أولادهن وجعل معهن المعزولات من أمهات أولاده وأفرد لكل واحدة حجرة واسعة ......

واتسعت أيضًا اصطبلات خمارويه فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلاً مفرداً سوى الاصطبلات التى بالجيزة فإنه كان له فى عدة ضياع من الجيزة اصطبلات مثل نهيا ووسيم وسفط وطهرمس وغيرها . ولكل اصطبل وكلاء لهم الرزق السنى والوظائف الكثيرة والأموال المتسعة .

وبلغ رزق الجيش فى أيام خمارويه تسعمائة ألف دينار فى كل سنة .. وكان خمارويه يخرج إلى مواضع لم يكن أبوه يمشى إليها كالأهرام ومدينة العقاب ونحو ذلك لأجل الصيد فإنه كان مشغوفًا به لا يكاد يسمع بسبع إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم .. فإذا قدم خمارويه من الصيد سار القفص وفيه السبع بين يديه .

وكانت حلبة السباق تقوم فى أيامهم مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الغلمان والعساكر على كسرتهم بالسلاح التام والعدد الكاملة فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون فى الأعياد وتطلق الخيل من غايتها فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضًا حتى يتم السبق .

وقال القضاعى أن ابن طولون ابتنى المنظر فى ولايته لعرض الخيل » .

نهاية خمارويه :

يقول المقريزى عن هذه النهاية : « ولما تكامل عز خمارويه وانتهى أمره بدأ يسترجع الدهر منه ما أعطاه ، فأول ما طرقه موت حظيته بوران التى بنى من أجلها بيت المذهب وصورٌ فيها صورتها وصورته ، وكان يرى أن الدنيا لا تطيب له إلا بسلامتها وبنظره إليها وتمتعه بها فكدر موتها عيشه وانكسر انكساراً بان عليه . ثم أخذ فى تجهيز ابنته فجهزها جهازاً ضاهى به نعم الخلافة فلم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس إلا حمله معها .. ولما فرغ خمارويه من جهاز إبنته أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون فى جماعة مع ابن الجصاص فكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد فإذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها فى حال الإقامة . فكانت فى مسيرها من مصر إلى بغداد على بُعد الشقة كأنها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة اثنين وثمانين ومائتين فزفت على الخليفة المعتضد وبعد ذلك قتل خمارويه بدمشق على فراشه ذبحه جواريه وخدمه وحمل فى صندوق إلى مصر . وكان لدخول تابوته يوم عظيم واستقبله جواريه وجوارى غلمانه ونساء القطائع بالصياح وما يصنع فى المآتم ، وخرج الغلمان وقد حلوا أقبيتهم وفيهم من سوَّد ثيابه وشققها وكانت فى البلد ضجة عظيمة وصرخة تتعتع القلوب حتى دُفن وكانت مدته اثنتى عشرة سنة وثمانية عشر يومًا .

وبوفاة خمارويه ضعفت الدولة الطولونية ، واضطربت الأحوال فى البلاد ودب النزاع على السلطة خلال العشر سنوات التى أعقبت وفاته والتى شهدت حكم ثلاثة أمراء ضعاف من أمراء البيت الطولونى كانت تنقصهم الخبرة والدراية بأمور السياسة والحكم .

(٣) أبو العساكر جيش بن خمارويه :

ولى مصر والشام بعد قتل أبيه بدمشق يوم ١٧ ذى القعدة ٢٨٢ هـ ، فأقام بدمشق أيامًا ثم عاد إلى ديار مصر ودام بها إلى أن وقعت منه أمور أنكرت عليه فاستوحش الناس منه . وكان جماعة من كبار القواد قد تقاعدوا عن مبايعته لقلة ماله وعجزه عن الإنعام عليهم لأن والده كان قد أنفق كل ما فى خزائن الدولة فى عرس أخته قطر الندى ومات بعد ذلك بمدة يسيرة . وقد قال بعضهم فى الحال الذى وصل إليه خمارويه فى أواخر أيامه : « مات حقًا حين حاجته إلى الموت ، لأنه لو عاش أكثر من هذا حتى يلتمس ما كانت جرت عادته به لإستصعب ذلك عليه ولو نزلت به ملمة لافتضح » ، ولما تقاعد كبار القواد عن بيعة جيش تلطف بعض القواد الأُخر فى أمره حتى تمت البيعة ، وبايعوه وهو صبى لم يصقله الزمان أو تمتحنه التجارب والصعاب .

فلما تمت له البيعة أقبل على الشرب واللهو مع أشخاص من أوباش العامة مثل : غلام رومى لا وزن له يدعى بندقوش ، واثنان من العيارين أحدهما يدعى بخضر والثانى يعرف بابن البواش ، وغيرهم من الغلمان جعلهم بطانة له . وأول ما أشاروا به عليه حين تولى الحكم هو تحريضهم له بقتل عمه أبى العشائر نصر بن أحمد بن طولون وإيهامه بأنه يتطلع إلى الحكم ويسعى للخلاص منه . فقام جيش بالقبض عليه ودس إليه من قتله فى محبسه ، وادعى أنه مات ميتة طبيعية لكن الناس تحققوا من مسئولية قتله له فنفرت القلوب عنه لقتله عمه بغيًا وعدوانًا .

ثم انشغل جيش مع غلمانه باللهو واللعب عن النظر فى أحوال رعيته ، فنقم عليه كبار القواد آنذاك فعله هذا ، ومن بينهم خاقان المفلحى ومحمد بن إسحاق بن كنداج ، ووصيف بن سوارتكين وابن قراطغان وغيرهم . ولقد بلغ هؤلاء أن جيشًا يدبر أمر خلع هؤلاء من مراكزهم ومناصبهم وتولية غلمانه مكانهم ، فاعتزلوه وخرجوا إلى الكوفة مغاضبين . واتصلت أخبارهم بالخليفة المعتضد ، صهر جيش وزوج أخته قطر الندى ، ببغداد فوجّه إليهم الزاد والميرة والدواب وقبلهم أحسن قبول وأجزل جوائزهم وخلع عليهم حين وصلوا بغداد . واستمر حال جيش مع غلمانه فى مصر ، وبينما هو كذلك ورد عليه الخبر بخروج أمير دمشق طغج بن جف عن طاعته ، وخروج أحمد بن طغان أمير الثغور أيضًا وإسقاط اسمه من الدعوة والخطبة على

منابر أعمالهم ، وجمعوا الفقهاء والقضاة وتبرأوا من بيعتهم له وذلك فى العاشر من جمادى الآخرة سنة ٢٨٣ هـ . فلم يهتم جيش بذلك ولا أثر فيه . فلما رأى ذلك من بقى من غلمان أبيه بمصر مشى بعضهم إلى بعض وتشاوروا فى أمره فاجتمعوا على خلعه ، فقبضوا عليه وخلعوه ، وقتل فى السجن بعد خلعه بأيام يسيرة ، فكانت ولايته ستة أشهر واثنى عشر يومًا .

وفى هذا العام الذى توفى فيه جيش تصادف وفاة شاعرين شهيرين جليلين وهما : أبو الحسن على بن العباس بن جريج ، المعروف بابن الرومى ، وهو أحد الشعراء المكثرين فى الغزل والمدح والهجاء ، وكذلك الشاعر أبو عبادة الطائى البحترى ، أحد فحول الشعراء وحامل لواء الشعر فى عصره ، مدح الخلفاء والوزراء والملوك ووصل إلى مصر فى عهد خمارويه وقام بمدحه .

(٤) أبو موسى هارون بن خمارويه :

تولى أمر مصر أبو موسى هارون بن خمارويه بعد قتل أخيه جيش بن خمارويه وعمره ١٤ سنة يوم ١٠ جمادى الآخرة ٢٨٣ هـ . وقد بايعه الجند طواعية ولم يمتنع عليه أحد منهم . وبعد أيام من توليه الحكم خرج أبو جعفر بن أبى ربيعة بن أحمد بن طولون إلى الإسكندرية فسكنها هو وولده وحريمه وأقام بها ، إلا أن طائفة من الجند كاتبته ودعوه للثورة ضد هارون ووعدوه بمؤازرته والوقوف معه ، فجمع جمعًا كبيراً من أهل البحيرة ومن البربر وغيرهم وسار حتى نزل ظاهر الفسطاط عند المقطم فخذله القوم وخرج إليه القواد فقاتلوه وأسروه فى ١١ شعبان ٢٨٤ هـ وضرب مائة سوط إلى أن مات .

وتوفى الخليفة المعتضد فى ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ وبويع ابنه محمد المكتفى بالله خليفة . وفى عهده ظهر القرامطة بالشام واستولوا عليها ، وكانت من ممتلكات مصر . ولم يستطع جيش مصر من إخراجهم منها وقد ألحقوا به الهزيمة تلو الأخرى . وزادت الاضطرابات فى مصر ، الأمر الذى دفع الخليفة العباسى المكتفى التفكير فى استعادة مصر والتصدى لخطر القرامطة على الشام ومصر . فأرسل الخليفة العباسى

قائده الشهير : « محمد بن سليمان الكاتب » لاسترداد مصر وإعادتها ولاية تابعة لحظيرة الخلافة العباسية كما كانت قبل تولى الطولونيين أمرها . فسار محمد الكاتب على رأس أسطول بحرى فنزل حمص وبعث بالمراكب من الثغر إلى سواحل مصر وأقبل إلى فلسطين . فخرج هارون يوم التروية سنة ٢٩١ هـ وسيَّر مراكبه الحربية لملاقاة أسطول الخلافة ، فالتقوا عند جزيرة تنيس فى بحيرة المنزلة وانهزموا . واستولى أصحاب محمد بن سليمان على تنيس ودمياط ،فسار هارون إلى العباسة بالقرب من بلبيس ومعه أهله وأعمامه وهم فى ضيق وجهد شديد ، فتفرق عنه كثير من أصحابه وبقى فى نفر يسير وهو متشاغل باللهو . والتجأ هارون إلى عميه شيبان وعدى ابنى أحمد بن طولون ، لكن العميْن أجمعا على قتله لسوء سلوكه ، وخلا عليه وهو ثمل فقتلاه ليلة الأحد ١٩ صفر ٢٩٢ هـ ، وسنه يومئذ إثنان وعشرون سنة ، فكانت ولايته ثمان سنين وثمانية أشهر وأيامًا .

وكان القائد العباسى محمد بن سليمان قد توجه لقتال القرامطة بالشام قبل توجهه إلى مصر ، ونجح فى هزيمة القرامطة فى معركة فاصلة عند حماة فى المحرم ٢٩١ هـ ، فهرب القرمطى قاصداً الكوفة ، ولكنه قبض عليه عند قرية تعرف بالدالية ، وهى مدينة صغيرة على شاطئ الفرات الغربى بين عانه والرحبة . وأُحضر القرمطى بين يدى الخليفة المكتفى ، وشهر به على جمل فى كل بلد يمرون عليها به ما بين الرقة وبغداد . ودخل بالقرمطى ورجاله بغداد وقد زينت بأفخم زينة لهذا الحدث . فلما كان يوم الإثنين ٢٣ ربيع الأول جلس الخليفة مجلسًا عامًا ، وأحضر القرمطى وأصحابه فقطعت أيديهم وأرجلهم ثم قدم القرمطى فضرب بالسوط حتى استرخى ، ثم قطعت يداه ورجلاه ، ثم ضربوا عنقه . ثم حضر القائد محمد بن سليمان وخلع عليه الخليفة المكتفى ثم خلع على القواد الذين كانوا معه . ثم أمر الخليفة محمد بن سليمان بالتوجه إلى مصر لقتال هارون بن خمارويه فسار بمن معه لتنفيذ ذلك فى شهر رجب سنة ٢٩٢ هـ .

(٥) شيبان بن أحمد بن طولون :

وشهرته أبو المواقيت ، وُلى إمرة مصر بعد قتله لابن أخيه هارون بن خمارويه من ١٩ صفر ٢٩٢ هـ ، وبويع بالولاية فى اليوم التالى ، لكن الجند لم يعترفوا بولايته وثاروا عليه ، وراسلوا محمد بن سليمان الكاتب لدخول مصر . فعبأ ابن سليمان قواته وخرج بها لمقاتلة قوات شيبان والتقى الجمعان وكانت بينهما مناوشة ساعة ، ثم كتب محمد بن سليمان إلى شيبان والحرب قائمة يؤمنه على نفسه وجميع أهله وماله وولده وإخوته وبنى عمه جميعًا . ونظر شيبان عند وصول الكتاب إليه قلة من معه من الرجال وكثرة جيوش محمد بن سليمان مع ما ظن من وفاء محمد بن سليمان له ، فاستأمن إلى محمد بن سليمان وجمع إخوته وبنى عمه فى الليل وتوجهوا إلى إبن سليمان وصاروا فى قبضته . وكانت ولايته اثنى عشر يومًا ، ولما علم الفرسان بما فعل شيبان كفوا عن القتال وبقيت الرجالة فى حالة حرب لأنها لم تعلم بما أحدثه شيبان . والتقى الرجالة مع عسكر ابن سليمان وانهزموا ، وانكبت خيل محمد بن سليمان على الرجالة فأزالتهم عن مواقعهم ثم انحرفت الفرسان إلى قطائع السودان الطولونية وصاروا يأخذون من قدروا عليه منهم فيصيرون بهم إلى ابن سليمان وهو راكب على فرسه فى مصافه فيأمر بذبحهم فيذبحون بين يديه كما تذبح الشاة . ثم دخل محمد بن سليمان بعساكره إلى مدينة مصر من غير أن يمنعه عنها مانع ، وكان ذلك يوم الخميس آخر صفر ، ويروى المقريزى دخول ابن سليمان القطائع وتخريبها بقوله : « ودخل محمد بن سليمان يوم الخميس أول ربيع الأول فألقى النار فى القطائع ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهجموا على الدور واستباحوا الحريم وهتكوا الرعية وافتضوا الأبكار وساقوا النساء وفعلوا كل قبيح من إخراج الناس من دورهم وغير ذلك وأخرج ولد أحمد بن طولون وهو عشرون إنسانًا وأخرج قوادهم فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر . وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد إجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام . ثم سيق أصحاب شيبان إلى محمد بن سليمان وهو راكب فذبحوا بين يديه كما تذبح الشياه وقتل من السودان سكان القطائع خلقًا كثيراً » .

وباستيلاء محمد بن سليمان على القطائع وحرق جميع ما بها ، ما عدا جامع ابن طولون ، عادت مصر إلى حظيرة الدولة العباسية ، بعد حكم مستقل عن دولة الخلافة دام لثمانية وثلاثين عامًا ، وكانت فى مجملها سنوات إزدهار وخير بالنسبة للمصريين وإزدهار لحضارتها ، ومصداق لذلك ما ذكره أبو المحاسن بن تغرى بردى عند حديثه عن نهاية هذه الدولة بنعيه لها وقوله متأسيًا : « وزالت الدولة الطولونية ، وكانت من غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام وخُرب الميدان والقصور التى كانت به والتى مدحتها الشعراء » . وحدَّث محمد بن أبى يعقوب الكاتب قائلاً : « لمأ كانت ليلة عيد الفطر سنة اثنتين وتسعين ومائتين تذكرت ما كان فيه آل طولون فى مثل هذه الليلة من الزى الحسن بالسلاح وملونات البنود والأعلام وشهرة الثياب وكثرة الكراع وأصوات الأبواق والطبول فاعترانى لذلك فكرة ونمت فى ليلتى فسمعت هاتفًا يقول : ذهب الملك والتملك والزينة لمأ مضى بنو طولون » . وقال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتابه : « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » ، « رأيت كتابًا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون ، فإذا كانت أسماء الشعراء فى ثنتى عشرة كراسة فكم يكون شعرهم مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد » . وقال أبو الخطاب بن دحية فى كتاب النبراس : « وخربت قطائع أحمد بن طولون ، وهلك جميع من كان بها من الساكنين وكانت تزيد على مائة ألف دار نزهة للناظرين محدقة بالجنان والبساتين والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » .

عودة مصر لتبعية الخلافة العباسية (٢٩٢ - ٣٢٣ هـ) :

استمرت الاضطرابات فى مصر بعد عودتها لتبعية الخلافة العباسية سنة ٢٩٢ هـ مدة إحدى وثلاثين عامًا ، حيث تسلط الجنود الأتراك على البلاد ، وساءت أحوال مصر نفسها وضعفت وتدهور اقتصادها بسبب المنافسة داخلها بين الولاة وعمال الخراج ، فضلاً عن ضعف الخلفاء العباسيين أنفسهم فى عصر حكمهم الثانى واضطراب الأحوال فى دولة الخلافة ذاتها . كذلك بسبب الغزو المستمر الذى تعرضت له مصر من قبل الفاطميين الإسماعيلية الذين أسسوا دولتهم فى المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، ومحاولاتهم المستمرة للاستيلاء على مصر لتكون مركزاً لدعوتهم ومقراً لخلافتهم .

ولقد تعاقب على ولاية مصر من قبل خلفاء العباسيين فى هذه المدة عدد من الولاة وهم :

محمد بن سليمان الكاتب ، الذى ملك الديار المصرية بعد قتل شيبان بن أحمد بن طولون ، يوم الخميس مستهل شهر ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ ، ودعا على منابر مصر للخليفة العباسى المكتفى بالله وحده ، وولّى على الخراج أبا على الحسين بن أحمد الماذرائى عوضًا عن أحمد بن على الماذرائى . ولم تطل مدة محمد بن سليمان بمصر حتى جاءه كتاب الخليفة المكتفى بإحلال مكانه عيسى بن محمد النوشرى فى ولاية مصر . ودخل عيسى مصر فى ١٤ جمادى الأولى وتسلم أعمال البلاد من محمد بن سليمان الذى اقتصر مقامه فى مصر على أربعة أشهر . وقد خرج محمد بن سليمان من مصر وأخرج معه جميع من تبقى من بنى طولون وأشياعهم ، فلماّ بلغوا دمشق انفصل عنهم محمد بن على الخلنجى فى جمع كثير ممن كره مفارقة مصر من قواد الطولونيين ، فعقدوا له وبايعوه بإمارة مصر فى شهر شعبان . ورجع الخلنجى وأصحابه إلى مصر فبعث إليه النوشرى جيشًا فى أول رمضان ووقعت بينهما معركة انتصر فيها الخلنجى ودخل الفسطاط فى ١٦ ذى القعدة فوضع العطاء وفرض الفروض . وأرسل الخليفة المكتفى قائده أبو الأعز لمحاربة الخلنجى إلا أن الخلنجى هزم جيش أبى الأعز وأسر من أصحابه عدداً كبيراً . فأرسل المكتفى بعد ذلك من بغداد جيشًا بريًا بقيادة فاتك المعتضدى وأسطولاً بقيادة دميانة ، ونجحت هذه القوات فى هزيمة ابن الخلنجى ، والقبض عليه وعودة عيسى النوشرى إلى ولاية مصر . وقد كانت مدة ابن الخلنجى بمصر سبعة أشهر وعشرين يومًا . ودخل فاتك فى عسكره إلى الفسطاط فى ١٠ رجب ، وقبض على ابن الخلنجى وأرسله مقيداً إلى بغداد ، فلما وصل إليها طيف به وبأصحابه وكانوا ثلاثون نفراً .

وأبتدئ فى هدم ميدان بنى طولون فى شهر رمضان وبيعت أنقاضه ، وخرج فاتك إلى العراق فى منتصف جمادى الأولى سنة ٢٩٤ هـ . وتوفى الخليفة المكتفى فى ذى القعدة سنة ٢٩٥ هـ ، وشغب الجند بمصر وحاربوا النوشرى فظفر بجماعة منهم ، وبويع

المقتدر بالخلافة ، فأقر النوشرى فى ولاية مصر ، وتوفى النوشرى فى ٢٦ شعبان سنة ٢٩٧ هـ وهو والٍ ، فكانت ولايته على مصر خمس سنين وشهرين ونصف ، وقام من بعده ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى . ثم ولى إمارة مصر بعد ذلك تكين الخزرى أبو منصور من قبل الخليفة المقتدر فدعى له بها يوم الجمعة ١١ شوال ، وقدم إلى مصر فى ثانى ذى الحجة ، وبعث جيشًا إلى برقة لمحاربة قوات المهدى عبيد الله الفاطمى بقيادة قائده حباسة بن يوسف الكتامى ، الذى كان قد استولى على برقة وسار إلى الإسكندرية فى أكثر من مائة ألف شخص فى المحرم سنة ٣٠٢ هـ . فقدمت الجيوش من العراق لمعاونة تكين فى شهر صفر فى جمع من القواد ، والتقت قوات مصر مع قوات حباسة عند الجيزة قتل فيها آلاف من الجانبين وعاد حباسة منهزمًا إلى المغرب فقتله المهدى ، وقدم القائد مؤنس الخادم التركى من بغداد إلى مصر فى جيوشه فى منتصف رمضان ومعه جمع من الأمراء ، وقام مؤنس بعزل تكين عن إمارة مصر فى ١٤ من ذى القعدة فخرج منها فى ٧ ذى الحجة وأقام مؤنس يدعى ويخاطب بالأستاذ ويدعى له على المنابر بعد الخليفة .

ثم وُلى ذكا الرومى أبو الحسن من قبل المقتدر إمارة مصر فدخلها فى ١٢ صفر سنة ٣٠٣ هـ ، وخرج ذكا إلى الإسكندرية فى المحرم سنة ٣٠٤ هـ ، ثم عاد فى ٨ ربيع الأول وتتبع كل من كاتب المهدى صاحب إفريقية فسجنهم وقطع أيدى وأرجل بعضًا منهم . وفسد ما بينه وبين الرعية بسبب سب الصحابة وسب القرآن . وقدمت عساكر المهدى صاحب إفريقية ودخلت الإسكندرية فى ٨ صفر ٣٠٧ هـ ، فهرب أهلها إلى الشام فى البر والبحر ، وجدّ ذكا فى أمر محاربة قوات المهدى وحفر خندقًا على عسكره بالجيزة إلا أنه مرض ومات بالجيزة فى ١١ ربيع الأول ، وكانت إمرته أربع سنين .

ثم تولى أبو منصور تكين إمارة مصر للمرة الثانية من قبل المقتدر ، والراجح أن الخليفة إختاره لسابق خبرته بمحاربة الفاطميين وصدهم عن مصر . وكان لعودة تكين أكبر الأثر فى عودة الثقة إلى قلوب المصريين فتحمسوا فى حربهم للفاطميين

وساعدتهم فى ذلك الجيوش والسفن الحربية التى بعث بها الخليفة إلى مصر . وطالت الحرب بين الفريقين ولم يحرز المصريون انتصارهم الحاسم على الفاطميين إلا سنة ٣٠٨ هـ ، بسبب النجدة التى أرسلها الخليفة العباسى إليهم بقيادة مؤنس الخادم ونجدة عراقية أخرى بقيادة جنى الخادم ، المعروف بالصفوانى عند الفيوم ، وفرار قوات القائم بن المهدى إلى برقة .

وقد قام مؤنس بعزل تكين فى ربيع الأول سنة ٣٠٩ هـ عن إمرة مصر ، وولى عليها أبا قابوس محمود بن حمل فأقام ثلاثة أيام ثم عزله وأعاد تكين لمدة أربعة أيام ثم عزله للمرة الثالثة وأبعده عن مصر بإخراجه إلى الشام . ثم ولى هلال بن بدر من قبل المقتدر فدخل مصر فى السادس من ربيع الآخر واستدعى الخليفة مؤنسًا إلى بغداد فخرج من مصر فى ١٨ من نفس الشهر ومعه ابن حمل . وما لبث الخليفة أن عزل الوالى الجديد بعد أن اضطربت الأمور فى مصر وعمت الفوضى وعين مكانة أحمد بن كيغلغ واليًا عليها . إلا أن هذا الوالى الجديد لم يستطع أن يعيد الاستقرار إلى البلاد فزادت حالة الاضطراب فيها ولم يجد الخليفة بدأ من إعادة تكين المحبوب من المصريين لحكم مصر للمرة الرابعة سنة ٣١٢ هـ .

ولما قتل الخليفة المقتدر سنة ٣٢٠ هـ ، وبويع بالخلافة أخوه القاهر ، قام القاهر بإقرار تكين على ولاية مصر ، لكن ولايته لم تطل هذه المرة بسبب مرضه ووفاته متأثراً بهذا المرض فى منية الإصبغ فى ١٦ ربيع الأول سنة ٣٢١ هـ . وكادت وفاة أبى منصور تكين تقضى على حالة الاستقرار الأخيرة التى عاشتها مصر فى ولايته الأخيرة بسبب وقوع الصراع على الحكم بعده بين ابنه محمد بن تكين وبين أبى بكر محمد بن على الماذرائى ، إلى أن ظهر محمد بن طغج الإخشيد على مسرح السياسة المصرية ، ونجاحه فى الوصول إلى ولاية مصر ثم الاستقلال بها وإقامة دولة مستقلة بها هى الدولة الإخشيدية .

ومن أبرز الأسر التى بزغ نجمها فى الفترة ما بين دولة الطولونيين والإخشيديين هى أسرة الماذرائيين الفارسيـة الأصل التى نزح الكثيـر من أفرادها إلى مصر آنذاك وأحرزوا بها النفوذ والسلطان . وقد حافظ هؤلاء الماذرائيـون على ما يتمتعون به من نفوذ كبير فى مصر بعد سقوط الدولة الطولونية وصار لهم النفوذ الكبير فى مصر فى عهد الدولة الإخشيدية . ولقد كان ضمان الماذرائيين لخراج مصر والشام فى بعض السنين وسيلة هامة جمعوا بها ثرواتهم الطائلة ، وكان الاتصال بين أفراد هذه الأسرة قويًا والتعاون بينهم موفوراً ، وقد أصبح الأمر كله في مصر ، بعد وفاة تكين ، بيد أبى بكر الماذرائى دون أن يكون واليًا على البلاد .



ثالثا: الدولة الإخشيدية
(٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م)

١ - محمد بن طغج الإخشيد ٣٢٣ - ٣٣٤ هـ .

٢ - أبو القاسم ، أنوجور بن محمد طغج الإخشيد ٣٣٤ - ٣٤٩ هـ .

٣ - أبو الحسن ، على بن محمد بن طغج الإخشيد ٣٤٩ - ٣٥٥ هـ .

٤ - أبو المسك ، كافور ٣٥٥ - ٣٥٧ هـ .

٥ - أبو الفوارس ، أحمد بن على الإخشيد ٣٥٧ - ٣٥٨ هـ .

حكمت الدولة الإخشيدية مصر حكمًا مستقلاً مدة أربع وثلاثين عامًا خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، فى الفترة ما بين سنوات ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م ، ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م . ومؤسس هذه الدولة هو محمد بن طغج بن جف بن بلتكين الإخشيدى الفرغانى التركى ، الذى ولد فى منتصف شهر رجب سنة ٢٦٨ هـ ببغداد ، وولى إمرة مصر بعد موت تكين من قبل الخليفة القاهر ، ولم يدخل مصر فى هذه الولاية بل دخلها أميراً عليها فى ولايته الثانية من قبل الخليفة الراضى بالله .

وتنتسب الدولة الإخشيدية إلى الإخشيد ، وهو اللقب الذى منحه الخليفة العباسى الراضى بالله لمحمد بن طغج سنة ٣٢٦ هـ / ٩٣٧ م ، وذلك بناء على التماس للخليفة من محمد ، ولقب الإخشيد بلغة أهل فرغانة يعنى : ملك الملوك ، وأنه كان لقب ملوك فرغانة ، كما كان أصبهذ : لقب ملوك طبرستان وخاقان : لقب ملوك الترك والأفشين : لقب ملوك أشروسنه وسامان : لقب ملوك سمر قند وقيصر : لقب ملوك الروم وكسرى لقب ملوك الفرس والنجاشى لقب ملوك الحبشة وطغج بالتركية تعنى : عبد الرحمن .

وكان جف ، جد الإخشيد ، من بين فرسان فرغانة ، من بلاد ما وراء النهر ، الذين وفدوا إلى سامرا فى عهد الخليفة المعتصم واتخذهم أعوانًا له وجعل لهم قطائع

فى عاصمته الجديدة . ولما مات جده جف سنة ٢٤٧ هـ اتصل ابنه طغج أبو محمد بأحمد بن طولون فى مصر ، وكان من أكابر قواده ، ودام على ذلك حتى قتل خمارويه إبن أحمد بن طولون ، فسار طغج إلى الخليفة المكتفى فأكرمه . ثم أظهر طغج تعاليًا وتكبرا على العباس بن الحسن وزير الخليفة فأوعز الوزير صدر الخليفة عليه حتى أمر الخليفة بسجنه ومعه ابناه محمد وعبيد الله ، وظل طغج محبوسًا حتى توفى سنة ٢٩٤ هـ . وبعد مدة أخرج من الحبس وخرج إلى الشام . ثم ولى الإخشيد إمارة مصر مرتين ، الأولى لمدة إثنتين وثلاثين يومًا من قبل الخليفة العباسى القاهر سنة ٣٢١ هـ ، والثانية لمدة أحد عشر عامًا فى سنة ٣٢٣ هـ من قبل الخليفة الراضى . وقد استقل الإخشيد بمصر خلال ولايته الثانية وأقام فيها دولة مستقلة نسبت إليه وعرفت بالدولة الإخشيدية وحذت فى حكمها لمصر حذو دولة الطولونيين .

وكان الإخشيد يطمع فى حكم مصر قبل وفاة واليها تكين ، ولكنه انتظر حتى خلا مكانه واضطربت الأحوال فى مصر ، واستطاع الحصول على تقليد ولايتها من الخليفة القاهر أولاً سنة ٣٢١ هـ . لكن اضطراب الأمور فى مصر وفى عاصمة الخلافة نفسها لم يعط الفرصة الكاملة للإخشيد لتولى حكم مصر ، فلم يدع له من فوق منابرها سوى اثنين وثلاثين يومًا ، ثم خلع عنها وجاء كتاب الخليفة القاهر بتولية أحمد إبن كيغلغ مكانه . واستخلف ابن كيغلغ أبا الفتح بن عيسى النوشرى فشغب الجند على محمد بن على الماذرائى صاحب الخراج مطالبين برواتبهم ، فاستتر منهم فقاموا بإحراق دوره ودور أهله ووقعت فتن فى مصر قتل فيها عدد من الناس إلى أن أتاهم محمد بن تكين من فلسطين فى ١٣ ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ، واليًا فأنكر الماذرائى ولايته وتعصبت طائفة له ودعت له بالإمارة . وخرج ابن النوشرى إلى الصعيد فى عدد من أتباعه وأمروه عليهم . وأقام ابن تكين واليًا على مصر بالفسطاط ١١٢ يومًا . وفى تلك الأثناء خلع الخليفة القاهر من الخلافة وبويع مكانه أبو العباس الراضى بالله خليفة ، وأظهر ابن تكين أن الراضى قد وافق على ولايته مصر ، لكن الجنود لم يرضوا عن ذلك فخرجوا لقتاله ما بين بلبيس وفاقوس بمحافظة الشرقية ، فانهزم وجئ به إلى الفسطاط فحمل إلى الصعيد منفيًا . وورد الخبر بأن محمد بن طغج سار إلى مصر

بولاية الراضى له أميراً عليها للمرة الثانية فبعث إليه ابن كيغلغ بجيش ليمنعه من دخول الفرما فأقبلت مراكب ابن طغج إلى تنيس ونزلت إلى البر والتقت مع قوات ابن كيغلغ فى ١٩ شعبان سنة ٣٢٣ هـ انتصرت فيها قوات ابن طغج وأقبلت مراكبه إلى الفسطاط فى آخر شعبان وتقدم ابن كيغلغ وسلم نفسه وقواته لابن طغج دون قتال واعتذر إليه بأن زمام الحوادث كان قد أفلت من يده وأن جنود مصر تصدوا له دون موافقته . واضطر أبو بكر محمد بن على الماذرائى عامل الخراج إلى الإختفاء بعد استسلام ابن كيغلغ مدة من الزمن ، فى الوقت الذى وافق فيه ابنه الحسين بن محمد الماذرائى على الاستسلام لمحمد بن طغج . وهكذا خلصت مصر لابن طغج ، وصار واليًا على مصر الولاية الثانية بعد أن قلده الخليفة الراضى ولايتها سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م .

ولاية محمد بن طغج الإخشيد على مصر :

ولى الخليفة الراضى محمد بن طغج ولاية مصر على الصلاة والخراج معًا ، فدخلها فى ٢٤ من رمضان ٣٢٣ هـ ، وما كادت الأحوال فى مصر تؤذن بالاستقرار حتى قدم إليها الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات ومعه الخلع لمحمد بن طغج التى أرسلها الخليفة الراضى له بمناسبة توليه حكم مصر . وكان إرسال هذه الخلع من قبل الخليفة ترمز إلى تثبيته فى ولاية مصر . وقد أقام ابن الفرات فى مصر عامًا كاملاً يبحث فى شئونها المالية وأموال أعدائه الماذرائيين وضياعهم ، وقام ابن الفرات بمصادرة كل أموال وضياع الماذرائيين فى مصر والشام لصالح دولة الخلافة ، ولما أنهى ابن الفرات مهمته فى مصر خرج منها ومعه محمد بن على الماذرائى مقبوضًا عليه .

ولقد كن خروج ابن الفرات من مصر بداية الاستقلال التام لمحمد بن طغج بأمر البلاد ، ذلك لأن ابن الفرات كان يدبر أمر الخراج والأموال بمصر مدة إقامته بها وترك لابن طغج تدبير أمر الجيش وبقية الأمور الداخلية ، فلما غادرها ابن الفرات صار هو الحاكم الفعلى لمصر بعد أن جمع إليه ولاية الصلاة والخراج معًا كما أرادها الخليفة له وقلدها إياه .

ووقعت حروب بين ابن طغج وأصحاب ابن كيغلغ انهزموا فيها وانسحبوا بعدها إلى إقليم برقة ، وذهبوا إلى إمام الفاطميين الإسماعيلية القائم بأمر الله محمد بن المهدى بالمغرب فحرضوه على فتح مصر . فجهز الفاطميون جيشًا سار إلى مصر ، فجهز ابن طغج جيشه وأرسله إلى الإسكندرية ليتصدى لهذه القوات المغربية ويمنع تقدمها داخل الحدود المصرية . وفى تلك الأثناء ورد الكتاب من الخليفة العباسى ببغداد بالزيادة فى إسم الأمير محمد بن طغج فلُقب بالإخشيد ودُعى له بذلك على المنبر فى رمضان سنة ٣٢٧ هـ.

على أن الأمور لم تستمر على ما يرام بصدد العلاقة بين الإخشيد ودولة الخلافة ، ذلك بسبب ما صار إليه مسرح الأحداث فى مقر الخلافة وما وقع عليه من منافسات ومؤامرات فى العصر العباسى الثانى للاستئثار بالنفوذ والسلطة على دولة الخلافة بسبب ما استحدثه الخليفة العباسى من منصب إمرة الأمراء ، الذى حل مكان الوزارة وصارت لصاحبه السلطة الفعلية فى دولة الخلافة وإمارة الجيش وولاية خراج جميع البلاد الإسلامية التابعة لدولة الخلافة ، كما صار يخطب لصاحب هذا المنصب على المنابر مع الخليفة فى سائر أنحاء العالم الإسلامى . وقد تولى محمد بن رائق ، أمير واسط هذا المنصب فى بغداد سنة ٣٢٤ هـ بتقليد من الخليفة الراضى للتصدى للمشاكل التى كانت تعانى منها دولة الخلافة آنذاك وإيجاد الحلول لها بعد أن فشل الوزراء فى حلها وإخراج دولة الخلافة من أزمتها .

ولقد حدث الإصطدام بين الإخشيد وابن رائق حين تشدد ابن رائق مع الإخشيد فى أمر خراج مصر ومطالبته له بزيادة الأموال التى كان يرسلها إلى بغداد . لكن التنافس على منصب إمرة الأمراء بين قواد الأتراك لم يجعل ابن رائق يهنأ بهذا المنصب لمدة طويلة فسرعان ما خرج عليه القائد الديلمى بجكم وانتزعه منه سنة ٣٢٦ هـ . وحدث بعد ذلك أن خرج بجكم مع الخليفة لقتال الحمدانيين فى الشام فظهر ابن رائق ثانيةً فى بغداد ، ثم وعد بالانسحاب عنها إذا منح ولاية بلاد الجزيرة ، فأجيب إلى طلبه ، لكنه لم يكتف بذلك ، وطمع فى تملك كل بلاد الشام .

واتسع سلطان ابن رائق فى بلاد الشام ، وبدأ فى تهديد الإخشيد ومطالبته بأموال فرضها عليه مقابل ممتلكاته فى الشام ، فدفع الإخشيد ما طلب منه من مال تجنبًا للإصطدام مع ابن رائق ، لكن ابن رائق لم يكتف بالمال وكشف عن نواياه الحقيقية فى رغبته بتملك كل الشام فخرج إلى الشام على رأس جيش كبير ليحقق مطالبه . ولمأ وصلت قواته الرقة أرسل الإخشيد جيشًا للقائه والتقت القوتان فى منتصف شهر رمضان عند العريش فى معركة عنيفة هزمت فيها ميسرة الإخشيد ثم حمل بنفسه فهزم أصحاب ابن رائق ، فقتل وأسر كثيراً منهم . وتداعى ابن رائق والإخشيد إلى الصلح واصطلحا فعاد ابن رائق إلى دمشق والإخشيد إلى الفسطاط فى ٣ المحرم سنة ٣٢٩ هـ .

وتوفى الخليفة الراضى آنذك وبويع لأخيه المتقى لله بالخلافة من بعده فأقر الإخشيد على ولايته لمصر ، وقتل ابن رائق بالموصل على يد ناصر الدولة بن حمدان فى شعبان سنة ٣٣٠ هـ ، فبعث الإخشيد بجيوشه إلى الشام ، ثم سار إليها فى السادس من شهر شوال بعد أن استخلف أخاه الحسن بن طغج على مصر ، ودخل دمشق ، ثم عاد إلى مصر فى ١٣ جمادى الأولى ٣٣١ هـ . وأخذ البيعة لابنه أبى القاسم أونوجور على جميع القواد آخر ذى القعدة .

وفى ذلك الوقت تولى إمرة الأمراء فى دولة الخلافة القائد التركى توزون الذى إختاره الخليفة المتقى لهذا المنصب سنة ٣٣١ هـ . لكن سرعان ما ساءت العلاقة بين توزون والخليفة الأمر الذى اضطر الخليفة إلى الاستنجاد بالإخشيد والكتابة إليه بأنه بصدد التوجه إليه ليحتمى به من بطش توزون . وخرج الخليفة بالفعل إلى الرقة مع وزيره ابن مقلة ، كذلك خرج الإخشيد من مصر متوجهًا إلى الرقة للالتقاء بالخليفة وحمله إلى مصر . لكن الأمور لم تسر على ما كان يريده كل من الخليفة والإخشيد ، ذلك لأن بنى حمدان منعوا الخليفة من دخول الرقة ، فعمل على الصلح مع توزون ، ولكنه كتب فى نفس الوقت يستحث الإخشيد على عبور الفرات ولقائه فى الرقة .

لكن الإخشيد لم يغامر بعبور الفرات خوفًا من وقوعه أسيراً فى يد بنى حمدان وقتله مثلما حدث مع ابن رائق ، فطلب الإخشيد من الخليفة عبور الفرات ، وبالفعل عبر الخليفة الفرات والتقى بالإخشيد خارج الرقة . وقد بالغ الإخشيد فى إظهار خضوعه وإجلاله للخليفة وقدم له الهدايا النفيسة ولوزيره وحاشيته ، فسُر الخليفة بذلك وولى الإخشيد أعماله مدة ثلاثين عامًا ، وخوّل له حق توريث إمارتها لأبنائه من بعده

وعرض الإخشيد على الخليفة أن يسير معه إلى مصر ليكون الإخشيد ورجاله فى خدمته فرفض الخليفة هذه الدعوة وفضل العودة إلى بغداد بعد تصالحه مع توزون . وعرض الإخشيد على الخليفة عرضًا آخر هو أن يقيم بالرقة على أن يمده بالرجال والأموال والدفاع عنه ضد أعدائه فرفض المتقى ذلك العرض أيضًا ، قال الإخشيد للخليفة : « يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك ، وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم ، فالله فى نفسك ، سر معى إلى الشام ومصر فهى لك وتأمن على نفسك » فلم يقبل المتقى ذلك فقال له الإخشيد : « فأقم هنا وأنا أمدك بالأموال والرجال » فلم يقبل منه أيضًا . ثم عدل الإخشيد إلى الوزير ابن مقلة وقال له : « سر معى » فلم يقبل ابن مقلة أيضًا مراعاةً للخليفة المتقى ، وكان ابن مقلة بعد ذلك يقول : « يا ليتنى قبلت نصح الإخشيد » . وعاد الإخشيد إلى مصر فى جمادى الأولى سنة ٣٣٣ هـ ، وسار الخليفة المتقى إلى بغداد ، فخرج توزون للقائه ، لكنه قبض عليه وسجنه وقام بسمل عينيه وعزله ، وتعيين ابن المكتفى خليفة باسم المستكفى بالله فى السابع من جمادى الآخرة سنة ٣٣٣ هـ . ولماً ولى المستكفى الخلافة ، أقر الإخشيد على ولاية مصر والشام . وسرعان ما خُلع المستكفى عن الخلافة وبويع للمطيع بالله بالخلافة فى شوال ٣٣٤ هـ . وقد أقر المطيع الإخشيد فى ولاية مصر والشام ، كما أقر جعلها ولاية له ولأولاده من بعده مدة ثلاثين سنة .

ولم تكن هذه التقاليد الخلافية تغير من طبيعة الوضع الذى صار عليه الإخشيد فى مصر ، فلقد حكم حكمًا مستقلاً واستغل إمكانيات مصر لصالحه ، ولم تعد تربطه بدولة الخلافة إلا العلاقة الطيبة التى تنحصر فى تبادل الهدايا والتبعية الروحية التى تتمثل فى الدعاء للخليفة معه من فوق منابر بلاده فى صلاة الجمعة . ولقد اتسعت دولة الإخشيد واستقر له حكم مصر ولأبنائه من بعده ، وقام الخليفة بتقليده ولاية اليمن والحرمين وخطب له من على منابرها . أما أمر الشام ، فلقد تقاسمها الإخشيد مع الحمدانيين ، حكام الموصل وحلب ، واصطلح الإخشيد مع سيف الدولة الحمدانى على أن تكون له حلب وأنطاكية وحمص وتكون باقى بلاد الشام للإخشيد . ونتيجة لهذه المصالحة بين الحمدانيين والإخشيديين تزوج سيف الدولة الحمدانى من ابنة الإخشيد . لكن القتال عاد بعد ذلك بين الطرفين ، ونجح الإخشيد فى انتزاع حلب من سيف الدولة الحمدانى سنة ٣٣٣ هـ ، وذلك حين توجه سيف الدولة بقواته إلى مصر محاولاً الاستيلاء عليها ، إلا أن القوات المصرية هزمت قواته وأجبرته على العودة إلى بلاده . وجهز الإخشيد جيشه لحرب الحمدانيين وجعل قيادته لخادمه كافور الإخشيدى وفاتك الإخشيدى ، ثم خرج الإخشيد بعدهما من مصر فى الخامس من شعبان ، واستخلف أخاه الحسن بن طغج على مصر وسار الإخشيد بعساكره حتى لقى سيف الدولة بقنسرين فحاربه وهزمه وانتزع منه مدينة حلب .

وعاد الإخشيد إلى دمشق ، فمرض بها وتوفى بها يوم الجمعة ٢٢ ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ ، وهو فى السادسة والستين من العمر ، بعد أن حكم إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر . ونقل ودفن ببيت المقدس .

وكان الإخشيد ملكًا شجاعًا مقدامًا حازمًا متيقظًا حسن التدبير عارفًا بالحروب مكرمًا للجنود شديد البطش ذا قوة مفرطة وله هيبة عظيمة فى قلوب الرعية ، وقد كان متجملاً فى مركبه وملبسه وكان موكبه يضاهى موكب الخلافة . وكانت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك ، وعدد رجال جيشه أربعمائة ألف جندى .

محمود بالتركية

أنوجور بن الإخشيد :

ولى أنوجور بن الإخشيد حكم مصر بعد وفاة أبيه الإخشيد ، وأنوجور اسم أعجمى تركى معناه باللغة العربية محمود أو محمود مقامه ، فى يوم الجمعة ٢٢ من ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ ، ولاه الخليفة المطيع لله على مصر والشام وعلى كل ما كان لأبيه من الولاية . وكان أبوه قد استخلفه وجعله ولى عهده ، فأقره الخليفة على ما عهد له أبوه . وكان الإخشيد قد عقد لولديه من بعده أنوجور ثم على ، وقرر أن تكون الوصاية عليهما لغلامه أبى المسك كافور بن عبد الله الإخشيدى الخادم الأسود الخصى وكان سيده محمد بن طغج الإخشيد قد اشتراه بثمانية عشر ديناراً من الزياتين ورباه وأعتقه ثم رقاه حتى جعله من كبار القواد لما رأى منه الحزم والعقل وحسن التدبير . وقد كان كافور أتابكا لأنوجور لذى كان صبياً لا يتراوح عمره الرابعة عشرة حين توفى والده وخلفه فى إمارة مصر ، فغلب كافور على الأمر وبقى الإسم لأنوجور والرياسة والحكم لكافور . وظلت الوصاية فى ولاية أنوجور لكافور حتى وفاة أنوجور سنة ٣٤٩ هـ . وقد صارت أمور البلاد فى يد كافور وتدبير أمر الحكم بعد أن نحا كافور أنوجور جانبًا وخصص له راتبًا سنويًا ينفق على نفسه منه مقداره أربعمائة ألف دينار .

ولقد تم الإحتفال بتولية أنوجور إمارة مصر والشام حين ركب فى موكب عظيم سار فيه عمه الحسن بن طغج وأبو بكر الماذرائى ، وقصد جامع عمرو بن العاص وأدى فيه صلاة الجمعة يوم الثالث عشر من المحرم سنة ٣٣٥ هـ ، ودعى له من فوق منبره وكان كافور آنذاك متواجداً بالشام لإقرار الأمن فيه بعد حالة الإضطراب التى سادته حين بلغ أهله وفاة الإخشيد ، فتولى الماذرائى تدبير أمر ولاية أنوجور الحكم ، وقد حفظت له والدة أنوجور هذا الجميل فأطلقت يده فى أمور الدولة حتى مقدم كافور من الشام ، وكان الماذرائيون قد رأوا صالحهم فى ولاية أنوجور الحكم دون عمه الحسن وزيادة فى سلطانهم وسلطتهم فى البلاد فى ظل حكم هذا الفتى الصغير .

ولما عاد كافور إلى مصر تولى أمر الوصاية على أنوجور ، وتسلم من الخليفة المطيع كتاب إقرار ولاية أنوجور على مصو والشام ، الذى قرئ من فوق منبر جامع عمرو يوم الجمعة أول ربيع الآخر سنة ٣٣٥ هـ .

وكانت مقاليد الأمور فى عاصمة الخلافة العباسية قد صارت فى يد حكام الفرس البويهيين ، وأصبح « معز الدولة بن بويه » صاحب السلطة الفعلية فى بغداد دون الخليفة العباسى . وسرعان ما سعى الولاة والأمراء ، ومنهم أنوجور الإخشيد ، إلى كسب ود البويهيين فأرسلوا لهم الهدايا وتمنوا منهم الرضا . وأرسل أنوجور طائفة من الهدايا إلى معز الدولة البويهى سنة ٣٣٨ هـ ، وسأله فى أن يكون أخوه على مشاركًا له فى إمرة مصر وأن تكون ولاية العهد له من بعده ، فأجابه الأمير البويهى إلى ما طلب . وظلت الأمور فى مصر تسير بتدبير كافور الإخشيدى والماذرائيين طوال مدة حكم أنوجور التى بلغت خمس عشرة عامًا .

وقد قام كافور بالقبض على أبى بكر محمد بن على بن مقاتل صاحب خراج مصر فى الثالث من المحرم سنة ٣٣٥ هـ ، وولى مكانه على الخراج محمد بن على الماذرائى . ولما تم أمر أنوجور بدمشق خرج منها وصحبته كافور الإخشيدى إلى مصر فدخلها بعساكره فى أول صفر فأقام بها مدة ثم خرج منها بعساكره إلى الشام ثانية لقتال سيف الدولة الحمدانى ، وكان قد ملك دمشق بعد خروج أنوجور منها . وفى هذه المرة خرج مع أنوجور إلى الشام عمه الحسن بن طغج وكافور ، فخرج سيف الدولة الحمدانى ، من دمشق وتوجه نحو الديار المصرية حتى وصل الرملة ، فالتقى مع المصريين ، فكان بينهم وقعة هائلة إنكسر فيها سيف الدولة وعاد منهزمًا إلى الشام ، فتتبعته القوات المصرية حتى حلب وهزموه عند الرقة ، قرب بلدة اللجون بالأردن ، فانهزم سيف الدولة ووصل إلى دمشق بمشقة بعد أن تشتتت عنه قواته . ودخل الحسن إبن طغج وكافور ودمشق ، واستقر الأمر بينهم وبين سيف الدولة على الصلح على أن يعود سيف الدولة ويكتفى بما كان له من حكم حلب وغيرها من بلاد إقليم الجزيرة . وعاد الحسن وكافور إلى مصر بعد إحراز النصر على الحمدانيين .

ولما كان أنوجور بدمشق خرج عن طاعته غلبون ، متولى ريف مصر فى عدد كبير ونهب الفسطاط واستولى عليها ، وهرب غلبون لما علم بمقدم أنوجور فتبعه الحسن بن طغج حتى ظفر به وقتله . ثم ثم استوزر أنوجور أبا القاسم جعفر بن الفضل بن الفرات . ودام حكم أنوجور عدة سنين دون متاعب إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين أستاذه كافور سنة ٣٤٣ هـ ، وسببها أن أعداء كافور كانوا يكيدون له عند أنوجور ويوهموه بانفراد كافور بالسلطة دونه واحتوائه على الأموال وانفراده بتدبير أمر الجيوش وأخذ أملاك أبيه الإخشيد . ونجح هؤلاء فى الإيقاع بين أنوجور وكافور فلزم أنوجور الصيد وانشغل به وانهمك فى اللهو ولزم المحلة الكبرى ، ثم قرر المسير إلى الرملة ، لكن أمه أعلمت كافور بالأمر ، خوفًا على ابنها من كافور ، فقام كافور بمراسلته ثم اصطلحا ، ودام الأمر على حاله . ولم يزل أنوجور على إمرة مصر إلى أن توفى بها يوم السبت ثامن ذى القعدة سنة ٣٤٩ هـ . وحمل إلى القدس ودفن بجوار قبر أبيه الإخشيد . وكانت مدة ولايته على مصر أربع عشرة سنة وعشرة أشهر . ولما مات أنوجور أقام كافور الإخشيدى أخاه عليًا أبا الحسين بن الإخشيد مكانه ، وأقره الخليفة المطيع على إمرة مصر على الجند والخراج ، وأضاف إليه الشام ، كما كان لأبيه الإخشيد ولأخيه أنوجور . وقويت شوكة كافور فى ولاية على هذا أكثر مما كانت فى ولاية أخيه .

على بن محمد بن طغج الإخشيد :

خلف على أخاه أنوجور فى ولاية مصر ، وكان يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين [illegible] وأقر الخليفة المطيع ذلك ، وقد دامت ولاية على على مصر ست سنوات حتى وفاته سنة ٣٥٥ هـ ، كان خلالها أسيراً فى قصره ، وكان كافور الإخشيدى هو الحاكم الفعلى للبلاد ، وقد حجر كافور على على ، مثلما فعل مع أخيه أنوجور من قبل ، وخصص له أيضًا راتبًا سنويًا قدره أربعمائة ألف دينار . وقد وقعت عدة أحداث فى الإسكندرية والبحيرة بسبب المغاربة الواردين إليها ، وتزايد الغلاء وندرة وجود القمح

وهجوم القرامطة على الشام سنة ٣٥٥ هـ وعجز المصريين عن دفعهم لإنشغالهم بأمر الغلاء والمغاربة الفاطميين . وقد قل ماء النيل فى هذه السنين وارتفعت الأسعار أكثر مما كانت عليه ، ووهنت ضياع مصر وقراها من عدم زيادة النيل ، وعظم الغلاء وكثرت الفتن فى البلاد ، وسار ملك النوبة إلى أسوان ووصل بقواته إلى أخميم وقتل ونهب وسبى وأحرق ، وعظم اضطراب أعمال الديار المصرية قبليها وبحريها .

ثم فسد ما بين على بن الإخشيد وبين كافور ، ومنع كافور الناس الإجتماع بعلى حتى أصيب على بالمرض الذى توفى أخوه بسببه ، وتوفى يوم الحادى عشر من المحرم سنة ٣٥٥ هـ . وحُمل إلى القدس ودُفن عند أبيه الإخشيد وأخيه أنوجور . وبقيت مصر بعده أيامًا بغير أمير ، وكافور يدبر أمرها على عادته فى أيام أولاد الإخشيد ومعه الوزير جعفر بن الفرات . ثم ولى كافور إمرة مصر باتفاق أعيان الديار المصرية وجندها ، وكانت مدة ولاية على بن الإخشيد على مصر خمس سنين وشهرين .

كافور الإخشيدى :

هو الأستاذ أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدى . وكان الوارث لعلى بن الإخشيد طفل صغير يدعى أحمد لم يتجاوز التاسعة من عمره ، فاعترض كافور على توليته الحكم لصغر سنه ، وظلت مصر لمدة شهر دون حاكم إلى أن أعلن كافور نفسه حاكمًا على مصر سنة ٣٥٥ هـ باتفاق أعيان مصر وجندها وموافقة الخليفة العباسى المطيع الذى أرسل له كتابًا بهذا التقليد . وقد دام حكم كافور على مصر منفرداً مدة سنتين وأربعة أشهر ، فدعى له على المنابر ولم يلقب نفسه بلقب الأمير وإنما اكتفى بلقب « الأستاذ » .

وكان كافور يدنى إليه الشعراء ويغدق عليهم ، ومن هؤلاء أبى الطيب المتنبى (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد) الشاعر الكوفى المشهور ، الذى مدح الملوك وانتشر شعره وتناقله الناس . وقد قام المتنبى بمدح كافور حين وصل إلى بلاطه بعد أن فارق سيف الدولة الحمدانى مغاضبًا له .

ومن قصيدته التى مدحه فيها قوله سنة ٣٤٦ هـ :

قواصدَ كافور توارك غيره ... ومن ورد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا إنسانَ عين زمانه ... وخلّت بياضًا خلفها ومآقيا

وأنشده أيضًا فى شوال سنة ٣٤٧ هـ قصيدته البائية التى يقول فيها :

وأخلاق كافور إذا شئتُ مدحه ... وإن لما أشأ تملى عليّ فأكتبُ

إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه ... ويمم كافوراً فما يتغربُ

فإن لم يكن إلا أبو المسك أوهُمُ ... فإنك أحلى فى فؤادى وأعذبُ

وكل امرئٍ يُولى الجميلَ محببٌ ... وكل مكان ينبت العزَ طيبُ

وآخر ما أنشده كان فى شوال سنة ٣٤٩ هـ بقصيدة منها قوله :

وإن مديح الناس حقٌ وباطل ... ومدحك حقٌ ليس فيه كذاب

إذا نلت منك الودَ فالمال هينٌ ... وكل الذى فوق التراب ترابُ

وما كنت لولا أنت إلا مهاجراً ... له كلَ يوم بلدةٌ وصحابُ

ولكنك الدنيا إليّ حبيبةٌ ... فما عنك لى إلا إليك ذهابُ

ولقد قام المتنبى بمديح الأمير أبى شجاع فاتك الرومى ، وهو مولى الإخشيد ورفيقًا لكافور ، وكان يحقد على كافور توليه السلطة فى البلاد ، ولما سمع المتنبى بكرم أبى شجاع قام بمدحه ، فحقد عليه كافور ، وخاف المتنبى على نفسه من بطش كافور فخرج من مصر هاربًا ، وقام بهجو كافور بعد أن كان مدحه بعدة قصائد .

وقال المتنبى فى يوم عرفه قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية التى هجا كافور فيها :

من علم الأسود المخصيَّ مكرمةً ... أقومه البيض أم آباؤه الصِّيدُ

أم أذنه فى يد النخاس دامية ... أم قدره وهو بالفلسين مردود

وذاك أن الفحول البيض عاجزةٌ ... عن الجميل فكيف الخصية السود

- ستري العبد إلا والعصى معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد

ورحل المتنبى من مصر إلى عضد الدولة بن بويه ، وللمتنبى قصائد جميلة يقول فى بيت إحداها :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدواً له ما من صداقته بُدُّ

وقوله :

إذا أتتك مذمتى من ناقصٍ ... فهى الشهادة لى بأنى فاضل

وقوله :

إذا غامرت فى شرف مرومٍ ... فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت فى أمرٍ حقيرٍ ... كطعم الموت فى أمرٍ عظيم

وتوفى المتنبى قتيلاً بالنعمانية ، وهى بليدة على نهر دجلة بين واسط وبغداد.

وقال أبو المظفر فى تاريخه مرآة الزمان : « كان كافور شجاعًا مقدامًا جواداً كريمًا ، وقصده المتنبى ومدحه فأعطاه أموالاً كثيرة ، ثم فارقه إلى العراق » .

وقال النسابة مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوى : « ما رأيت أكرم من كافور ! كنت أسايره يومًا وهو فى موكب خفيف يريد التنزه وبين يديه عدة جنائب بمراكب ذهب وفضة وخلفه بغال المراكب ، فسقطت مقرعته من يده ولم يرها ركابيته فنزلت عن دابتى وأخذتها من الأرض ودفعتها إليه ، فقال : أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية ما ظننت أن الزمان يبلغنى حتى تفعل بى أنت هذا ، وكاد يبكى ، فقلت : أنا صنيعة الأستاذ ووليه ، فلما بلغ داره ودعنى ، فلما سرت التفت فإذا بالجنائب والبغال كلها خلفى ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : أمر الأستاذ أن يحمل مركبه كله إليك فأدخله دارى وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار » .

قال الذهبى : « وكان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكان يقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية وله ندماء ، وكان عظيم الحرمة وله حجاب وله جوار مغنيات وله من الغلمان الروم ما يتجاوز الوصف . وقد زاد ملكه على ملك مولاه الإخشيد ، وكان كريمًا كثير الخلع والهبات خبيراً بالسياسة فطنًا ذكيًا جيد العقل داهية كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس

ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر ... ثم ذكر له حكايات تدل على أنه كان مغرمًا بالرمى ، وكان يداوم الجلوس فى غداته وعشيته لقضاء حوائج الناس » .

وقال ابن زولاق : « وكان كافور دينًا كريمًا ، وسماطه ، على ما ذكره صاحب كنز الدرر فى اليوم : مائتا خروف كبار ومائة خروف رميس ومائتان وخمسون أوزة ، وخمسمائة دجاجة ، وألف طير من الحمام ، ومائة صحن حلوى كل صحن عشرة أرطال » .

توفى كافور بمصر فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ ، عن عمر يناهز الستين ، وكانت إمرته على مصر ٢٢ سنة ، منها استقلالاً بالملك سنتان وأربعة أشهر ، خطب له فيها على منابر مصر والشام والحجاز وثغور طرسوس والمصيصة . وقد حمل جثمانه إلى القدس ودفن بها حسب وصيته .

احمد بن على الإخشيد (ابو الفوارس) :

لمأ توفى كافور اجتمع قواد الجيش وتعاقدوا وتعاهدوا ألا يختلفوا وكتبوا بذلك كتابًا ساعة وفاة كافور ، وعقدوا الولاية لأحمد بن على الإخشيد ، وكان إذ ذاك صبيًا ابن إحدى عشرة سنة - وكافور بعد فى داره لم يدفن - ودعى له على المنابر بمصر وأعمالها والشامات والحرمين ، وأقر القواد أن يحكم من بعده ابن عم أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد ، الذى كان يلى أمر الشام . ثم عقد للحسن هذا على بنت عمه فاطمة بنت الإخشيد يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ ، ثم قدم الحسن إبن عبيد الله من الشام إلى مصر منهزمًا من القرامطة ، واغتصب الحكم من أحمد بن على وحكم البلاد نحو ثلاثة شهور .

وكانت الأحوال قد ازدادت آنذاك فى مصر اضطرابًا ، بسبب تزايد الهجمات الفاطمية على حدود مصر الغربية ، واصرار الفاطميين على غزو مصر بعد أن تبين لهم ضعف حكم الإخشيديين فى أواخر أيام دولتهم ، وضعف دولة الخلافة العباسية فى الدفاع عن مصر وانشغالها بمشاكلها الداخلية التى عانت منها فى ظل السيطرة البويهية على دولة الخلافة . وسرعان ما نجح الفاطميون فى غزو مصر بقيادة قائدهم الشهير جوهر الصقلى ، الذى أرسله الخليفة الفاطمى المعز لدين الله على رأس جيش كبير سنة ٣٥٨ هـ لفتحها . وبفتح الفاطميين لمصر انتهت دولة الإخشيديين ، وانتزعت مصر من تبعية المذهب العباسى ، وقام بها حكم مستقل للفاطميين الشيعة الإسماعيليين إستمر قرابة ما يزيد على قرنين من الزمان . وكانت مدة الدعاء لبنى العباس بمصر منذ أن قامت دولتهم إلى أن قدم جوهر إلى مصر ٢٢٥ سنة ، ومدة الدولة الإخشيدية بها أربعًا وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يومًا .



حضارة مصر فى العهدين الطولوني والإخشيدى

يمثل العصر السابق للعهد الطولونى فى مصر والممتد من الفتح العربى لمصر حتى قيام الدولة الطولونية دور التكوين فى حضارة مصرالإسلامية . فقد شهد هذا العصر دخول المؤثرات الإسلامية على المجتمع المصرى عن طريق الفتح العربى الإسلامى ، ثم عن طريق الهجرات العربية المتعددة من جزيرة العرب إليها وتسرب قبائل العرب ، قحطانية وعدنانية ، إليها تسربًا سلميًا . كذلك شهد هذا العهد بداية عملية الاختلاط والتزاوج والمصاهرة بين العرب الوافدين وسكان مصر الآمر الذى أدى إلى ظهور أجيال مصرية جديدة مستعربة ، وأدى إلى انتشار الإسلام والثقافة العربية وإحلال اللغة العربية محل اللغة القومية المحلية .

ولقد شهد العهد الطولونى ، ثم العهد الإخشيدى بداية ازدهار حضارة مصر الإسلامية ، وكان الاستقلال السياسى الذى حققته مصر فى هذين العهدين من أهم عوامل هذا الازدهار ، كذلك كان ثراء مصر العريض الذى أحرزته وإنفاق أموالها وخيرات مواردها على أهلها ، دون إرسالها إلى خزانة الخلافة فى بغداد مع رغبة حكام مصر الجدد فى منافسة دولة الخلافة فى كل أشكال الحضارة من أهم الأسباب التى أدت إلى هذا الازدهار . ولقد استتبع استقلال مصر عن دولة الخلافة فى العهدين الطولونى والإخشيدى تطوراً كبيراً شهده المجتمع المصرى آنذاك ، كانت ملامحه قد ظهرت فى المجالات الإجتماعية والإقتصادية والثقافية والمعمارية .

١ - فى المجال الاجتماعى :

أ - عناصر السكان :

أقباط مصر : كان أقباط مصر فى العصر الطولونى والإخشيدى هم أهل البلاد الأصليون ، وهم الذين رحبوا بالفتح العربى وتقبلوا الحكم العربى فى ظل عصر الولاة . وقد ظل الكثير منهم على ديانته المسيحية غداة الفتح ، وتحول بعض منهم إلى الإسلام

مع مرور الأيام وبعد تفهمهم لروح الإسلام . والحقيقة البارزة التى نستخلصها من وثائق البردى المصرية والتى هى بين أيدينا الآن من أن النصف الأول من القرن الثالث الهجرى قد شهد انتشاراً واسعًا للإسلام فى مصر وقبولاً زائداً له من أقباطها ، وليس أدل على ذلك من انخفاض مقادير الجزية المحصلة من أهل مصر بسبب إسقاطها عمن أسلم من أهل الذمة وفقًا لقواعد التشريع الإسلامى . كذلك مما يؤكد هذا الإقبال من أقباط مصر على الدخول فى الإسلام خفوت ثورات أقباط مصر ، تلك الثورات التى ظلت تظهر وتختفى منذ أواخر القرن الأول الهجرى حتى اختفت تمامًا آنذاك ولم يعد لها أى ذكر فى المصادر ، وخفوت هذه الثورات لهو دلالة على تناقص أعداد الثائرين والمتمردين بازدياد دخولهم فى الإسلام .

ولقد تحول غالبية أقباط مصر إلى الإسلام ، ولكن لم تكن غالبية عظمى وأصبح القبط لذين ظلوا على ديانتهم أقلية لكنها أقلية كبيرة العدد والأثر . ولقد سكنوا الفسطاط والقطائع ، وكان لهم أيضًا النفوذ الواسع فى الريف وكانت لزعمائهم وأعيانهم مكانتهم الإجتماعية فى البلاد ، وتشير مجموعات وثائق البردى العربية التى جمعها جروهمان إلى انتشار ظاهرة زواج المصريات الذميات آنذاك من المصريين المسلمين أو من العرب المسلمين . كذلك أشار المقريزى فى خططه إلى ظاهرة احتفال الشعب المصرى فى العهدين الطولونى والإخشيدى ، وبعد ذلك العهد الفاطمى ، بالأعياد المسيحية احتفالاً رسميًا وشعبيًا يشترك فيه المصريون المسلمون على السواء مع المصريين المسيحيين ويحضر هذه الإحتفالات حكام البلاد وتعطل الأعمال فيها . ومن هذه الإحتفالات المسيحية الإحتفال بيوم الغطاس وليلته والإحتفال بخميس العهد والاحتفال بأحد الشعانين والاحتفال بعيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة .

ولقد كان التعاون والمشاركة قائمة فى مصر بين الأغلبية الساحقة من المسلمين المصريين والأقلية النصرانية فى العمل والوظائف الحكومية والتجارة والزراعة والحرف . ورغم هذا فإن انتشار الإسلام الواسع فى مصر بين المصريين وتفوق المسلمين فى العدد والنفوذ جعل أقباط مصر يشكلون طبقة إجتماعية مستقلة عن طبقة المسلمين .

وكانت هذه الطبقة قد تحولت عن لغتها الأصلية إلى اللغة العربية وأخذت بالثقافة العربية وجرت معاملاتهم حتى عقود زواجهم باللغة العربية ، وقد نجح بعض كبار رجال هذه الطبقة فى إحراز المكانة والامتياز فى المجتمع المصرى بسبب ما كانت لديهم من خبرات فنية وصناعية وإدارية ومالية فاحتفظوا بالوظائف المالية الكبرى فى البلاد وكانت لهم ثرواتهم الطائلة وضياعهم الواسعة . وقد ظلت الدولة ترعى دور عباداتهم من كنائس وأديرة ظلوا يؤدون شعائرهم بها بحرية وبتسامح بدى من كل من عامة المسلمين ومن كافة المسئولين . ولقد كانت سياسة الطولونيين والإخشيديين تعمل على التقرب إلى أهل البلاد مسلمين ومسيحيين والاعتماد على شعب مصرى موحد لتوطيد دعائم الاستقلال الذى حققوه لمصر فى عهد حكمهم .

القبائل العربية : والعنصر الثانى الذى سكن مصر منذ الفتح واستمر توافده عليها فى العهدين الطولونى والإخشيدى هو عنصر القبائل العربية التى وفدت على مصر واستقرت فيها وعاش بعضها منعزلاً فى بعض أرجائها واختلط البعض الآخر مع سكانها الأصليين الأمر الذى سارع بعملية التعريب وأفرز أجيالاً مصرية عربية جديدة . ولقد توطنت فى مصر بعض القبائل العربية التى جاءت مع حملات الفتح ، وشهدت هذه الحملات مشاركة بعض الصحابة والتابعين الذين سكنوا مصر وأقاموا فيها وماتوا ودفنوا فيها عند سفح المقطم وفى أماكن أخرى . وتبعت جيوش الفتح قبائل أخرى نزحت إلى مصر فى عهد الولاة بعضها يمنى والبعض الآخر قيسى وتفرقت هذه القبائل فى البلاد وسكنت الدلتا والصعيد وسار بعضها إلى الصعيد الأقصى ووصل إلى بلاد النوبة والسودان . وقد كان اختلاط العرب بالمصريين بطيئًا فى بادئ الأمر ، لكنه ازداد واتسع مع مطلع القرن الثالث الهجرى بسبب السياسة التى إستنها الخليفة العباسى المعتصم بالله الذى أسقط العرب من ديوان الجند سنة ٢١٧ هـ وأحل مكانهم جند الأتراك . فلم يكن أمام المقاتلين العرب من بد إلا العمل بالزراعة والرعى والاختلاط بالمصريين لكسب أرزاقهم بعد أن فقدوا مصدر مواردهم الوحيد وهو العطاء الذى كانوا يتقاضونه وأسرهم من ديوان الجند .

ولقد استقرت أعداد من قبائل العرب بالفسطاط ثم بالقطائع ، غير أن الغالبية العظمى منهم نزحت إلى الصعيد نزوحًا مستمراً ، ونزل بعضها بلاد النوبة مثل قبيلة جهينة اليمنية وقبيلة ربيعة التى نزحت إلى مصر سنة ٢٤٠ هـ ، ونجحت فى إقامة إمارة لها هناك بعد أن اختلطت بقبائل البجة فى وادى العلاقى بالصحراء الشرقية ثم بالنوبيين عرفت بإمارة « بنى الكنز » . وقد شاركت هذه القبائل فى الثورات التى قامت ضد أحمد بن طولون وخاصة فى ثورة ابن الصوفى العلوى سنة ٢٥٣ هـ ، قرب مدينة إسنا وثورة أبى عبد الرحمن العمرى . ولقد قاد أبو عبد الرحمن العمرى أكبر الهجرات العربية إلى بلاد البجة سنة ٢٥٥ هـ ، واتخذت هذه الهجرة مظهراً عسكريًا فى بادئ أمرها فى عهد ولاية أحمد ابن طولون ، وكان ابن طولون قد أعلن عن عزمه على إرسال حملة عسكرية إلى بلاد النوبة وبلاد البجة يكون جنودها من أعداد القبائل العربية التى تريد الهجرة إلى تلك البلاد . وكان يهدف من وراء هذه الحملة تحقيق هدفين أولهما التخلص من عدد كبير من هذه القبائل وإبعادها عن العاصمة إلى تلك البلاد النائية وثانيهما تأديب النوبة والبجة وكف هجومهم على جنوب البلاد ومحاولة نشر الإسلام بينهم . وقد اشتركت فى هذه الحملة أعداد كبيرة من قبيلتى ربيعة وجهينة ، قادهما العمرى إلى جنوب مصر والصحراء الشرقية سنة ٢٥٥ هـ ، ونجحت حملة العمرى فى السيطرة على قبائل البجة وعقد اتفاقات معهم تعطى الحق للقبائل العربية النازحة فى الاستقرار الدائم بينهم وسمحت للعرب بالزواج من بناتهم .

وبسبب زواج العرب من بنات رؤساء البجة تسيد العرب على هذه البلاد واستفاد أبناؤهم من قوانين الميراث عند البجة ووصلوا إلى حكمهم ذلك لأن حق الميراث عند البجة كان لابن البنت أو ابن الأخت دون الولد من الصلب ، ولعل أهم نتائج هذه المصاهرة بين قبائل العرب وبنات البجة هو إقبال البجة على إعتناق الإسلام والتزود بالثقافة العربية . بل ترتب على هذه النتيجة نتيجة سياسية أخرى أهم ألا وهى سيطرة من أسلم من البجة ، وهم الحدارب ، على غيرهم ممن لم يسلم من سائر البجة وهم الزنافج . فأصبح الحدارب شوكة القوم ووجوههم وأصبح الزنافج تبعًا لهم وخفرائهم يحمونهم ويرعون لهم المواشى بعد أن كانوا أسياداً عليهم ، وتملك كل رئيس من الحدارب قومًا من الزنافج وصاروا يتوارثونهم كما يتوارثون أى شئ .

وعلى الرغم من هذه النتائج الطيبة التى حققها العمرى على أثر نجاح حملاته فى بلاد البجة فإن ابن طولون بدأت تساوره المخاوف والشكوك من جهة العمرى ومن معه من القبائل العربية بعد أن ذاع صيته فى صعيد مصر وبلاد البجة وخاف أن يدفع به طموحه إلى الاستقلال عن دولته ، خاصة وأنه يملك أدوات التمرد وهو المال والرجال ، فهو صاحب مناجم الذهب فى وادى العلاقى بالصحراء الشرقية وقائد عناصر عربية متمردة وعناصر بجاوية تهوى القتال .

وازداد خوف ابن طولون حين بلغه أن قوات العمرى تزيد عن مائة ألف رجل من رجال القبائل العربية المختلفة من ربيعة وبكر وّوائل وجهينة لذلك صمم على القضاء عليه قبل أن يستفحل أمره فأرسل لقتاله جيشاً بقيادة صباح بن حركام البابكى ، غير أن قوات العمرى تمكنت من أن تلحق بهذا الجيش هزيمة شديدة ، وتقدم العمرى بقواته لمواصلة انتصاره على قوات ابن طولون فسار شمالاً حتى وصل إلى قرب قوص ولكنه عاد إلى منطقة المعادن دون أن يستغل ثمرة نصره على ابن طولون وذلك بسبب تخوفه من تفوق ابن طولون عليه فى الجولة التالية من الحرب خاصة وأنه كان يعلم أن ابن طولون لم يستخدم ضده كل قواته . كذلك خوفه من غدر القبائل التى حاربت معه وخاصة قبيلة ربيعة أقوى هذه القبائل ، وكان العمرى يعلم طموح هذه القبائل ورغبتها الشديدة فى تملك مناجم العلاقى . ولم يتخلص ابن طولون من العمرى وتحالف القبائل معه إلا حين أغتيل العمرى وتفرق الجمع الذى كان معه .

وبعد موت العمرى دخلت ربيعة فى حرب مع جهينة ومع غيرهآ من القبائل التى نزحت هناك ، وفى هذه الحرب انتصرت ربيعة بسبب مؤازرة البجة لها وقامت بطرد باقى القبائل من وادى العلاقى وتحققت لها السيادة على الوادى وأقامت لها هنالك إمارة عربية كانوا هم سادتها ، وكانت رعيتها قبائل البجة التى ارتضت هذه السيادة عليها من ربيعة عن طيب خاطر .

وقد استطاع أحمد ابن طولون أن يخضع القبائل العربية التى استقرت فى الصعيد لنفوذه ، وقامت بعض هذه القبائل بالاختلاط بالمصريين وظل البعض الآخر دون اختلاط دون التسبب للطولونيين أو الإخشيديين من بعدهم فى أى متاعب . وهنالك وثائق ترجع إلى العصرين الطولونى والإخشيدى تشير إلى استقرار فريق من العرب فى بلاد الصعيد فى المنطقة ما بين بنى سويف والجيزة ، كذلك سكن بعض هذه القبائل فى إقليم الحوف الشرقى بمحافظة الشرقية وفى أعمال الأشمونين .

الموالى : يتضح لنا من بناء مدينة القطائع وتقسيمها إلى أحياء خصص كل حى منها لعنصر من عناصر الجيش الطولونى كثرة الموالى فى العهد الطولونى والإخشيدى ، فنسمع عن قطيعة للسودانيين وقطيعة للروم وقطيعة لكل طائفة من طوائف الغلمان والموالى من مختلف الأجناس ، ويقول المقريزى بصدد ذلك :

« والقطائع عدة قطع تسكن فيها عبيد ابن طولون وعساكره وغلمانه وكل قطيعة لطائفة فيقال قطيعة السودان وقطيعة الروم وقطيعة الفراشين ونحو ذلك فكانت كل قطيعة لسكنى جماعة بمنزلة الحارات التى بالقاهرة » .

ولقد ازداد عدد الموالى من الفرس والترك والسودان فى عهد بنى طولون وبنى الإخشيد وخدم معظمهم فى الجيش ، ونجح بعضهم فى تولى المناصب الهامة فى الدولة واقتناء الثروات الطائلة مثل الماذرائيين الفرس وبنو مهاجر الفرس الذين وفدوا آنذاك من فارس إلى مصر واستقروا فيها .

وقد كان النوبيون ضمن موالى دولة الطولونيين والإخشيديين ، وكانت أعداد كبيرة منهم تفد إلى مصر ويقوم بإرسالهم ملك النوبة المسيحى إلى حكام مصر للعمل فى الخدمة أو الجندية وفاءً لإلتزامه بإتفاق البقط الذى التزم به ملوك النوبة بدفعه لمصر منذ سنة ٣١ هـ بعد انهزامهم أمام قوات عبد الله بن سعد بن أبى السرح . وتذكر المصادر أن ملوك النوبة استمروا فى إرسالهم البقط لمصر حتى حكم الفاطميين لها .

ب - التقسيم الطبقي :

طبقة الحكام : تمثلت هذه الطبقة فى أمراء البيتين الطولونى والإخشيدى وقد عاش أفرادها فى ترف زائد ورغد فائق ، وكان لها النصيب الأكبر من دخل موارد البلاد فبنوا الدور والقصور وظهر الترف الزائد فى عمارة القطائع فى عهد خمارويه الذى بنى القصر والميدان والبستان ودار الذهب واصطبلات الخيل . وبلغ الاهتمام بسباق الخيل أقصاه فى عهد خمارويه حتى صار إنعقادها يقوم مقام الأعياد ، وقد بلغت حليات السباق فى عهده حداً من الروعة جعل مؤرخًا مثل القضاعى يعتبرها عجيبة من عجائب الإسلام الأربعة ، ولقد انغمس خمارويه فى حياة اللهو والترف وجمع من حوله الجوارى والقيان ، وكان مغرمًا بحظية له تسمى بوران ، بنى لها بيت الذهب ونقش على جدرانه صورتها وصورته وصورة باقى جواريه وهن يعزفن له ويرقصن . كذلك من مظاهر ترف هؤلاء الحكام بركة الزئبق التى أنشأها خمارويه لتخلصه من الأرق الذى أصابه ولتجلب له النوم والإسترخاء . كذلك تظهر مظاهر البذخ والإنفاق الزائد فيما صرفه خمارويه من أموال على عرس ابنته قطر الندى وجهازها وزفافها وتوصيلها إلى الخليفة المعتضد فى بغداد حتى صار هذا العرس من أشهر وأغلى أعراس التاريخ وكان سببًا فى إفلاس خزانة مصر . وذكر المقريزى أن أحمد ابن طولون إشترى داراً بعشرين ألف دينار . كذلك أورد المقريزى أن خمارويه قد كلف أبا بكر محمد بن على الماذرائى بشراء أردية وأقنعة لجواريه وأقام حفلاً خلا فيه بالجوارى وأن الماذرائى ذهب إلى الحفل ليتفقد حال الأمير فلما سأل عن خبره قالوا له أنه قد بلغ به الطرب حداً كبيراً فقام بنثر الدنانير على الجوارى والغلمان وأخبرهم بأن ما سقط من الدنانير فى البركة هو للماذرائى كاتبه . ويقول الماذرائى أنه لما بلغه ذلك أمر الغلمان بالنزول فى البركة فأخرجوا منها سبعين ألف دينار ، ويتعجب المقريزى من هذا الأمر بقوله : « فما ظنك بمال نثر على أناس فتطاير منه إلى بركة الماء هذا المبلغ » .

ولقد اهتمت هذه الطبقة بإتخاذ الحرس الخاص لها من مختلف الجنسيات ووفرت لها أسباب الفخامة والأبهة وإتخاذ الأزياء الجميلة والأسلحة الفاخرة ، وقد روى أن خمارويه « قد ألبسهم الأقبية من الحرير والديباج وصاغ لهم المناطق وقلدهم بالسيوف المحلاة يضعونها على أكتافهم إذا مشوا بين يديه » ، فيتمشى زيهم هذا مع الفخامة التي غلبت على الحياة فى عصر خمارويه ، وتجلت هذه العناية فى مواكبه الرسمية التي كانت على أوفر ترتيب وأتم تنظيم .

ولقد جدت على المجتمع المصرى فى العهد الطولونى والإخشيدى طبقة إجتماعية جديدة من رجال بنى طولون والإخشيد والمحيطين بهما ، وفدت إلى مصر وأسهمت فى بناء دولتيهما ، وأفادت من حالة الاستقلال شبه الكامل الذى عاشت فيه البلاد أيامهما واتساع رقعة الدولة بما ضم إليها من بلاد وحالة الرخاء التي عمتها بسبب وفرة ثرائها وقوة إقتصادها آنذاك . وتألفت هذه الطبقة من قواد الجيش الطولونى والإخشيدى بعناصره المختلفة الذين تولوا المناصب الهامة فى الدولة ولكثير من أعمال الدولة الإدارية إضافة لزعماء الغلمان الطولونيين والإخشيديين وحجاب القصر ورجال البلاط وكبار الكتاب والقضاة وكبار التجار . فقد شكلت هذه الطبقة طبقة برجوازية أحرز أفرادها النفوذ والسلطان فى مصر وجمعوا الثروات الطائلة وعاشوا حياة الترف والرفاهية وتشبهوا فيها بما كان عليه حكام الدولة . وقد تجلت مظاهر ثراء هذه الطبقة فيما أوردته المصادر عن مقدار الأموال الهائل الذى جمعوه والضياع والأراضى التى تملكوها والقصور والدور التى بنوها وأعداد الخدم والحشم الهائل الذى كان فى خدمتهم . كذلك تمثل فى كم الصرف الهائل الذى كانوا يبذلونه فى شرائهم وعلى حفلاتهم الخاصة وعلى من يمدحونهم من الكتاب والشعراء . وقد ذكر المقريزى أن فائقًا ، مولى أحمد بن طولون ، اشترى داراً بعشرين ألف دينار وأنفق فى تأثيثها هذا المبلغ ، وكانت له من الجوارى فى هذه الدار ثلاثمائة جارية .

وظهرت فى محيط هذه الطبقة أسرات بيروقراطية تمتع أفرادها بكفاءات خاصة وكونوا لأنفسهم بيوتات خاصة توارثوا فيها مناصب معينة كالوزارة والحجابة وولاية الخراج والكتابة فى ديوان الإنشاء ، وقد لعب هؤلاء دوراً هامًا وخطيراً فى الحياة الإجتماعية فى مصر فى العهدين الطولونى والإخشيدى . ويتميز من بين هذه البيوتات فى ذلك العصر بيتان هما : بيت الماذرائيين وبيت بنى مهاجر ، وكانوا من الفرس الذين وفدوا إلى مصر .

ولقد بدأ ظهور الماذرائيين فى مصر سنة ٢٦٦ هـ ، فى عهد أحمد بن طولون ، حينما تولى جدهم أحمد بن إبراهيم الماذرائى الخراج مشاركة مع على المدائنى لأحمد بن طولون ، ولمأ صرف ابن طولون المدائنى انفرد الماذرائى بولاية خراج مصر وحاز ثقة الطولونيين . ولمأ مكن الماذرائى الكبير لنفسه فى مصر استقدم أفراد أسرته من فارس والعراق ليشاركوه نفوذه وسلطانه ، فاستقدم على بن أحمد الماذرائى ليعاونه فى الكتابة والخراج ، كذلك استقدم الحسين بن أحمد الماذرائى وعينه فى وظيفة مالية ببلاد الشام . ولمأ توفى أحمد الماذرائى خلفه على ابنه فى مكانته ، وصار كاتب الخراج لخمارويه ووزيره وموضع ثقته والمشرف على خزائنه وضياعه الخاصة . واستمر على فى مكانته حتى قتل فى الثورة التى أعقبت مقتل جيش بن خمارويه . وبعد مقتل على خلفه فى وظيفته ومكانته ابنه أبو بكر محمد بن على الماذرائى وظل يشرف على الخراج وديوان الإنشاء حتى سقوط دولة بنى طولون . ولقد كانت لأبى بكر الماذرائى هذا سلطة كبيرة فى الدولة الطولونية وثروة واسعة ويظهر ذلك مما رواه عنه المقريزى فى خططه بصدد بذخه وكثرة إنفاقه . يقول المقريزى أنه قيل عن أبى بكر هذا أنه حج اثنتين وعشرين حجة أنفق فى كل حجة ١٥٠ ألف دينار ، وأنه كان يخرج معه بتسعين ناقة لقبته وهودجه الذى كان يركبه و ٤٠٠ ناقة تحمل جهازه ومؤنته ، وأنه كان ينفق على الأشراف فى مكة والمدينة وأبناء الصحابة وقد كان لهم عنده ديوان بأسمائهم ، وقيل أنه أنفق فى خمس حجات أخر مليونين ومائتى ألف دينار . وأنه حين صودر أخذ منه ما قدره ثلاثين إردب ذهباً خالصاً .

وقد بلغ علو مكانة الماذرائيين بمصر حداً جعل المؤرخ ابن زولاق يخصهم بكتاب من تأليفه جعل عنوانه : « كتاب سيرة الماذرائيين ، كتّاب مصر » . ولقد استمر نفوذ الماذرائيين قائمًا فى مصر فى العهد الإخشيدى ، وظلوا يحتفظون بالسلطة والسلطان ويمتلكون الضياع الواسعة ويجرون الأرزاق على الفقراء والمحتاجين .

وقد تعرض الماذرائيون إلى مصادرة أموالهم على يد الإخشيد فى بعض الأحيان ، وكانت العامة تقوم بنهب دورهم وإحراق ضياعهم ، لكنهم سرعان ما كانوا يعاودون نهوضهم ويستعيدون مكانتهم وثرواتهم فى وقت قصير للغاية ، وقد كفل لهم ذلك سيطرتهم على كثير من نواحى نشاط البلاد الإقتصادى الأمر الذى يصعب معه تجريدهم الكامل من سلطتهم وأموالهم . ورغم أن الماذرائيين كانوا يحيون حياة الترف والنعيم إلا أنهم تعهدوا الفقراء والمحتاجين بخيرهم وإحسانهم وكانت لهم الأيادى البيضاء عليهم .

وإلى جوار الماذرائيين ظهرت أسرة بنى مهاجر كبيت حاكم له نفوذه وثراؤه فى مصر فى عهد الطولونين والإخشيديين . وأصل بنى مهاجر فارسى وهم من نسل عبد الحميد الكاتب ، وقد كان بنو مهاجر أربعة إخوة قدموا من فارس إلى مصر وخدموا ابن طولون وهم الحسين بن مهاجر وعلى وأبو القاسم وعيسى ، وتولوا المناصب الهامة فى مصر بسبب براعتهم فى أمور الإدارة . وكان الحسين بن مهاجر أوسع إخوته نفوذاً وثراءً ، ونهج بنو مهاجر نهج الماذرائيين فى حياتهم الإجتماعية وعيشهم العيش المترف مع إغداقهم على الفقراء والمحتاجين .

ولقد شارك كبار التجار هذه الطبقة البرجوازية فى المكانة والثروة وخاصة العاملين فى التجارة العالمية الخارجية وهى تجارة المرور بين الشرق والغرب . تلك التجارة التى تخصص العاملون بها فى جلب واستيراد وبيع السلع الغالية القيمة الخفيفة الحمل وهى سلع تجارة الشرق الغنية مثل التوابل والحرير والأحجار الكريمة والمنسوجات الغالية والرقيق . وكانت هذه التجارة تدر أرباحًا وافرة على العاملين بها تجعل هؤلاء التجار

يحيون حياة كبار رجال الدولة ويحاكونهم فى حياتهم المترفة الناعمة ويجمعون الثروات الطائلة ، وأكبر الأمثلة على هؤلاء : التاجر عبد الله بن الجصاص تاجر الجواهر الشهير فى العهد الطولونى الذى أشرف على جهاز قطر الندى ابنة خمارويه وكان يمتلك من المال ما ليس له عدد ولا حصر حسبما ورد فى المصادر .

ذكر المقريزى عن عبد الله بن الجصاص هذا أنه أشرف على جهاز قطر الندى ولما دخل ابن الجصاص يودعه ليذهب مع ابنته إلى بغداد قال له خمارويه عند محاسبته النهائية له : « هل بقى بينى وبينك حساب ؟ فقال : لا ، فقال : أنظر حسابك ، فقال : كسر من الجهاز ، فقال : إحضروه ، فأخرج ربع طومار فيه سبت ذكر النفقة فإذا هى أربعمائة ألف دينار . قال محمد بن على المادرائى : فنظرت فى الطومار فإذا فيه ألف تكة الثمن عنها عشرة آلاف دينار فأطلق له الكل . قال القضاعى : وإنما ذكرت هذا الخبر لتستدل به على أشياء منها سعة نفس أبى الجيش ومنها كثرة ما كان يملكه ابن الجصاص حتى أنه قال كسر بقى من الجهاز وهو أربعمائة ألف دينار لو لم يقتضه ذلك لم يذكره ومنها ميسور ذلك الزمان لما طلب فيه ألف تكة من أثمان عشرة دنانير قدر عليها فى أيسر وقت وبأهون سعى ولو طلب اليوم خمسون لم يقدر عليها » .

ويضاف الأشراف العلويون إلى هذه الطبقة المتميزة فكانت لهم المكانة السامية عند الحكام وعامة الشعب .

الطبقة الوسطى : وهى تتألف من طائفة الحرفيين والصناع والزراع وصغار الموظفين والكتاب ، وقد سكنت هذه الطبقة فى غالبيتها المدن وأطرافها ، وكانت لكل طائفة شارعها أو حارتها أو قطيعتها فى مدن القطائع والعسكر فى العصر الطولونى والإخشيدى ، بخلاف أولئك الذين سكنوا خطط الفسطاط منذ إنشائها . ولم تعانى هذه الطبقة من مشاكل فى عهد الطولونيين والإخشيديين وكانت الحياة ميسرة لها بسبب زيادة الإنتاج وشيوع الرخاء وهى ظاهرة عمت فى عهد هاتين الدولتين .

وقد ذكر القضاعى أن الأسعار فى مصر عمومًا كانت معقولة ، وهو يقول فى ذلك : « والسعر راخ والقمح كل خمسة أرادب بدينار وبيعت عشرة أرادب بدينار زمن أحمد بن طولون » . وعن توفر السلع ورخاء أسعارها فى مصر بالنسبة لهذه الطبقة يقول المقريزى ما نصه : « وأخبرنى بعض المشايخ العدول عن والده وكان من أكابر الصلحاء أنه قال عددت من مسجد عبد الله إلى جامع إبن طولون ٣٩٠ قدر حمص مسلوق بقصبة هذا السوق بالأرض سوى المقاعد والحوانيت التى بها الحمص فتأمل أعزك الله ما فى هذا الخبر مما يدل على عظمة مصر ، ففى هذا السوق صنف واحد من المآكل هذا القدر فكم ترى تكون جملة ما فيه من سائر أصناف المآكل وقد كان إذ ذاك بمصر عشرة أسواق كلها أو أكثرها أجل من هذا السوق » .

طبقة العامة : وهى تشكل الطبقة الكبيرة العدد من الشعب المصرى ، وهى التى ضمت صغار الحرفيين والصناع والفلاحين الأجراء وصغار الموظفين وخدم المساجد والعاطلين من دهماء الشعب ، وقد كان دخل هذه الطبقة محدوداً وأجورهم متدنية مقارنة بأجور رجال الطبقة الوسطى .

وتوجد وثيقة بردية فى دار الكتب المصرية بالقاهرة مؤرخة من شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٦ هـ ، تحتوى على عقد إستئجار خادم لأحد المساجد وقد نص العقد على أن يتقاضى هذا الخادم أجراً سنويًا مقداره ثلاثة دنانير ونصف مقابل رعايته للمسجد وتنظيفه وإضاءته وجلب الماء له . ونص العقد أيضًا على إسكانه بيتًا من بيوت المسجد دون مقابل ، وكان أجر هذا الخادم يدفع من إيراد وقف خصص للصرف على هذا المسجد .

وكان حكام الطولونيين والإخشيديين يقيمون الولائم والمآدب فى قصورهم فى بعض الأحيان لعامة الناس من سكان مصر الفسطاط والقطائع . ولقد ذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه كان ينادى فى مصر ما بين الحين والآخر : « من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر .. وكان ابن طولون يجلس وهو بأعلى القصر ينظر ذلك ويأمر بأن تفتح جميع أبواب الميدان لينظرهم وهو يأكلون ويحملون » .

وكان العامة من المصريين يشاركون فى الإحتفال بالأعياد الإسلامية والقبطية وكان الحكام يتصدقون عليهم فى شهر رمضان وفى عيدى الفطر والنحر ، كذلك كانوا يحتفلون بيوم الغطاس الذى كان له بمصر موسم عظيم للغاية . قال المسعودى : « ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها وهى ليلة الحادى عشر من طوبة ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والإخشيد محمد إبن طغج أمير مصر فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها وقد أمر فأسرج فى جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر بشاطئ النيل فى تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين ومن النصارى منهم فى الزواريق ومنهم فى الدور الدانية من النيل ومنهم على سائر الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس والملاهى والعزف والقصف وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشر الداء » .

وكان العامة يشاركون فى الثورات وحركات التمرد ، كذلك كانوا يقومون بالنهب والسلب فى حالات مصادرة كبار القواد أو الوزراء مثلما حدث عند مصادرة كاتب الخراج أبى بكر الماذرائى .

الرقيق : كانت مصر فى العصرين الطولونى والإخشيدى سوقًا لشراء الرقيق الأبيض والأسود الذى كان يفد إليها من شرق آسيا وإفريقيا . وقد كان تجار اليهود الرازانية ، الذين كانوا يتولون أمر التجارة بين الشرق والغرب آنذاك ، يجلبون هذا الرقيق إلى أسواق مصر من جوارى وغلمان وعبيد وإماء ، وكان بعض أسياد هؤلاء الأرقاء يقومون بإعتاقهم ويصيرون مواليًا لهم ، وكان بعضهم يتخذ لنفسه زوجات من الجوارى والبعض الآخر يتخذ جنوداً وحرسًا خاصًا له من غلمان هذا الرقيق بعد أن يحسن تربيته ويحسن تعليمه أمور الجندية والقتال . وقد عمل بعض هؤلاء الموالى كتجار نيابة عن أسيادهم فى تجارة أعالى البحار فكانوا يسافرون فى هذه الرحلات الطويلة ويتجرون لأسيادهم ويعودون لهم بالمكاسب الهائلة . كذلك نجح بعض هذا

الرقيق في الوصول إلى قيادة الجيش والمناصب العليا ، بل منهم من وصل إلى الحكم مثل كافور الإخشيدى الذى قيل أنه اشترى من نخاسه بثمان عشرة دينار .

ولقد ذكر بصدد أمر عتق الرقيق أن محمداً بن على الماذرائى قد قام بإعتاق عدد كبير من الأرقاء أو صلته بعض المصادر مبالغة إلى ألف مملوك طيلة حياته . وإن دل هذا الخبر على شئ إنما يدل على قيام الموسرين من الناس فى مصر بإعتاق الأرقاء وإعطائهم حريتهم والإستفادة من قدراتهم وخدماتهم وولائهم لأسيادهم .

جـ - التقسيم الديني :

المسلمون : شهد النصف الأول من القرن الثالث الهجرى انتشاراً واسع المدى للإسلام بمصر ، والدليل على ذلك إنخفاض من قدر الجزية المحصل من أهل الذمة بسبب إسقاطها عنهم بعد دخولهم الإسلام ، كذلك دل على ذلك خفوت ثورات المصريين التى كان يقوم بها أقباط مصر فى عصر الولاة منذ أواخر القرن الأول الهجرى بسبب تناقص أعداد المناهضين للإسلام والثائرين بازدياد دخولهم فى الإسلام . ومن الأسباب التى ساعدت على انتشار الإسلام وسرعة عملية التعريب فى مصر إسقاط الجند العرب من ديوان الجند بعد القرار الذى أصدره الخليفة العباسى المعتصم سنة ٢١٧ هـ ، الأمر الذى حرم العرب من الأموال والرواتب التى كانوا يتقاضونها نظير تفرغهم للقتال وبعدهم عن الإختلاط بالمصريين مما دفعهم إلى الاختلاط والتمازج مع المصريين والتزاوج من بناتهم وإنجابهم لأجيال مصرية عربية مسلمة .

أهل الذمة : عُرفت الأقلية القبطية التى احتفظت بديانتها النصرانية مع الأقلية اليهودية التى كانت تقيم بمصر فى الفسطاط والإسكندرية بأهل الذمة . لأنهم صاروا أمانة فى ذمة المسلمين ، وقد حفظ لهم الإسلام حرية عقيدتهم وعبادتهم وسلامة أماكن عبادتهم من كنائس وأديرة ومعابد مقابل دفع الجزية . والجزية مبلغ قليل من المال فرض على الذمي مثل ضريبة الزكاة التى فرضت على المسلم حتي يشعر الذمى بضرورة مشاركته فى المجتمع الذى ينتمى إليه ويقوم بكفالة حقوقه وحمايته .

ولم تكن الهوة سحيقة بين الأغلبية من المسلمين والأقلية من غيرهم فى المجتمع المصرى فى العهدين الطولونى والإخشيدى ، بل كان التعاون بينهما قائمًا وواضحًا ، فلقد كان النصارى يعملون كأجراء عند أثرياء المسلمين والعكس صحيح ، ويشير ابن الداية فى كتابه المكافأة إلى ثرى نصرانى يستخدم المسلمين فى أرضه ومزارعه ويحسن إليهم ويسافر إلى بغداد لزيارة أصدقائه المسلمين هناك . وتظهر روايات المقريزى احتفال الشعب المصرى بالأعياد المسيحية ومشاركتهم لإخوانهم المسيحيين فى هذه الأعياد مثل عيد الغطاس وأحد الشعانين وخميس العهد وعيد السعف ويوم الخروج وعيد النيروز القبطى . وكانت الدولة تشارك فى الاحتفال رسميًا فى هذه الأعياد وتعتبرها أعياداً قومية تعطل المصالح الحكومية فيها .

وكان أهل الذمة فى ذلك الوقت يحسنون قراءة العربية وكتابتها والتحدث بها فى مجالسهم ومعاملاتهم ، وبالتدريج غلبت اللغة العربية والثقافة العربية عليهم فتخلوا عن لغتهم المصرية القديمة ،تناسوها مع مرور الأيام . وقد كتب الذميون وثائقهم كلها التى وردت إلينا وغيرها باللغة العربية حتى عقود الزواج فى داخل الكنيسة المصرية كانت تكتب باللغة العربية . ولم يفقد بعض أفراد هذه الطبقة الامتيازات القديمة التى كانت لهم ، وحافظوا على خبراتهم الفنية والصناعية والإدارية والمالية وبقيت فى يدهم فى العصر الطولونى بعض الوظائف المالية الكبرى فى البلاد ، بل هناك ما يدل على أن بعضهم قد وصل إلى أرقى المناصب الإدارية ومنهم من وصل للخدمة فى بلاط الطولونيين والإخشيديين .

د - حياة المدن : فى القطائع :

بنى الطولونيون مدينة القطائع ، خارج الفسطاط واتخذوها عاصمة لدولتهم المستقلة ، دون العسكر التى كان قد بناها ولاة العباسيين سنة ١٣٣ هـ فى موقع الحمراء القصوى القديم واتخذوها عاصمة لهم . وبمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحت مدينة كبيرة ، وظل أمراء مصر يقيمون فى دار الإمارة فى العسكر حتى أنشأ أحمد ابن طولون القطائع سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م وأقام فى وسطها مسجداً جامعًا يعد من أكبر مساجد العالم لإسلامى وأروعها . وقد تأثر ابن طولون عند تأسيسه لعاصمته الجديدة بتخطيط مدينة سامرا التى نشأ فيها قبل مجيئه إلى مصر ، فقد كانت كل منهما مقسمة إلى خطط أو قطائع (حارات) تضم كل قطيعة منها جماعة من السكان تربط بينهم رابطة الجنس أو العمل ، ومن ثم أصبح اسم القطائع علمًا على مدينة ابن طولون .

وكان للإستقلال السياسى الذى حصل عليه ابن طولون أثره الواضح فى انتعاش اقتصاديات البلاد وتطورها الإجتماعى وازدهارها الفنى . وبدأت مظاهر الترف والرفاهية وآثار الرخاء تتجسم فى عصر خمارويه الذى بالغ فى منشآته المعمارية وأسرف فى الصرف عليها ، كما أسرف فى الصرف على جهاز ابنته قطر الندى عند زفافها على الخليفة العباسى المعتضد .

ولقد أنشأ ابن طولون ومن بعده خمارويه المستشفيات والبساتين داخل القطائع وأقام بها عمائر عراقية الأسلوب والطابع . وتوفرت فى المدينة الخدمات لساكنيها « فعمرت عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران » . ولقد عمرت القطائع فى عهد الطولونيين وازداد عدد سكانها حتى قيل أنه كان بها ما يزيد على مائة ألف دار سوى البساتين والحدائق الغناء . وعاش الناس فى رغد من العيش فى عهد الطولونيين وتوافرت لهم المعيشة السهلة مع رخص الأسعار واستتباب الأمن ورعاية الحكام ، وقد خربت القطائع فى الشدة العظمى التى كانت فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى فى الخمسينات من سنة أربعمائة ، وزالت آثارها ولم يبق لها رسم يعرف وكان موضعها من قبة الهواء التى صار مكانها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون وقد كان ذلك طول القطائع أما عرضها فإنه كان من أول الرميلة تحت القلعة حتى حى زين العابدين بمنطقة السيدة زينب حاليًا .

فى الفسطاط : انتعشت الحياة فى الفسطاط إلى جانب القطائع فى عهد الطولونيين والإخشيديين وساد الرخاء المدينة ورخصت الأسعار حتى أن رطل اللحم كان يباع فيها بأربعة أفلس والقمح كل خمسة أرادب بدينار وكان بها من المساجد سنة ٣٣٦ هـ ، كما يقول القضاعى : « من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد وثمانية آلاف شارع مسلوك وألف ومائة وسبعون حمامًا ، وأن حمام جناده فى القرافة ما كان يتوصل إليها إلا بعد عناء من الزحام وإن قبالتها فى كل يوم جمعة خمسمائة درهم » . وقال ابن سعيد الأندلسى فى كتاب حلى المغرب : « وفى الفسطاط دار تعرف بدار

عبد العزيز يصب فيها لمن بها فى كل يوم أربعمائة راوية ماء وحسبك من دار واحدة يحتاج أهلها فى كل يوم إلى مثل هذا القدر من الماء » . ولقد أورد المقريزى رواية قرر فى آخرها : « وفور غنى الناس بمصر وعظم أمرهم وكثرة سعاداتهم ، وذكر أن مساكن أهل الفسطاط كانت آنذاك خمس طبقات وستًا وسبعًا وأنه ربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس ، وكان فيه دار عبد العزيز بن مروان يصب لمن فيها فى كل يوم أربعمائة راوية ماء وكان فيها خمسة مساجد وحماما وعدة أفران يخبز فيها عجين أهلها ، وكان بخارج الفسطاط مزارع واسعة تعرف بجنان بنى سنان البصرى ، ولم يرى أبدع منها ، وقد قيل أنه لما قدم الخليفة العباسى المأمون مصر سنة ٢١٧ هـ رأى جنان بنى سنان هذه فأعجب بها ، فسأل إبراهيم بن سنان كم عليه من الخراج لجنانه فذكر أنه يحمل إلى الديوان فى كل سنة عشرين ألف دينار ، فقال له المأمون : وكم ترد عليك هذه الجنان ؟ فقال : لا أستطيع حصره إلا أن ما زاد على مائة ألف دينار أتصدق به ولو درهمًا واحداً .

٢ - الحياة الإقتصادية :

فى ظل استقلال مصر فى العصرين الطولونى والإخشيدى نهض إقتصاد مصر وعاشت البلاد فى رخاء ورخص للأسعار وارتفاع لمستوى المعيشة وزيادة فى الإنتاج بسبب السياسة الإقتصادية الحكيمة التى أنتهجها حكام دولتى بنى طولون والإخشيد . وقد تجلت هذه السياسة فيما اتخذه حكام هاتين الدولتين بصدد موارد الإقتصاد الهامة وهى الزراعة والصناعة والتجارة .

ففى مجال الزراعة اهتم ابن طولون بأمرها لأن مصر أساسًا بلداً زراعية والزراعة فيها تشكل المصدر الرئيسى لدخلها القومى على مر العصور . وأول ما فعله ابن طولون هو قصر خراج مصر عليها ومنع إرساله لدولة الخلافة تأكيداً للسياسة الإستقلالية التى انتهجها فى حكم البلاد وصرف أموال هذا الخراج على احتياجات

الدولة مما يتصل بالنهوض بالزراعة ذاتها والنهوض بسائر مرافق الحياة . وكان لابد له من ضبط تحصيل هذا الخراج المفروض على الأرض وجعل على تحصيله موظفين عرفوا بالعدالة والأمانة والكفاءة مع وضعهم باستمرار تحت المراقبة لضمان عدم تلاعبهم فى أموال الخراج وعدم عسفهم على المزارعين ، وقد أدى ذلك إلى حماية الفلاحين وتشجيعهم على العمل فى الأرض وزيادة الإنتاج . كذلك فإن توفير الأمن والأمان للفلاحين ساعد على الاستقرار فى الأرض وعدم تركها خوفًا من الفتن والإضطرابات التى كانت تجبرهم على ذلك وتعطل دولاب العمل فى الزراعة .

ولقد قام الطولونيون ومن بعدهم الإخشيديون بتقديم كافة الخدمات الضرورية للنهوض بالزراعة مثل العناية بالرى وشق الترع والمصارف وإقامة الجسور ومد الفلاحين بالبذور والآلات الزراعية وسائر الدواب اللازمة للاستخدام الزراعى . كذلك إدخال أنواع جديدة من الزروع من خضر وفاكهة وحبوب وبساتين فاكهة وزهور . ولم يتوفر الإنتاج ويشيع الرخاء فى هذين العهدين إلا بسبب الاهتمام بالزراعة الأمر الذى أشارت إليه المصادر . فلقد ذكر المقريزى أن نحو مليون فدان من أصل ٢٨ مليون فدان هى مساحة مصر كلها زرعت ، وكان ذلك أكبر استغلال لزرع مساحة من أرض مصر حتى أن خراج هذه الأرض تضاعف فى عهد بنى طولون ووصل إلى قرابة الأربعة ملايين وربع دينار فى العام ، وهو مبلغ لم تحصله مصر طوال تاريخها ، الأمر الذى ساعد ابن طولون وأسرته من بعده على تنفيذ مشروعاتهم الإصلاحية والإنفاق الزائد فى حياتهم . ونحن لا نجد فى المصادر ذكراً لأى أزمات اقتصادية فى هذين العهدين ، كذلك نقرأ فى خطط المقريزى عن رخص أسعار الغلال حتى أنه بيع عشرة أرادب قمح بدينار واحد فى عهد أحمد بن طولون .

وكان القمح من المحاصيل الرئيسية التى تزرع فى مصر فى العهدين الطولونى والإخشيدى وكانت أسعاره رخيصة ، كذلك زرع القطن والكتان وبخاصة فى مناطق ساحل البحر المتوسط والبحيرات ومدينة دمياط كما ورد فى كثير من الوثائق البردية التى يرجع تاريخ تحريرها إلى هذه الفترة ، كذلك كان يزرع قصب السكر لحاجة الدولة لاستخراج السكر اللازم لاستعمالها . هذا بالإضافة لزراعة أشجار الفواكه المختلفة والزهور والورود .

أما فى مجال الصناعة : فلقد توافرت فى مصر منذ القدم عوامل قيام الصناعة ورقيها من توفر المواد الخام والقوى المحركة والأيدى العاملة ورؤوس الأموال والأسواق الداخلية والخارجية التى تصرف فيها المصنوعات . ولقد كانت هذه الصناعات فى عمومها صناعات حرفية خفيفة وليست صناعات ثقيلة . وكانت صناعة النسيج بمختلف أنواعه أهم هذه الصناعات ، وكانت دور الطراز تقوم بتصنيع نسيج الخاصة ونسيج العامة . ومن المدن التى اشتهرت بصناعة منسوجاتها مدن الفسطاط والإسكندرية وأشمون والفيوم وتنيس وأخميم وأسيوط . ونشطت فى العهدين الطولونى والإخشيدى صناعة الأسلحة والسفن الحربية والتجارية والصناعات الزراعية مثل صناعة السكر وصناعة زيت المصابيح واستخراجه من بذور البنجر واللفت والكتان . كذلك نشطت صناعة استخراج الأصباغ اللازمة لصبغ المنسوجات من أشجار النيلة التى كانت تزرع فى صعيد مصر . وراجت فى ذلك العهد أيضًا بعض الصناعات المعدنية وبخاصة تصنيع الحلى وبعض الصناعات الخزفية ، والجلدية . وشهد العصر الإخشيدى تدهور صناعة قراطيس البردى ، وانتشار استخدام ورق الكاغد الذى كانت تصنعه الصين ويرد إلى مصر من سمرقند .

وفى مجال التجارة ازدهرت التجارة الداخلية فى أسواق مصر فى العصرين الطولونى والإخشيدى ، ولقد استعرض المقريزى هذه الأسواق فى كتاب خططه وذكر أسماءها فى القطائع والفسطاط وذكر ما كانت تحتويه من سلع كثيرة ورواج حركة البيع والشراء فى هذه الأسواق الأمر الذى يدل على نهضة اقتصاد مصر آنذاك .

أما بخصوص التجارة الخارجية فلقد نشطت تجارة مصر الخارجية آنذاك نشاطًا كبيراً بسبب مشاركتها فى التجارة العالمية تجارة المرور بين الشرق والغرب وإتجارها فى حاصلات بلاد الشرق الغالية الثمن والمرتفعة القيمة . ولقد ذكر ابن خرداذبه فى كتابه المسالك والممالك دور مصر التجارى فى التجارة العالمية التى كان يتولى أمر القيام بها آنذاك اليهود الرازانية الذين كانوا يمرون بموانى مصر فى غدوهم ورواحهم ما بين أوربا وبلاد الهند والصين وشرق آسيا . ولقد كانت مصر تحصل مكوسًا على البضائع التى يحملها تجار هذه التجارة ، الأمر الذى جعل الأموال تتدفق بكثرة على خزائن الطولونيين والإخشيديين .

وقد وفدت إلى مصر فى العصر الطولونى عناصر غير مصرية لاستغلال أموالها فى تجارة مصر الداخلية والخارجية ، وكان غالبيتهم من الفرس أو من العراق والشام . وذكرت المصادر أن جالية كبيرة من رجالات الفرس استقرت واستوطنت مصر منذ القرن الثالث الهجرى وأنها ساهمت بنصيب وافر فى حركة التجارة فى البلاد .

٣ - الحياة الثقافية :

شهد العصر العباسى الثانى فى دولة الخلافة حركات سياسية استقلالية عن جسم دولة الخلافة ، وقامت بعض الدويلات المستقلة فى المشرق الإسلامى والمغرب ، وكانت الدولتان الطولونية والإخشيدية فى مصر واحدة من هذه الدويلات المستقلة . ولم يكن استقلال هذه الدول استقلالاً سياسياً فحسب بل كان أيضاً استقلالاً ثقافياً وحضارياً . فبرغم أن هذه الحركات الاستقلالية السياسية قد انتقصت من حجم دولة الخلافة وجعلها تتقلص وتصل فى بعض الأحيان مقتصرة على بغداد ونواحيها ، إلا أن الوحدة الحضارية للعالم الإسلامى ظلت كما هى بل ازدادت ازدهاراً وتألقاً بسبب عدم اقتصار الحضارة الإسلامية آنذاك على منارة إشعاع واحدة فى بغداد بل صارت هنالك منارات عديدة فى المشرق والمغرب . وقد ساعد على هذا الازدهار الحضارى أن حكام هذه الدول المستقلة كانوا متحضرين وكانوا شغوفين بالعلم والعلماء وكانوا حريصين على أن تساهم بلادهم التى حكموها بنصيب وافر فى هذه الحضارة . وقد كان لحكام مصر الطولونيين والإخشيديين دور كبير فى ازدهار حضارة مصر أيام حكمهم وتطور وتنوع ثقافتها ، وكان لهم إسهامهم فى مسيرة الحضارة الإسلامية العام وتقدمها ، وذلك بسبب موقع مصر فى قلب العالم الإسلامى وأخذ مصر بدور قيادى فى هذه الحضارة على مر عصور الدولة الإسلامية .

ولقد شهدت البلاد نهضة ثقافية عامة فى مجال العلوم والفنون والآداب وقد كان القرنان الثالث والرابع الهجرى قرون بداية ازدهار الحضارة الإسلامية فى الأمصار الإسلامية بسبب اتساع سياسة التعريب ، كذلك بسبب تشجيع عملية النقل والترجمة من الحضارات الفارسية واليونانية والهندية ، وبسبب أقبال حكام الطولونيين والإخشيديين على الإهتمام بدراسة العلوم الدينية والعربية وتشجيع الشعر والشعراء وانتشار المذاهب الفقهية الأربعة وإنشاء أول ديوان للإنشاء بمصر وظهور الكتاب فيه من أمثال الحسن بن رافع والماذرائيين .

هذا ولم يقتصر اهتمام حكام مصر بالعلوم الدينية والشرعية واللغوية ، لكن شمل هذا الاهتمام سائر العلوم العملية العقلية من طب وفلك ورياضيات وكيمياء وفيزياء ، وكان الفقهاء والعلماء والأدباء يلتقون فى العهدين الطولونى والإخشيدى للمناظرة فى المسائل الفقهية والأدبية بمسجد عمرو بن العاص ومسجد عبد الله ومسجد ابن عمروس وكانت المساجد ملتقى للعلم والفقه ، كذلك كانت الكتاتيب والمدارس التى انتشرت فى بلدان مصر المختلفة بشكل كبير . وقد خصص لها المعلمون الذين كانوا يتقاضون أجورهم من الدولة ويشرفون على العملية التعليمية بالبلاد ، وقد خرَّجت هذه المعاهد العلمية لكثير من العلماء فى مختلف التخصصات .

ومن فقهاء الشافعية الذين ظهروا آنذاك ابن الحداد (ت ٣٤٥ هـ) وابن أبى زرعة الدمشقى (ت ٣٢٧ هـ) ، ومن فقهاء المالكية محمد بن يحيى الأسوانى (ت ٣٤٠ هـ) ومحمد بن القاسم (ت ٣٥٥ هـ) . ومن الأدباء : سيبويه المصرى (ت ٣٥٨ هـ) . ومن علماء النحو أحمد ابن محمد بن ولاد (ت ٣٣٢ هـ) وأبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) . ومن المؤرخين : ابن الداية ، صاحب كتاب سيرة ابن طولون وسيرة أبى الجيش وكتاب المكافأة ، والكندى (ت ٣٥٠ هـ) صاحب كتاب الولاة والقضاة ، وابن زولاق (ت ٣٨٧ هـ) صاحب كتاب تاريخ مصر وكتاب سيرة الإخشيد وسيرة كافور وسيرة الماذرائيين ، وابن يونس صاحب كتاب تاريخ مصر ، وسعيد بن البطريق (ت ٣٢٨ هـ) ، صاحب كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق .

٤ - الآثار والفنون :

من أهم الآثار المعمارية التي خلفها العصر الطولوني جامع أحمد بن طولون الذي بناه سنة ٢٥٩ هـ ، ولا يزال باقياً حتى الآن بمئذنته الحلزونية المميزة .

ويجمع جامع أحمد بن طولون بين البساطة والجمال والامتداد الفسيح إذ تبلغ مساحته مع الزيادة ، أي الفضاء الذي يحيط به من جميع جهاته بمواجهة القبلة ستة فدادين ونصف ، أي ٢٦,٣١٨ متراً مربعاً . وهو من الجوامع المعلقة إذ يصعد إلى أبوابه بدرج دائري الشكل ، وعمد هذا المسجد مبنية من الطوب وتيجانها مزخرفة برسوم نباتية محفورة بأسلوب هندسي هو أسلوب الأرابيسك . وتشبه مئذنة هذ المسجد مئذنة مسجد سامرا بالعراق . وللأسف فقد اندثرت كل المباني المعمارية التي شادها كل من أحمد ابن طولون وابنه خمارويه في القطائع والفسطاط ، وهي المباني التي أشارت إليها المصادر التاريخية وقدمت لنا أوصافاً طيبة لها .

أما العمائر الإخشيدية ، فالمتبقي منها الآن : مشهد آل طباطبا الذي يرجع تاريخه إلى سنة ٣٣٤ هـ ، ويقع على بعد ٥٠٠ متر غربي ضريح الإمام الشافعي . وشواهد القبور التي ترجع إلى العهد الإخشيدي والمحفوظة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة .

وينطبق نفس الشئ على العهد الإخشيدي من اندثار آثاره المعمارية التي ورد ذكرها في المصادر مثل قصر المختار وقصر البستان اللذين شيدهما الإخشيد في جزيرة الروضة سنة ٣٢٥ هـ ، والبستان الكافوري ، والمساجد مثل مسجد ابن عمروس ومسجد عبد الله ، وهنالك بعض قطع النسيج التي نسجت في العصر الإخشيدي وصلت إلينا ولا زالت محفوظة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة حملت أسماء حكام دولة الإخشيديين إلى جانب أسماء خلفاء العباسيين المعاصرين لهم .

ثبت بسلسلة نسب أئمة
الشيعة الإسماعيلية

علي (١)

(٣) الحسين (ت ٦١ هـ) الحسن (٢) (ت ٥٠ هـ)

(٤) علي زين العابدين (ت ٩٤ هـ)

(٥) محمد الباقر (ت ١١٣ هـ)

(٦) جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـ)

(٧) إسماعيل (ت ١٤٥ هـ)

|

محمد .

|

عبد الله الرضا .

|

أحمد التقى .

|

الحسين الوفى .

|

عبيد الله المهدى (ت ٣٢٢ هـ) .

|

القائم بأمر الله .

|

المنصور .

|

المعز لدين الله

خلفاء الفاطميين وسني حكمهم

أ - فى المغرب:

١ - أبو عبيد الله المهدى	٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤ م
٢ - القائم	٣٢٢ - ٣٣٥ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٦ م
٣ - المنصور	٣٣٥ - ٣٤٢ هـ / ٩٤٥ - ٩٥٣ م

ب - فى المغرب ومصر:

٤ - المعز	٣٤١ - ٣٦٢ هـ / ٩٥٣ - ٩٧٣ م

جـ - فى مصر:

المعز	٣٦٢ - ٣٦٥ هـ / ٩٧٣ - ٩٧٦ م
٥ - العزيز	٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٦ - ٩٩٦ م
٦ - الحاكم	٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١ م
٧ - الظاهر	٤١١ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢١ - ١٠٣٦ م
٨ - المستنصر	٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م
٩ - المستعلى	٤٨٧ - ٤٩٥ هـ / ١٠٩٤ - ١١٠١ م
١٠ - الآمر	٤٩٥ - ٥٢٤ هـ / ١١٠١ - ١١٣١ م
١١ - الحافظ	٥٢٤ - ٥٤٤ هـ / ١١٣١ - ١١٤٩ م
١٢ - الظافر	٥٤٤ - ٥٤٩ هـ / ١١٤٩ - ١١٥٤ م
١٣ - الفايز	٥٤٩ - ٥٥٥ هـ / ١١٥٤ - ١١٦٠ م
١٤ - العاضد .	٥٥٥ - ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ - ١١٧١ م

جدول خلفاء الفاطميين فى مصر

٤ - المعـــز .

٥ - العـزيــز .

٦ - الحــاكــم .

٧ - الظــاهــر .

٨ - المنتـصــر .

٩ - المستعــلى   محـمد .

١٠ - الآمـــر .

١١ - الحـافـظ .

١٢ - الظـافـر .

١٣ - الفـائـز .

١٤ - العـاضد .

(٤) الدولة الفاطمية فى مصر

(٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٨ ١١٧١ م)

أولاً : قيام الخلافة الفاطمية فى المغرب والسياسة التى اتبعها الفاطميون لتوطيد نفوذهم فى تلك البلاد حتى منتصف القرن الرابع الهجرى

أ - الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الخلافة الفاطمية

الإسماعيلية هى فرقة من خمس فرق تنتسب إلى الجماعة المعروفة فى التاريخ باسم الشيعة وهى فرق : الكيسانية ، الإمامية الموسوية (الاثنا عشرية) ، والزيدية ، والإسماعيلية ، والغلاة .

وجماعة الشيعة جماعة دينية سياسية بدأت تظهر نواتها كحزب يناصر عليا بن أبى طالب ويتشيع له ، ومن هنا أخذوا اسم الشيعة . ولقد اقتصر أصحاب هذه الفرقة أول الأمر على المطالبة بحق على فى الخلافة بعد أن أحسوا بتجاوز جماعة الإسلام له وغبنه هذا الحق . ثم ما لبث هذا الحزب أن قوى شأنه وصلب عوده وكان له شوط طويل فى الصراع مع حكام الأمويين ومن بعدهم العباسيين ، وكان لهذا الصراع أثره الكبير وبصماته الواضحة فى مجريات الأحوال السياسية فى الدولة الإسلامية لوقت طويل .

وتتمسك جماعة الشيعة بحق على فى الخلافة لا بعد استشهاد الخليفة عثمان ولكن بعد وفاة الرسول (ص) مباشرة ، ولهم فى كتبهم حجج وأسانيد يستندوا عليها فى المطالبة بهذا الحق ، ومن هذه الأسانيد ما ورد فى كتب رجال السنة المخالفين لهم فى المذهب .

ومن الأحاديث التي يتذرعون بها في حق تولى على الخلافة بعد وفاة رسول الله (ص) ما ورد في سنن الترمذي والنسائي قول رسول الله (ص) : « يا أيها الناس إني تركت فيكم ما أن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي » .

كذلك الحديث الذي أورده الترمذي (الحديث رقم ٨٧٤) قوله صلى الله عليه وسلم : « إني تركت فيكم ما إن تمستكم به لن تضلوا بعدي : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما » .

ومنها ما أخرجه الحاكم عن يزيد بن أرقم وأورده الذهبي ، والمعروف بروايته غدير خم ، قال : « لما رجع رسول الله (ص) من حجة الوداع ونزل غدير خم قال : كأني دعيت فأجبت أني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر : كتاب الله تعالى وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : إن الله عز وجل مولاي وأنا مولى كل مؤمن ، ثم أخذ بيد على فقال : من كنت مولاه فهذا وليه اللهم والى من ولاه وعاد من عاداه » .

وتطور أمر هذا الحزب الذي ناصر عليًا بعد أن آلت له الخلافة ووقفوا في الحرب معه ضد معارضيه ، وزاد أمرهم في الكوفة التي اتخذها عليّ حاضرة له وفي البصرة التي انحازت إلى جانبه في الصراع ضد معاوية .

وضعف أمر الشيعة لبعض الوقت بعد استشهاد عليّ ، لكنهم عادوا وحدوا صفوفهم تحت قيادة الحسين بن على حين رفض مبايعة يزيد بن معاوية للخلافة . لكن الحسين استشهد وعدد من أهل بيته في معركة كربلاء في العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، وأدى هذا الحدث الذي كان له الوقع الأليم على قلوب الشيعة إلى تطور التشيع ، فبعد أن كان رأيًا سياسيًا نظريًا وحبًا شخصيًا عاطفيًا تحول ، بعد مقتل الحسين ، إلى عقيدة راسخة في نفوس الشيعة .

ورأى الشيعة ، بعد هذا الحدث الأليم ، أنهم فى حاجة إلى تنظيم أنفسهم ، فاجتمع نفر منهم عند قبر الحسين وتذاكروا دعوتهم له وشعروا بالندم لتخليهم وتخاذلهم عنه ، ورأوا ضرورة الثأر من قتلة الحسين والتصدى لحكام الأمويين الذين كانوا وراء عملية الاستشهاد .

ودخل الشيعة فى معارك مع الأمويين انتهت بهزيمتهم ، كذلك دخلوا مع العباسيين بعد أن تبين لهم إصرارهم على محاربتهم والقضاء عليهم بعزم أكثر من عزم الأمويين ، وفشلت أيضاً محاولاتهم وثوراتهم ضد العباسيين ، كما سبق أن فشلت ضد الأمويين ، لذلك لم يرى الشيعة فائدة من الثورة المعلنة فلجأوا إلى السرية والتخفى حتى تكتمل صفوفهم وتقوى وتتاح لهم الفرصة المناسبة للظهور والوصول إلى الحكم بعد نشر المذهب الشيعى سراً فى الأطراف البعيدة عن مركز الدولة فى بغداد .

ولقد انحصرت زعامة العلويين ، منذ أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى ، فى الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين إبن على ، وهو الإمام السادس عند طائفة الشيعة الإمامية (الاثنا عشر) .

وكانت هذه الطائفة تذهب إلى أن الإمامة تكون وتنحصر فى سلالة الإمام على من فرع ابنه الإمام الحسين ، وأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد أن انتقلت من الإمام الحسن إلى أخيه الإمام الحسين ، وأنها لا تكون إلا فى الأعقاب ، أى فى الفرع الحسينى .

وقد خرج بعض الإمامية عن هذه التعاليم بعد موت الإمام جعفر الصادق فى سنة ١٤٨ هـ ، بسبب الخلاف حول من هو الإمام الحق من بين ولديه موسى الكاظم وإسماعيل . فلقد قال الإثنا عشرية بإمامة موسى الكاظم وهو عندهم الإمام السابع ، بينما قال المعارضون بإمامة إسماعيل ، أكبر أولاد أبيه ، فهو عندهم الإمام السابع ، وكذلك ابنه محمد .

ويروى أن أساس هذا الاختلاف يرجع إلى أن الإمام جعفر الصادق كان قد خلع ابنه الأكبر إسماعيل عن الإمامة وأحل ابنه موسى فى حياته بدلاً منه فلم يعترف المعارضون بهذا الخلع ، ولم يعترفوا بمبايعته لموسى وبايعوا إسماعيل وعرفوا بالإسماعيلية .

ولما توفى إسماعيل سنة ١٤٥ هـ ، فى حياة أبيه ، رأى الإسماعيليون أتباعه أن تنتقل الإمامة بعده إلى محمد بن إسماعيل حفيد جعفر الصادق طبقًا لتعاليمهم التى تقول بأن تظل الإمامة فى الأعقاب ، فهو عندهم ، بدلاً لأبيه ، الإمام السابع .

وانفصلت جماعة الإسماعيلية عن جماعة الإمامية الموسوية (الاثنا عشرية) وأمعن أنصار محمد بن إسماعيل ، بعد أن بايعوه إمامًا ، فى التخفى ونشر الدعوة له سراً أيام الخلفاء العباسيين : المهدى والهادى والرشيد ، وهذه الدعوة هى التى نبتت منها الخلافة الفاطمية .

ويرجع السبب فى اختفاء الأئمة الإسماعيليين الذين تولوا الإمامة بعد محمد بن إسماعيل وتسترهم إلى ما ذهب إليه فقهاؤهم من أنه من حق الإمام أن يستتر طالما لم يكن لديه قوة يدافع بها أعداءه حتى يحفظ نفسه من الأسر أو القتل . ولقد خاف محمد بن إسماعيل من بقائه فى المدينة أيام خلافة الرشيد حين ذاعت دعوته هناك ، فارتحل إلى بلاد ما وراء النهر ، معتمداً فى نشر دعوته على داعيته ابن ميمون القداح .

ولما توفى اسماعيل سلك ابنه عبد الله الرضى نفس مسلكه واعتمد على الداعية نفسه ، وارتحل هو وابنه أحمد ، ولى عهده فى الإمامة ، إلى قرية سلمية قرب حمص ، خوفًا من الخليفة المأمون وعيونه ، وأصبحت سلمية دار هجره للأئمة الإسماعيلية والمركز الرئيسى للدعوة فى عهد إمامة أحمد المتقى ومن بعده الإمام الحسين الرضى .

ب - بيعة عبيد الله المهدى بالخلافة :

وفى عهد الحسين الرضى خرج من سلمية عدد كبير من دعاة الإسماعيلية إلى مختلف بلاد العالم الإسلامى آنذاك لنشر الدعوة إلى بلاد اليمن على يد ابن حوشب الذى استطاع أن ينشر الدعوة فيها ويتملك بعد أن أخرج بنى يعفر من صنعاء أهم مدنها .

وكان أئمة الإسماعيلية حريصين على نشر دعواهم فى المناطق النائية البعيدة عن يد الخليفة ، لذلك فكر الإمام الحسين فى أن ينشر دعوته فى بلاد المغرب بعد أن نجح انتشارها فى اليمن واليمامة والبحرين على يد ابن حوشب .

ولقد أرسل الإمام الحسين داعيته أبا عبد الله الشيعى إلى المغرب لنشر الدعوة هناك بعد سفره إلى اليمن وتزود بأصول نشر الدعوة من ابن حوشب ، وكان ابن حوشب قد أرسل داعيتين من قبله ألا وهما : أبا سفيان والحلوانى . وعند وفاة هذين الداعيين ، تحرك أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٨٠ هـ .. متوجهًا إلى المغرب بعد أن حرث الأرض فيها أبو سفيان والحلوانى للدعوة .

وصل أبو عبد الله الشيعى إلى المغرب بعد أن تعرف فى مكة على حجاج من كتامة مصاحبًا لهم . وكان أهل المغرب يحبون آل البيت ، وهذا يفسر نجاح الأدارسة فى إقامة دولتهم هناك سنة ١٧٢ هـ . ولقت دعوة أبى عبد الله الشيعى قبولاً عند سكان المغرب وانتشرت فيها ، كذلك انتشرت فى بلاد إفريقية (تونس) بعد أن نجح أبو عبد الله فى إزالة سلطان الأغالبة عنها .

ولما استقرت الأمور لأبى عبد الله الشيعى فى المغرب وإفريقية أرسل إلى الإمام عبيد الله المهدى بن الإمام الحسين ، وهو بسلمية ، وفداً من رجال كتامة يدعونه إلى ترك سلمية والقدوم إلى المغرب التى اعتنقت الدعوة .

ونجح أبو عبيد الله المهدى فى الوصول إلى بلاد المغرب سنة ٢٩٧ هـ رغم الصعاب التى واجهته فى طريقه إلى هذه البلاد ، ورغم عيون رجال الخليفة « المكتفى » العباسى التى كانت تتربص له فى كل مكان من سلمية إلى سجلماسة ، ثم رقادة ، ونزل بقصر من قصور رقادة التى اتخذها حاضرة لدولته الجديدة ، وتلقب بلقب المهدى أمير المؤمنين . ومن رقادة أعلن قيام الخلافة الفاطمية لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الحكم الشيعى المناوئ لخلفاء العباسيين السنيين .

جـ - سياسة الفاطميين فى توطيد سلطانهم بالمغرب :

تخلص عبيد الله المهدى من داعيته الكبير أبى عبد الله الشيعى ، خوفا منه ، بسبب ازدياد نفوذه وحب الكتاميين له وعلو مكانته بين أهل المغرب ، وهذا أمر يؤخذ على الإمام الشيعى كما أخذ على الخليفة المنصور العباسى قتل داعيته أبى مسلم الخراسانى .

ولقد أدى حادث قتل الداعية الكبير إلى ثورة الكتاميين ضد الإمام ، الأمر الذى دفع الإمام إلى استخدام القوة وتسيير قواته بقيادة ابنه وولى عهده فى الخلافة من بعده أبى القاسم . ونجح أبو القاسم فى هزيمة الكتاميين وإخماد ثورتهم . كذلك تقدمت القوات الفاطمية إلى فاس للقضاء على بقايا الأدارسة هناك وإزالة نفوذهم .

وابتنى المهدى حاضرة جديدة له فى بلاد المغرب ، أسماها المهدية على مكان يقع على بعد ستين ميلاً جنوبى القيروان ، لتكون مقراًللدعوة الإسماعيلية ، واكتمل بناؤها سنة ٣٠٨ هـ ، وانتقل إليها فى نفس العام .

وعند وفاة المهدى سنة ٣٢٢ هـ خلفه فى الحكم إبنه أبو القاسم الذى تلقب بلقب الخليفة « القائم بأمر الله » ، ولقد قامت فى بداية عهده عدة ثورات فى طرابلس وفى المغرب الأوسط على يد رجال زناتة الناقمين على الفاطميين بسبب تفضيلهم قبيلة كتامة عليهم وإيثارهم بالمكانة والثروة ، كذلك ثار ضدهم الخوارج من البربر بزعامة ابن كيداد بهدف التخلص من حكم الفاطميين .

ونجح الخليفة المنصور الفاطمى (إسماعيل بن أبى القاسم ، فى هزيمة قوات ابن كيداد وقتله سنة ٣٣٦ هـ ، وقام بتعقب الزناتيين فى إفريقية (المغرب الأوسط) . وابتنى المنصور حاضرة جديدة له ، على مقربة من القيروان أسماها المنصورية نسبة إليه ، وقام بعمران هذه المدينة التى ظلت عاصمة للفاطميين حتى ارتحال المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ وبناء القاهرة التى صارت عاصمتهم حتى نهاية دولتهم .

وتولى المعز لدين الله الخلافة بعد موت أبيه سنة ٣٤١ هـ ، وحاول تثبيت حكم الفاطميين فى المغرب مستنداً إلى مهارة قائده العظيم جوهر الصقلى ، ونجح المعز فى القضاء على نفوذ الزناتيين فى تاهرت ، وعلى نفوذ بنى واسل فى سلجماسة وإخضاع معظم بلاد المغرب للفاطميين ، حتى شواطئ الأطلنطى .

ثانيا : انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر

أ - الأحوال الداخلية فى مصر قبل الفتح الفاطمى :

كان فتح مصر أمل الخليفة المعز ، ذلك لأن طموحاته وإمكانياته كحاكم عظيم لم تكن تكتف بحكم بلاد كبلاد المغرب فحسب ، بل كانت تخول له حكم الشرق والغرب جميعًا ، وكانت مصر بثروتها وتجارتها وموانيها العظيمة وكثافة شعبها هى حلمه الكبير . لذلك أعد نفسه لفتح مصر ، واستنفذ عامين فى حفر الآبار وبناء محطات الراحة على طريق الإسكندريه لتحقيق حلمه ، ولقد استقرت له الأمور فى المغرب ولم يكن يمنعه عن فتح مصر شئ ، وخاصة أنها فى ذلك الوقت كانت تتعرض لخطر غزو القرامطة وكانت نفسها فى فوضى واضطراب فلقد مات حاكمها « كافور » الإخشيدى ، وحل مكانه طفل فى حكم البلاد (أحمد بن على بن الإخشيد) ولقد فرض ابن الفرات الوزير نفسه وصيًا على الشعب وقام بالضغط عليه واستنفاد موارد البلاد . وكانت قوات مصر فى حالة ثورة وهياج وقاموا بنهب قصر الوزير وراسل قوادهم المعز لفتح البلاد وحاول الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد قادمًا من الشام أن ينقذ البلاد من خطر القرامطة ، إلا أنه لم يتولى أمرها سوى ثلاثة أشهر علد بعدها مضطرا إلى الشام بعد أن هُزمت قواته من القرامطة .

ولقد انتشرت آنذاك المجاعات فى مصر بسبب نقص النيل ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م ، ولقد توفى بسببها آنذاك ما يزيد عن ٦٠٠ ألف نسمة من سكانها حول الفسطاط ، وبدأ السكان المطحونون يهربون من أراضيهم إلى غيرها بحثا عن الطعام .

وكان المعز على علم تام بكل هذه الأحوال السيئة التى كانت تعيشها مصر الإخشيدية آنذاك ، أخبره بها الوزير اليهودى يعقوب بن كلس الذى كان مقربًا من كافور وقام بطرده من مصر الوزير المعادى له جعفر بن الفرات . وكان ابن كلس على دراية تامة بأحوال مصر الإقتصادية والمالية بسبب خبرته العالية فى هذه الأمور .

ولقد قوى تقرير ابن كلس عزم الخليفة على الفتح ، فلقد أمن نفسه ضد القبائل البربرية فى المغرب ، وجمع قدرا كبيرا من الذهب ، لأجل حملة الفتح قدر بأربعة وعشرين مليون دينار ، جمعه من بلاد صحراء مالى وموريتانيا ، وفقًا لتقرير المقريزى ، وأنفقه عليها . وأرسل جيشًا يزيد عن المائة ألف رجل تحت قيادة قائده المخلص الشجاع جوهر الصقلى ، مزودا بآلاف من الجمال والخيول التى حملت الزاد والمال .

وخرج جوهر من القيروان يوم السبت ١٤ ربيع الأول ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م (فبراير) ، وقام الخليفة المعز بنفسه بتوديع الجيش الغازى ، وسار جوهر بجيشه حتى وصل برقة (ليبيا) فقدم له صاحبها فروض الطاعة والولاء ، ومضى بعد ذلك فى سيره إلى الإسكندرية فدخلها دون مقاومة .

وفى طريقه من الإسكندرية إلى الفسطاط التقى جوهر بوفد من أعيان البلاد وعلى رأسهم الوزير جعفر بن الفرات يطلبون السلام من جوهر على أن يتسلم البلاد ويكتب لأهلها كتاب الأمان . فكتب لهم جوهر كتابا أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وضياعهم والالتزام بعدم تغيير مذهبهم السنى إلى المذهب الشيعى . وبذلك انتهى حكم الإخشيديين لمصر وبدأ حكم الفاطميين فيها الذى استقلت فيه مصر استقلالا تاما عن التبعية لخلافة بغداد السنية .

ب - الحملات الفاطمية على مصر ، وفتح مصر فى عهد المعز :

لم يكن فتح مصر على يد القائد جوهر الصقلى بتكليف من الخليفة المعز أول محاولات الفاطميين لغزو مصر ، بل كانت هى آخر المحاولات التى بدأت منذ أن أقام الفاطميون دولتهم فى المغرب . ذلك لأن الفاطميين كانوا حكاما طموحين وكانوا على يقين من أن بلاد المغرب الضعيفة الموارد ، الكثيرة الاضطراب لا تصلح لتكون قلبا لدولتهم . ولذلك اتجهت أنظارهم إلى مصر الدولة الغنية بميزاتها وسكانها والمتصدرة بموقعها الفريد المميز قلب العالم آنذاك ، والخليقة بإقامة خلافة فيها تنافس خلافة بغداد .

وجاءت أول محاولات الغزو من قبل الفاطميين لمصر فى عهد حكم عبيد الله المهدى ، الذى وضع الخطط لغزو مصر سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م وأرسل جيشًا إليها بقيادة ابنه أبى القاسم . وقد نجح هذا الجيش فى الوصول إلى الإسكندرية والاستيلاء عليها ، إلا أن هذه الحملة باءت بالفشل بسبب هزيمة قوات الفاطميين على يد مؤنس الخادم ، قائد الخليفة العباسى المقتدر بالقرب من الجيزة .

وعاود عبيد الله المهدى مهاجمة مصر سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م حين أرسل ابنه أبا القاسم على رأس جيش لفتح مصر فى أواخر هذا العام ، فوصل إلى ما وصل إليه جيشه فى الحملة الأولى ، ولقى الهزيمة كذلك على يد مؤنس الخادم الذى استولى على سفنهم وأحرقها . ولم ييأس المهدى فى محاولاته لفتح مصر وأرسل جيشه ، سنة ٣٢٢ لثالث مرة ، لفتحها تحت قيادة أحد قواده (حبشى المغربى) ، ونجح محمد بن طغج الإخشيد فى هزيمة قوات الفاطميين وإجبارها على العودة منهزمة إلى المغرب .

ولما توفى الخليفة عبيد الله المهدى (٣٢٢ هـ) ، تابع ابنه أبو القاسم ، الذى تولى الخلافة بعده ، سياسة أبيه فى غزو مصر فأرسل إليها جيوشه (فى أواخر سنة ٣٢٣ هـ) التى وصلت إلى الإسكندرية لكن الإخشيديين استطاعوا أن يهزموها ويجبروها على العودة للمغرب .

ولم يقم الفاطميون فى عهد المنصور بمحاولة غزو مصر ، لا انصرافًا عن هذه الرغبة ، ولكن بسبب انشغال هذا الخليفة بالعمل على توطيد نفوذ دولته فى بلاد المغرب ، ومحاربة الثائرين ضدها .

وجاءت هذه المحاولة الجادة فى عهد المعز ، خاصة بعد وفاة كافور الإخشيدى واضطراب الأحوال السياسية والإقتصادية فى مصر بعد وفاته . ولقد استفاد المعز من كل أخطاء الحملات الفاطمية السابقة الفاشلة ضد مصر وأعد جيشًا قويًا وحمل مالاً كثيراً توطئة لنقل الخلافة الفاطمية من المغرب إلى مصر وتحقيق الحلم الكبير الذى كان يتوق الخليفة المعز بأن يراه حقيقة أمام عينيه .

جـ - تأسيس مدينة القاهرة وبناء الجامع الأزهر :

لم يتخذ جوهر الفسطاط ولا العسكر عاصمة للدولة الجديدة ، وشرع فى إنشاء مدينة جديدة تكون حاضرة للحكم الجديد ومركزاً لنشر دعوتها الدينية فى العالم . وفى ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ بدأ العمل فى بناء العاصمة الجديدة وقصرا للخليفة (هو القصر الشرقى الكبير) ، شرقى الفسطاط فى الطريق إلى عين شمس ، وعلى بعد مسافة ميل من نهر النيل . وسمى جوهر هذه المدينة باسم المنصورية ، لكن المعز ، حين قدم إلى مصر ، أسماها القاهرة .

يقول المقريزى فى سبب تسميتها بالقاهرة « أن القائد جوهرا لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبدا . فاختاروا طالعا لوضع الأساس وطالعا لحفر السور وجعلوا بدوائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فأتفق أن غرابا وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا ، فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع فمضى ذلك ... ويقال أن المريخ كان فى الطالع ، عند ابتداء وضع الأساس - وهو قاهر الفلك - فسموها القاهرة واقتضى نظرهم أنها لا تزال تحت القهر « وقال ابن سعيد الأندلسى : « وسميت القاهرة لأنها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أمرها » .

ويقال أن جوهرا أختط القاهرة فى يوم السبت ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٣٥٩هـ ، وأن كل قبيلة من القبائل الممثلة لجيشه ، أختطت لها خطة عرفت بها « فزويلة بنت الحارة المعروفة بها ، وأختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية وأختطت الروم حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر » .

ويصف المقريزى فى خططه قاهرة المعز قائلا « أن جوهرا قصد باختطاط القاهرة حيث هى اليوم أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها ، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعساكره ، وأنشأ من داخل السور جامعا وقصرا ، وأعدها معقلا يتحصن به وتنزله عساكره وأحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المدينة . وكانت أبواب القاهرة من الجهات الأربعة : ففى الجهة القبيلة ، والتى تفضى بالسالك منها إلى مدينة نصر ، بابان متجاوران يقال لهما بابا زويلة . وكان فى جهة القاهرة البحرية ،

وهى التى تسلك منها إلى عين شمس ، بابان أحدهما باب النصر والآخر باب الفتوح . وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة ، وهى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل ، بابان أحدهما يعرف الآن بالباب المحروق والآخر يقال له باب البرقية . وكان فى الجهة الغربية من القاهرة ، وهى المطلة على الخليج الكبير ، بابان أحدهما باب سعادة والآخر باب الفرج وباب ثالث يعرف بباب الخوخه .

وكان داخل سور القاهرة يشتمل على قصرين وجامع ، يقال لأحدالقصرين القصر الكبير الشرقى ، وهو منزل سكن الخليفة ومحل حرمه وموضع جلوسه لدخول العساكر واهل الدولة ، وفيه الدواوين وبيت المال وخزا ئن السلاح وغير ذلك ، وهو الذى أسسه القا ئد جوهر وزاد فيه المعز ومن بعده من الخلفاء . والآخر تجاه هذا القصر ، ويعرف بالقصر الغربى ، وكان يشرف على البستان الكافورى ويتحول إليه الخليفة فى أيام النيل للنزهه على الخليج .. وكان يقال لمجموع القصرين القصور الزاهرة ، ويقال للجامع جامع القاهرة والجامع الأزهر .

ولقد شرع جوهر الصقلى فى بناء الجامع الأزهر يوم السبت ٢٤ جمادى الاولى سنه ٣٥٩ هـ / ٩٧٠م واستغرق بناؤه حوالى العامين حيث فرغ من بنائه وصليت فيه اول صلاة للجمعة فى التاسع من رمضان سنه ٣٦١ هـ / ٩٧٢م . ولقد لل هذا الجامع طوال العهد الفاطمى منارا للعلم وجامعة لنشر تعاليم المذهب الفاطمى .

ولقد كتب بدائر القبة التى فى الرواق الأول ، وهى على يمنة ا.حراب والمنبر ، ما نصه بعد البسملة :

« مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الأمام المعز لدين الله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى ، وذلك فى سنة ستين وثلثمائة » .

وكان الخليفة يخطب الجمعة فى الجامع الأزهر ، وأستمر الحال كذلك حتى بُنى الجامع الحاكمى ، الذى بناه الحاكم بأمر الله ، فأنتقلت الخطبة إليه وكان الخليفة يخطب فى الجامع الحاكمى خطبة ، وفى الجامع الأزهر خطبة وفى جامع ابن طولون بعد ذلك خطبة رفى جامع مصر (جامع عمرو) خطبة . ولم تنقطع الخطبة من الجامع الأزهر طوال عهد الفاطميين وكان انقطاعها منه على عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لمدة مائة عام ، إلى أن أعيدت الخطبة فى أيام الملك الظاهر بيبرس .

٥ - أتخاذ مصر مقراً للخلافة الفاطمية :

أظهر جوهر الصقلى ، بعد أن استتب الأمر للفاطميين فى مصر مظاهر السيادة الفاطمية فيها ، ومظاهر التغير المذهبى والتبعية والولاء للمذهب السنى وللخلافة العباسية إلى المذهب الشيعى والخلافة الجديدة . وتمثل هذا التغيير فى الدعوة للخليفة الجديد فى خطبة الجمعة دون خلفاء العباسيين ، وسك العملة الفاطمية الجديدة ونقش اسم الخليفة المعز عليه بدلاً من الخليفة العباسى ، واتخاذ الخضرة شعارا للفاطميين والغاء اتخاذ السواد شعار العباسيين ، لباسا . كذلك الآذان « بحى على خير العمل » بدلاً من الآذان « بحى على الفلاح » جرياً على عادة الشيعة فى آذانهم . كذلك أمر جوهر بنشر تعاليم المذهب الشيعى الأسماعيلى فى الجامع الأزهر ، ولو أنه لم يجبر الناس على تغيير مذهبهم وجعل حرية الخيار مكفولة لهم .

وكتب جوهر إلى المعز يستدعيه للحضور إلى مصر لتولى شئونها بعد أن تهيأت له ، فارتحل إليها ودخل الأسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢ هـ ، وفى صحبته عدد كبير من أتباعه ورجال دولته وأهله وأقاربه حتى قيل أنه أحضر معه رفات أجداده ليدفن فى القاهرة عاصمة دولته الجديدة . كذلك أحضر المعز معه أحمالا كثيرة من الأموال والتحف النادرة التى أخرجها من قصور آبائه ، فضلاً عن أحمال كبيرة من القمح

والطعام حملتها سفنه لأنقاذ أهل مصر من المجاعة التى تعرضوا لها فى آخر عهد حكم الأخشيديين .

ووصل المعز القاهرة يوم الثلاثاء ٧ رمضان ٣٦٢ هـ / ٩٧٣م ، وفى اليوم التالى لوصوله خرج أشراف مصر وقضاتها وأعيانها ورجال العلم بها للتهنئة بوصوله . وقدمت الهدايا للمعز فى قصره الشرقى من قواده وأعيان مصر .

وأصبحت القاهرة دار خلافة بعد أن كانت دار أمارة وغدت مركزا للأمبراطورية الفاطمية التى حكمت قرابة القرنين من الزمان .

وكان جوهر الصقلى يدير أمور مصر قبل مقدم المعز إليها ، ولكن بعد قدوم الخليفة ، أخذ الخليفة ينتزع منه بعض اختصاصاته شيئًا فشيئًا حتى توارى دوره بعد قليل عن مسرح السياسة المصرية ، وكانت وفاته سنة ٣٨١ هـ فى خلافة العزيز . وكان المعز قد أسند معظم اختصاصات جوهر إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن .

وقد قام المعز ، منذ قدم إلى مصر ، بتثبيت حكم الفاطميين فى مصر ونشر المذهب الشيعى الاسماعيلى بها ، وارسال الدعاة إلى البلاد المختلفة لنشر الدعوة . كذلك قام ببعض الأصلاحات الداخلية فيما يتصل بالزراعة والتجارة . ووضع المعز أسس النظم الفاطمية فى الحكم والأدارة والملبس والأحتفال بالمواسم والأعياد واقامة المواكب الفخمة والولائم الضخمة بقصر الخلافة ، وابراز مظاهر الأبهة والعظمة .

ولقد تعاطف المعز مع أهل الذمة اليهود والنصارى وسمح لهم بتقلد الوظائف العامة حتى وصل بعضهم إلى أعلى الوظائف الحكومية مثل يعقوب بن كلس اليهودى وعيسى بن نسطوروس المسيحى .

ولم يطل حكم المعز فى مصر ، فقد توفى بعد دخوله لها بثلاث سنين سنة ٣٦٥ هـ ، وخلفه بعده ابنه العزيز بالله ، وحكمت فى الدوله الفاطمية سلالة الفاطميين متبعين نظام الوراثة فى الحكم .

عصر خلفاء الفاطميين الأول

العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٦ - ٩٩٦م) :

اتسم القرن الأول الذى حكم فيه الفاطميون بتولى أمر الخلافة عدد من الخلفاء الأقوياء الذين كانوا يجمعون السلطة كلها فى أيديهم ، خلافا عن القرن الثانى من حكمهم الذى تحكم فيه الوزراء فى الخلفاء وكانت للوزراء فيه كل السلطة فعرف بعصر الوزراء العظام .

ويعتبر العزيز بالله (أبو منصور نزار) أول هؤلاء الخلفاء الأقوياء بعد وفاة والده مؤسس الدولة العظيم المعز لدين الله الفاطمى ، وقد تولى العزيز الخلافة فى ١٤ ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٦م وأقام فى الحكم مدة أحدى وعشرين سنة ونصف .

وكان العزيز قد ولد فى مدينة المهدية بالمغرب ، وقدم مع أبيه المعز إلى مصر، وتدرب على أصول الحكم على يديه لكونه ولى عهده من بعده . واتصف العزيز بصفات طيبة أجمع عليها كل من كتب عن خلفاء الفاطميين ، فكان شجاعا كريما ، حسن العفو والمقدرة ، لا يعرف سفك الدماء مع حسن الخلق والقرب من الناس . وكان محبا للصيد واللعب بالرمح والأبهة فى الملبس والمنظر . كذلك أشتهر بحبه للأدب وبالتسامح الدينى مع أهل الذمة ، وكانت أمه نصرانيه وتزوج من نصرانية ، وقلد عيسى بن نسطوروس النصرانى الوزارة ويعقوب بن كلس ومنشا بن إبراهيم اليهوديين الوزارة وأمر بلاد الشام .

والعزيز هو أول من اتخذ من أهل بيته وزيرا أثبت أسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه ، وهو الذى أسس قاعة الذهب (أحد قاعات القصر الشرقى الكبير) حيث يجتمع مجلس الملك . وفى عهده اتسعت رقعة الدولة الفاطمية فصارت تمتد من بلاد العرب شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا . وفتحت له حمص وحماه وشيزر وحلب والموصل وأعمالها وخطب له بمكة واليمن .

وكان خطر القرامطة فى بلاد الشام قد ازداد على عهده ، وكان قد بدأ فى عهد أبيه المعز الذى لم يستطع القضاء عليه نهائيًا قبل وفاته . وفى عهده حاول القرامطة الأتفاق مع القائد أفتكين التركى للأستقلال ببلاد الشام . فأرسل العزيز قائده العجوز - جوهر الصقلى لحربهم بعساكر كثيرة فحاربهم ، لكنه لم يستطع القضاء عليهم فعاد لمصر ، ليعاود الهجوم بقوات جديدة قادها العزيز بنفسه . ونجحت القوات الجديدة فى هزيمة القرامطة وأسر أفتكين وانهاء الخطر القرمطى عن بلاد الشام . وعاد العزيز إلى مصر ومعه أفتكين أسيراً لكنه سرعان ما عفى عنه وأحسن إليه وأكرمه اكراما زائداً ووصله بالخلع والعطايا .

ولقد اهتم العزيز بنشر عقائد المذهب الشيعى ، وفى عهده تحول الجامع الأزهر إلى جامعة تدرس عقائد هذا المذهب وأصوله اضافة للعلوم العقلية . وأصبحت كل الأمور فى عهد العزيز فى يد رجال الشيعة المغاربة من رجال كتامة أنصار الفاطميين .

وتبغ عدد من العلماء فى عصر العزيز ، فى الطب نبغ على بن رضوان الطبيب والفيلسوف والرياضى الكبير ، كذلك نبغ فى التاريخ الكاتب العظيم الحسن بن زولاق الذى تعد كتبه أهم مصادر دولة الفاطميين .

ولقد بنى فى عهد العزيز عدد كبير من المنشآت التى تدل على وفرة ثروة مصر منها : القصر الغربى ، كذلك بنى سنة ٣٨٠ هـ الجامع الحاكمى الذى أتمه ابنه الحاكم بأمر الله فنسب إليه . والعزيز هو أول من عمل مائدة افطار فى قصره فى رمضان يفطر عليها أهل الجامع العتيق وأقام طعاما فى جامع الأزهر لمن يحضر فى رجب وشعبان ورمضان ، كذلك رتب الفطرة فى عيد شوال الذى تصنع فيها الكثير من أصناف الحلوى وتفرق بالايوان . وتوفى العزيز فى ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ بمدينة بلبيس عن عمر يناهز الثالثة والأربعين وحمل ليدفن فى القاهرة بتربة القصر مع آبائه . وكان

العزيز قد خلف من الأولاد ابنه المنصور الذى ولى الخلافة بعده ، وإبنة تدعى « سيدة الملك » .

الحاكم بأمر الله (٣٨٦ / ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١م):

تعد شخصية الحاكم بأمر الله من الشخصيات الغامضة التى اختلف الدارسون والمؤرخون فى تصنيفها تبعا للروايات المتناقضة التى وردت عن شخصه فى المصادر . ومازال الحكم على هذه الشخصية الأسطورية غير قاطع بسبب المعلومات الجديدة التى تكتشف تباعا وتزيد أمر الحاكم عليها غموضا .

ولد الحاكم (أبو على المنصور) فى القاهرة فى ٢٣ ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ ، وتولى الخلافة وله احدى عشرة سنة ونصف من العمر ، فى ليلة ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ ، عقب وفاة والده العزيز فى بلبيس .وأختير له لقب (الحاكم بأمر الله) وخطب له على منابر مصر والشام وافريقية والحجاز .

وكان جواداً ، سخيا ، سفاكًا للدماء ، وكانت سيرته من أعجب السير ، قال المقريزى عنه أنه كان يعتريه جفاف فى دماغه فلذلك كثر تناقضه ، وما أحسن ما قال فيه بعضهم من أن أفعاله كانت « لا تعلل وأحلام وساوسه لا تأول » « كان يحب العزلة ويركب فى الأسواق ويقيم الحسبة بنفسه ، » « .كانت خلافته متضادة بين شجاعة واقدام وجبن واحجام ومحبة للعلم وانتقام من العلماء وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء » .

ويمكن تقسيم مدة حكم الحاكم بأمر الله إلى أربعة أقسام :

الأولى من سنة ٣٨٦ إلى سنة ٣٩٠ هـ ، وكانت الفترة الأولى من خلافته وكان صبيًا صغيراً دون الثانية عشر من العمر ، يحكم دون سلطة ، وكانت السلطة فى يد

رجلين من رجال دولته : الأول ابن عمار (أبو محمد الحسن) الذى تقلد الوساطة فى الدولة دون الوزارة وكانت مقاليد الأمور فى يده لمدة عام (هرب سنة ٣٨٧ هـ) ، والثانى الطواشى برجوان الصقلى الذى قام بالوصاية عليه وكان بيده مقاليد الأمور الفعليه فى الدولة .

والثانية من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٣٩٥ هـ ، بعد أن تخلص الحاكم من وصاية برجوان ، وكانت السلطة فيها كاملة للحاكم ، رغم صغر سنه ، وفى هذه المرحلة أظهر الحاكم تعصبه الشديد للمذهب الفاطمى واضطهاده الكبير لأهل السنة وأهل الذمة من اليهود والنصارى .

والثالثة : من سنة ٣٩٦ إلى سنة ٤٠١ هـ ، وهى فترة تميزت بالاضطراب فى الدولة نتيجة خطرين تعرضت لهما : أحدهما فى الداخل والآخر من الخارج . وجاء الخطر الداخلى متمثلا فى الضائقة الأقتصادية ونقص الموارد الغذائية فى البلاد بسبب انخفاض مياه نهر النيل لمدة ثلاث سنوات (٣٩٨ - ٤٠١ هـ) . أما الخطر الخارجى فكان قد تمثل فى ثورة الثائر الأموى « أبى ركوة » ، تلك الثورة التى أزعجت الحاكم ونجح صاحبها فى هزيمة قوات الخليفة فى برقة وفى مصر ، ولم تبد نفس الحاكم بأمر الله وتطمئن إلا بفشل الثورة والقبض على أبى ركوة ببلاد النوبة وقتله فى القاهرة بعد التشهير به سنة ٣٩٧ هـ .

كذلك تغلبت البلاد على الضائقة الأقتصادية بعد اعتدال فيضان النيل وعودة المياه إلى الكمية المعتادة اللازمة للبلاد . وبسبب تلك الظروف السيئة التى عاشت فيها البلاد فى ذلك الوقت ، خفف الحاكم من تعصبه وأظهر ليونة وتسامحًا ، خوفًا من ازدياد غليان شعب مصر الذى قد يترتب عليه نهاية الخليفة ونهاية الدولة الفاطمية جميعها .

والفترة الرابعة : من سنة ٤٠١ إلى ٤١١ هـ ، وهى فترة اتسمت سياسة الحاكم فيها بالعودة للعنف مع رعاياه وبالتذبذب والأضطراب فى أحكامه وأوامره والتناقض فى أفعاله ، الأمر الذى كان ينذر بقرب نهايته .

ولقد جاءت نهاية الحاكم بأمر الله يوم ٢٨ شوال سنة ٤١١ هـ ، حين اختفى الحاكم ولم يعرف مصيره بعد أن خرج ليلاً كعادته إلى مرصده بالمقطم ثم توجه بعد ذلك إلى حلوان حيث انقطعت أخباره هناك ، وكان الحاكم وقتها قد قارب على السبعة وثلاثين عاماً من العمر .

وتقول بعض الروايات أن أخته « سيدة الملك » دبرت مقتله بسبب اهاناته لها ، وينفى بعض المؤرخين ومنهم المسبحى والمقريزى ذلك ، ويقول المسبحى فى هذا الخصوص : « فى محرم سنة ٤١٥ هـ قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله غيرة لله وللأسلام ، وليس بصحيح ما تحكيه المشارقة فى كتبهم من أن أخته قتلته » .

ومن الأعمال الطيبة التى تذكر للخليفة الحاكم بأمر الله إذا ما وضعنا شخصيته فى ميزان التاريخ نجد بعضها يدخل تحت إطار الإصلاحات الأجتماعية وبعضها الآخر تحت إطار الأنجازات الثقافية والبعض الثالث يعكس غيرته على الشريعة والدين .

ففى إطار الأصلاح الأجتماعى نجد الحاكم يقاوم الفساد الذى أستشرى فى المجتمع المصرى فى أيام والده العزيز الذى لم يكن يتشدد مع الناس ولم يضع حدا لتمادى الشعب فى الأنغماس فى الملذات والشهوات واتخاذ ضروب الملاهى وعدم التقيد بتعاليم الدين . فلقد أزداد فى عهد العزيز اقبال الناس على شرب الخمور ، كذلك ازداد سفور النساء وتبرجهن وخاصة فى أيام الأعياد ، فضلا عن استخفاف البعض بمشاعر الناس وارتكاب ما يخدش الحياء فى الأماكن العامة .

وللحد من انتاج الكميات الكبيرة من الخمور التى كانت تنتج فى مصر آنذاك ، منع بيع العنب إلا أربعة أرطال فما دونها ، ومنع من عصره وطرح ، كما يقول المقريزى ، « وديس في الطرقات وغرق كثير منه فى النيل ومنع من حمله وقطعت كروم الجيزة كلها وسير إلى الجهات بذلك » ، وأراق خمسة آلاف جرة من عسل فى البحر خوفًا من أن تعمل نبيذاً . وحرم تحريما تامًا بيع الفقاع (النبيذ) وهدد بأتخاذ أقصى الحدود مع من يبيعه أو يعصره .

ولمنع النساء من التبرج فى الشوارع والاختلاط بالرجال ، منع النساء من الخروج فى الليل والنهار فى الطريق والأسواق وأغلق حماماتهن ، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف لهن ، فلم يزلن ممنوعات سبع سنين وسبعة أشهر حتى مات . وكان قبل ذلك قد أمر بألا تكشف أمرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج ، ومنع النساء من زيارة القبور فلم ير فى الأعياد بالمقابر امرأة واحدة ، كذلك منعهن من السير خلف الجنازات . ومنع الناس من اظهار الغناء فى الشوارع أو الميادين والأماكن العامة وعلى ضفاف النيل ، وبسبب ما كان يجرى من فجور على صفحة النيل فى الأعياد ، منع الناس من ركوب النيل للتنزه فى الأعياد ومن الركوب فى المراكب فى الخليج ، وأمر بسد أبواب الدور التى على الخليج والطاقات المطلة عليه . وأمر بألا يدخل أحد الحمام ألا بمئزر ، وقام بضرب جماعة بسبب اللعب بالشطرنج .

ومن أنجازاته الثقافية فتحه دار الحكمه التى حمل إليها الكثير من الكتب ودخلها الناس ، وكان يشتغل بها كثير من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين وألحق بها مكتبة كبيرة عرفت بدار العلم حوت الآلاف من الكتب ، وقد قام خلفاء الفاطميين بتزويد هذه الدار بالعديد من الكتب حتى وصل عددها إلى حوالى المليون ونصف المليون كتاب . وكان الخليفة الحاكم قد قصد بإنشاء هذه الدار تقليد الخليفة العباسى هارون الرشيد الذى أسس خزانة الحكمة فى بغداد وأكتملت فى عهد ابنه المأمون.

وبنى الحاكم جامعه الذى ينسب إليه وكان أبوه قد بدأ فى تأسيسه ووافته المنية دون أن يتمه ، كذلك بنى جامع راشدة على النيل ، غير مساجد كثيرة بناها ونقل إليها المصاحف المفضضة والستور الحريرية وقناديل الذهب والفضة .

ومنع الحاكم الناس كافة من مخاطبة أحد أو مكاتبته بسيدنا ومولانا وحدد أن تقتصر مكاتبته على أمير المؤمنين وأباح دم من خالف ذلك . كذلك نهى عن تقبيل الأرض بين يديه والصلاة عليه فى الخطب والمكاتبات ومنع ضرب الطبول والأبواق حول قصره ، ونهى عن أقامة الزينات فى طريقه إلى المصلى وصار يخرج للصلاة فى أبسط المظاهر .

وحرص الحاكم على الأشراف بنفسه على مصالح الدولة ، ولزم هذه الخطة طوال حياته ، مع انزال العقوبات الصارمة على المخالفين ، الأمر الذى فرض هيبته على الناس وجعلهم يلتزمون بأوامره .

وأتخذ الحاكم اجراءات حاسمه لمكافحة الغلاء الذى ألم بالدولة فى الفترة الثالثة من حكمه (٣٩٦ - ٤٠١ هـ) ، فأمر بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته ، كذلك حدد أسعار القمح والمواد الغذائية وجعل عقوبة من يخالف ذلك القتل .

ومن أعماله التى لا نجد لها مبررا أو تفسيراً ، وتؤخذ عليه :

١ - تعرض أقرب الناس إليه من الوزراء والكتاب والقضاة والغلمان لقسوته .

٢ - منع الناس من أكل الملوخية والجرجير والسمك الذى ليس عليه قشر ، وقتل الكلاب وافنائها عن آخرها .

٣ - منع الناس من الدخول من باب القاهرة ومن المشى ملاصق القصر .

٤ - هدم عدد من الكنائس ، وبخاصة كنيسة القيامة (قمامة) ببيت المقدس .

٥ - قتل عدد من العلماء والكتاب وكتابته على أبواب المساجد والجوامع سباب فى أبى بكر وعمر وعثمان والسيدة عائشة وطلحة والزبير ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص سنة ٣٩٥ هـ ، والقيام بمحوه بعد ذلك بعامين .

٦ - أمره للنصارى سنة ٣٩٥ هـ بتعليق صلبان الخشب فى أعناقهم وأن يكون طول الصليب ذراعًا وعرضه مثله وزنته خمسة أرطال وأن يكون مكشوفًا بحيث يراه الناس ، وأمره اليهود أن يحملوا فى أعناقهم قرامى الخشب فى زنة الصلبان وأن يلبسوا العمائم السود وأن يكون ركوبهم البغال والحمير بسروج الخشب والسيور السود غير المحلاة . ومنعهم بألا يستخدموا مسلمًا ولا يشتروا أمة ولا عبداً .

وفى ختام الحديث عن سيرة الحاكم بأمر الله يأتى موضوع ادعائه الألوهية . وفى الحقيقة أنه ليس هناك ما يثبت أن الحاكم ذهب فى تصرفاته الدينية إلى حد الخروج على قواعد الإسلام ، على الرغم من الدعاوى التى نسبها إليه الدعاة بعد اختفائه . وأن مسألة ادعاء الألوهية التى نسبت إليه هى من نسج متطرفى الشيعة الذين عرفوا بالغلاة والذين يؤمنون بالتناسخ ، وهى فرقة تلفظها وتنكرها بقية فرق الشيعة وتنسب إليها الكفر .

ولقد أوردت بعض المصادر الأمر قائلة أن رجلا يعرف بالدرزى (محمد بن اسماعيل البخارى) وهو داعية فارسى قدم إلى مصر فى عهد الحاكم ، وكان هذا الرجل يؤمن بالتناسخ وأنه أجتمع عند الحاكم وزين له ادعاء الربوبية وأن هذا الرجل أخذ ينشر هذه الدعوة سرا بعد أن لقت قبولا عند الحاكم ، ولكنه حين جهر بها سنة ٤٠٨ هـ ثار الناس عليه وطلبوا دمه فهرب إلى الشام . وقام هذا الرجل بنشر دعواه هناك فى الجبال ببعض قرى بانياس وأستمال إلى جانبه كثيراً من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية أو الدروز ، وهم مؤمنون بألوهية الحاكم وينتظرون عودته لأعتقادهم بأنه لم يقتل ولكنه رُفع .

وسرعان ما أعلن الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله ، ابن الخليفة الحاكم ، بعد توليه الخلافة بعد أبيه ، وبعد مضى ثلاثة أعوام على وفاة أبيه ، أعلن براءة والده من دعوى الألوهية ، وأصدر الأوامر المشددة بمطاردة من يدعى ذلك وتوقيع أقسى العقوبات عليه ، وقد جاء ذلك فى رسالة أذاعها الخليفة على المصريين .

الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢١ - ١٠٣٦م) :

ولد الظاهر ونشأ وتوفى بمصر ، وهو الرابع من خلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر . ولد بالقاهرة (١٤ رمضان ٣٩٥ هـ) ، وولى الخلافة بعد اختفاء أبيه الحاكم فى شوال سنة ٤١١ هـ ، وكان يبلغ من العمر قرابة السبعة عشرة عامًا .

وملك الظاهر سائر ممالك والده فى مصر والشام والثغور وأفريقية . وقامت عمته « ست الملك » بتدبير أمر مملكته أحسن قيام والوصاية عليه فى الفترة الأولى من حكمه لمدة أربع سنوات ، وبذلت العطاء للجند وساست الناس أحسن سياسة حتى وفاتها سنة ٤١٥ هـ .

كان الظاهر عاقلا ، سمحا جوادا ، عفيفًا ، يميل إلى الدين وكان حليمًا متواضعًا كثير الصدقات ، لم يدعى دعاوى والده وألغى ما كان والده قد وضعه من قوانين وقرارات شاذة . وعدل فى الرعية وتسامح مع أهل الذمة وأحسن السيرة وأعطى الجند والقواد الأموال واستقام له الأمر مدة .

وكان الظاهر ينظر فى مصالح الرعية بنفسه وفى إصلاح البلاد . وسمح الظاهر للناس بالأستمتاع بحياتهم وأزالة الضائقة التى حصرهم فيها أبوه الحاكم . فأقام الناس الرقص والغناء وشربوا الفقاع (النبيذ) وسمح لهم بأكل الملوخية وجميع الأسماك ومالوا فى عهده إلى اللهو .

وعمل الظاهر على تحسين أحوال الزراعة فى البلاد ، وزيادة إنتاج الأرض . وتغلب فى سنة ٤١٥ هـ على أزمة الغلاء التى أصابت البلاد بسبب قلة مياه النيل وتعرض الناس للمجاعة وتظاهرهم أمام قصره منادين « الجوع .. الجوع » . ونجح الظاهر ، بفضل حكمته وتدبيره ، فى اجتياز هذه المحنة القاسية .

ومن أعمال الظاهر المعمارية : بنائه قصر اللؤلؤة بالقاهرة ، وهو من القصور المعدودة فى العاصمة ، وكان الخليفة يتنزه فيه ومن جاء من بعده من خلفاء مصر . وصار الخلفاء يقيمون فى هذا القصر أيام فيضان النيل كذلك اتخذ خزانة البنود ، لصنع البنود والأعلام وأقام فيها ثلاثة آلاف صانع .

وفى عهد الظاهر وقع بعض الاضطراب فى الشام ، بخروج صالح بن مرداس الكلابى عليه فى حلب واستيلائه عليها ، كذلك تغلب حسان بن المفرج بن الجراح البدوى صاحب الرملة على معظم الشام حتى وصلت جيوشه إلى غزة . فجهز الظاهر لحربها جيشًا جعل قيادته لقائده أبى منصور أنوشتكين الشهير بالدزبرى ، فالتقى معهما فانهزم حسان وقتل صالح وأستولى القائد التركى على الشام ونزل على دمشق ، وكتب للخليفة كتابًا مضمونه النصر ، فدان بذلك الحكم للظاهر فى الشام .

وحاول الروم فى عهده مهاجمة حلب من أنطاكية والإستيلاء عليها ، لكن نائبه شبل الدولة نصر بن صالح الأكبر قاتل الروم وهزمهم ، وسر الظاهر بنصره الذى أوقف الروم عند حدهم .

وتوفى الظاهر بالقاهرة ، وكان مريضًا لفترة طويلة بمرض الأستسقاء ، يوم الأحد النصف من شعبان سنة ٤٢٧ هـ ، وهو يبلغ من العمر أحدى وثلاثون سنة ، وكانت ولايته على مصر ست عشرة سنة وتسعة أشهر .

وتولى الملك بعده أبنه أبو تميم معد ، ولقب بالمستنصر ، وسنه ثمانى سنين ، وقام الوزير على بن أحمد الجرجرائى بالأمر وأخذ البيعة له .

المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٩٤م) :

هو أبو تميم معد ، ولقبه المستنصر ، خلف والده فى الخلافة وله من العمر سبع سنوات سنة ٤٢٧ هـ (منتصف شعبان) . وحكم لمدة ستين عامًا وأربعة شهور حتى وفاته سنة ٤٨٧ هـ ، وكانت مدة حكمه أطول مدة حكم لحاكم فى التاريخ الإسلامى .

لم تتمتع مصر طوال مدة حكمه بالأمن والرخاء غير فترة قصيرة ، وحدثت فيها أحداث سياسية وأقتصادية واجتماعية أدت إلى تدهور أحوال الخلافة الفاطمية فى عهد حكمها الثانى .

وفى بداية حكم المستنصر تحكمت فى أمر البلاد والدته السودانيُة الأصل ، كما تحكمت من قبل أم الخليفة العزيز المسيحية وأخت الخليفة الحاكم بأمر الله « ست الملك » . وكانت أم المستنصر أمة سودانية أشتراها الخليفة من تاجر يهودى من تستر يدعى أبو سعد سهل بن هارون التسترى ، وأستولدها المستنصر . فأحرز التسترى المكانة فى مصر فى عهد وصاية السيدة الوالدة أيام طفولة المستنصر . وحكمت السيدة الوالدة مع التسترى البلاد . وحين قام المستنصر بتعيين وزير له هو أبو منصور صدقة الفلاحى ، لم يتفق هذا الوزير مع أبى سعد التسترى فأستمال أبو منصور القواد والأتراك وزاد فى مخصصاتهم وتآمر معهم فى الخلاص من أبى سعد وقتله . وغضبت الوالدة لقتل أبى سعد فقتلت أبا منصور الفلاحى انتقامًا لأبى سعد ، وشرعت فى شراء عدد كبير من الرقيق السود لتنتصر بهم أمام قوة الأتراك .

وأمسك المستنصر بناصية أمره بعد موت أمه وتقدمه فى السن ، وأستعان بوزراء محنكين فى حكم البلاد مثل الوزير اليازورى الذى عرف بسيد الوزراء .

وأمتد سلطان الفاطميين فى القسم الأول من حكم المستنصر على بلاد الشام وصقلية وشمال افريقية ، ودعى للمستنصر من على منابر مكة والمدينة كما دعا له حاكم اليمن على بن محمد الصليحى من على منابرها سنة ٤٤٢ هـ.

ولأول مرة فى عهد المستنصر ، يدعى لخليفة فاطمى من على منابر بغداد والبصرة وواسط وجميع بلاد العراق دون الخليفة العباسى . فلقد دعى للمستنصر هناك سنة ٤٥١هـ لمدة عام وخطب له بأمرة المؤمنين ، دعا له أبو الحارث البساسرى فى أعقاب نجاح ثورته فى العراق ضد الخليفة العباسى القائم بأمر الله . وكادت الدعوة الفاطمية تقضى على الدعوة العباسية فى هذه البلاد ، معقل العباسيين ، لولا أستعانة الخليفة بالأتراك السلاجقة ودخول قائدهم طغرلبك إلى بغداد وقتله البساسيرى وإيقاف الدعاء للفاطميين بعد أن دعى لهم ببغداد وخطب فى أربعين خطبة .

وفى الفترة الثانية من حكم المستنصر انتقضت عن مصر بعض البلاد التابعة لها ، فانفصلت عنها بلاد شمال أفريقية حين أسس بنوزيرى الصنهاجى دولتهم هناك منذ سنة ٣٦٢ هـ وأتسعت بعد ذلك ، كذلك حين أسس بنو حماد دولتهم فى الجزائر سنة ٣٩٨ هـ وعملوا على توسيع هذه الدولة خلال حكم المستنصر . كذلك خرج عن يدهم حكم جزيرة صقلية حين استولى عليها النورمان بقيادة روجر النورمانى .

وزالت سيادتهم من على الحجاز فى سنة ٤٦٢ هـ حين دعا أمير مُكة وأمير المدينة للخليفة العباسى القائم بأمر الله بعد أن أنقطعت أموال الفاطميين التى كانوا يرسلونها إليهم عنهم .

وبرغم الخلاف السياسى بين الوزراء وتقلص سيادة مصر على البلاد التابعة لها ، إلا أن مصر تمتعت بالأمان والرخاء آنذاك فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى حين زارها الرحالة الفارسى المسلم « ناصرى خسرو » من سنة ٤٣٩ - ٤٤٢ هـ /

١٠٤٦ - ١٠٤٩م ، ووصف هذا الأمن والرخاء وأعطانا صورة مشرفة عن الحياة الأجتماعية فى مصر آنذاك فى كتابه « سفرنامة» أو زاد المسافر » الذى سجل فيه أخبار رحلته إلى الشرق وهو فى طريقه إلى الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج .

غير أن هذا الأمن والرخاء ، الذى سجله ناصرى خسرو ، لم يستمر بسبب الأزمة الاقتصادية والمجاعة الشديدة التى تعرضت لها مصر فى عهد المستنصر ، وعرفت فى التاريخ الإسلامى باسم " الشدة المستنصرية " التى تعتبر أطول وباء عرفته مصر طوال حكمها الإسلامى .

وكان سبب هذه الشدة توقف فيضان نهر النيل مدة سبع سنوات (من سنة ٤٥٧ - ٤٦٤ هـ) متصلة ، الأمر الذى أد« إلى أنعدام الزراعة وخراب البلاد وموت أهل مصر جوعًا وانقطاع النيل براً وبحراً .

وقيل أن فى هذه الشدة بيع رغيف الخبز بخمسين ديناراً ذهبًا ، ويقول المقريزى أن فى هذه الشدة « لم يعد أحد يركب فى مصر إلا الخليفة لفناء الدواب ، وكان خواص الخليفة إذا مشوا يتساقطون من الجوع وآل الأمر إلى أن استعار المستنصر بغلة يركبها من صاحب ديوان الإنشاء ، وكان ذلك سنة ٤٦٠ هـ » .

ويقول أبو المحاسن أنه تبعًا لهذه الشدة أن اتضعت قيمة الأشياء الثمينة حتى أنها صارت لا تساوى شيئًا ، من ذلك روايته :« أن امرأة خرجت من القاهرة فى هذا الغلاء ومعها مد جوهر فقالت : من يأخذ هذا ويعطينى عوضه دقيقًا أو قمحًا ؟ فلم يلتفت إليها أحد ، فألقته فى الطريق وقالت : هذا ما ينفعنى وقت حاجتى فلا حاجة لى به بعد اليوم فلم يلتفت إليه أحد وهو مبدد فى الطريق » .

وبسبب الأضطراب والفوضى التى عمت البلاد ، أرسل الخليفة المستنصر إلى أمير الجيوش بدر الجمالى ، حاكم عكا ، يطلب منه المجئ لانقاذ الخلافة والبلاد .

وكان بدر الجمالى قد أظهر شجاعة فائقة فى حربه ببلاد الشام . وقبل بدر الجمالى طلب المستنصر وجاء إلى مصر بعد أن ركب البحر من عكا ودخل القاهرة فى شتاء ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤م . فقلده الخليفة الوزارة وأعطاه السلطة المطلقة والحرية التامة فى إدارة أمور البلاد ورأب الصدع الذى تعرضت له .

ونجح بد الجمالى ، بفضل حسن تدبيره ، وبفضل ما قام به من إصلاحات سريعة وإخماده ثورات العربان ومحاربته عرب لواته الذين استقلوا بأقليم الشرقية ، ومطاردته اللصوص والمخربين فى الصعيد ، وبفضل عودة مياه النيل إلى طبيعتها الأولى وجريان الفيضان السنوى ، نجح فى إصلاح الحال ووقف المجاعة وإعادة دولاب العمل إلى ما كان عليه قبل الشدة .

وأنفرد بدر الجمالى بالأمر إلى أن توفى فى خلافة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ (فى ربيع الأول) ، وتوفى بعده المستنصر بستة شهور فى نفس العسام بعد أن عاش كالمحجور عليه مع بدر الجمالى ثم من بعده مع ولده الأفضل الذى حل فى الوزارة مكانه .

ولقد توفى المستنصر يوم عيد الفطر سنة ٤٨٧ هـ ، وبايع الناس من بعده ابنه أحمد ، الذى لقب بالمستعلى بالله .

العصر الفاطمى الثانى

(عصر نفوذ الوزراء وزوال الخلافة الفاطمية)

أخذ الضعف يدب فى جسم الدولة الفاطمية فى عصرها الثانى ، وأستأثر الوزراء فيها بالنفوذ والسلطان ، وأصبح الخلفاء مسلوبى السلطة مع الوزراء . وقد حرص هؤلاء الوزراء على اختيار خلفاء صغار ضعاف يستطيعون أن ينفذوا فى ظلهم ما يريدون من سياسة ويكون لهم النفوذ الفعلى فى البلاد ، حتى عرف هذا العصر الثانى من حكم الدولة الفاطمية بعصر نفوذ الوزراء . لقد أدى الصراع بين الوزراء فى أواخر أيام دولة الفاطميين إلى نهاية الدولة وزوال الخلافة الفاطمية بعد حكم تعدى القرنين من الزمان .

والوزراء الذين سطع نجمهم فى دولة الفاطميين فى عصرها الثانى هم : الأفضل إبن بدر الجمالى فى عهد خلافة المستعلى والآمر ، الأكمل بن الأفضل بن بدر الجمالى فى عهد خلافة الآمر والحافظ ، بهرام ورضوان فى عهد الحافظ ، ابن السلار وابن مصال فى عهد الظافر ، طلائع بن رزيق وابنه أبو شجاع العادل فى عهد خلافة الفائز ، شاور وضرغام وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين فى عهد خلافة العاضد .

واتد حل أبو القاسم شاهنشاه فى الوزارة ، محل أبيه بدر الجمالى بعد وفاته سنة ٤٨٧ هـ ، وهو فى سن الثمانين ، لقب « بالأفضل » وتوفى الخليفة المستنصر بعد وفاة بدر الجمالى بستة شهور ، وتولى الأفضل بن بدر الجمالى أمر تعيين من يخلفه فى الحكم .

وقام الأفضل بتعيين أبا القاسم أحمد أصغر أبناء الخليفة وتلقيبه بالخليفة « المستعلى » ، متجاوزا فى ذلك « نزار» ابن الخليفة المستنصر الأكبر وولى عهده

من بعده ، وكان يبلغ من العمر خمسين عامًا . وكان المستنصر ، فى مرضه الأخير ، وقد أراد عقد البيعة لأبنه نزار ، لكن الأفضل ظل يدافعه حتى مات .

وكان الأفضل لا يميل لنزار لتعاليه عليه ، كذلك كان يميل للمستعلى لأنه كان أخًا لأمه ابنة بدر الجمالى ، فأراد بهذا التعيين أن يجمع بيت الجمالى بين الوزارة والخلافة .

ولقد أنكر أتباع نزار من الإسماعيلية هذا التعيين لمخالفته قواعد توارث الخلافة عندهم ، وأدى ذلك إلى ثورتهم ضد الأفضل والمستعلى والتفافهم حول نزار وتلقيب أنفسهم بالنزاريه . ولقد ارتحل نزار إلى الإسكندرية والتف أهلها حوله يبايعونه بالخلافة وانضم إليهم القائد أفتكين التركى ، وإلى الإسكندرية ، ولقبوه « المصطفى لدين الله » .

وحارب الأفضل قوات نزار مرتين ، هزمها فى المرة الثانية وأسر نزار وزج به فى السجن ، ومات فيه . وأستبد الأفضل بالحكم دون المستعلى أضعاف استبداد أبيه بالمستنصر ، وظل المستعلى طوال حياته كالمحجور عليه من الأفضل .

وعند وفاة الخليفة المستعلى فى نهاية سنة ٤٩٥ هـ ، نصب الوزير الأفضل أبا على منصور ، ابن الخليفة المستعلى ، وكان طفلا فى الخامسة من عمره ، خليفة ولقبه « بالآمر بأحكام الله » ، وأشتدت سلطة الأفضل فى عهد خلافة الآمر ، وأصبح هو الحاكم الفعلى للبلاد مدة ثمانية وعشرين عامًا .

وجاءت نهاية الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥١٥ هـ ، وتم قتله على يد أبى عبد الله محمد بن البطائحى ، أحد خواص الوزير ، بتحريض من الخليفة الآمر الذى لم يعد طفلا والذى صمم على القبض على مقاليد الأمور بنفسه بعد أن استوى عوده . وبعد

موت الأفضل صادر الخليفة أملاكه التى تضمنت ٦ مليون دينار ذهب ، ٢٥٠ جوال مملوءة بالدراهم الفضية الخالصة ، و٧٥ ألف ثوبًا من الحرير الغالى الثمن .

وخلف ابن البطائحى الأفضل فى الوزارة وتلقب « بالمأمون » ، وبرغم كفاءته الإدارية والمالية إلا أنه لم يصل إلى مكانة الأفضل ، ولم يسلم من بطش الخليفة الآمر الذى خاف منه أن يتجبر مثل الأفضل ويخضعه لسلطانه . فقبض عليه الخليفة الآمر سنة ٥١٩ هـ ، وصادر أمواله وحبسه مدة ثلاث سنوات قتله بعدها مع خمسة من إخوته . والبطائحى هذا هو الذى بنى فى آخر سنى وزارته « جامع الأقمر » القائم الآن بشارع النحاسين بالجمالية بالقاهرة .

ولقد أغتيل الخليفة الآمر سنة ٥٢٤ هـ ، وهو يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا ، أغتاله غلمان الأفضل ومماليكه ، وقيل النزاريه . ولم ينجب الآمر أولادا ذكوراً . وكان قد ولى الوزارة بعد البطائحى ، أبو على أحمد بن الأفضل الذى وصل إلى الوزارة بإرادة مماليك أبيه الذين تخلصوا من الآمر وثأروا لسيدهم ، ولقبوه بأمير الجيوش . وقام الوزير أحمد ومماليك الأفضل بتعيين أبًا الميمون عبد المجيد ابن عم الآمر ولقبوه بالحافظ .

ولقد استولى الوزير أحمد على الحكم ، ولم يكن للحافظ معه سوى الأسم فى الحكم وصار الأمر كله للوزير ، فضيق على الخليفة وحجر عليه ومنعه من الظهور . وحجزه فى خزانة لا يدخل أحد عليه فيها إلا بأمره . وكان هذا الوزير أمامى المذهب فقاوم المذهب الأسماعيلى الأمر الذى دفع الإسماعيليين إلى التخلص منه بقيادة الأمير « يانس الأرمنى » ، أحد غلمان الوزير ، أثناء لعبه بالكرة (البولو) . وأخرج الأمير

يانس الخليفة الحافظ من سجنه واستعاد المذهب الإسماعيلى مكانته . وأختار الخليفة الحافظ يانسا للوزارة ولقب بأمير الجيوش ، ولكن الحافظ تخلص منه بأن دس له السم بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة .

وحاول الحافظ أن يحكم منفرداً ودون أن يتخذ وزيراً له ، لكن العسكر نصبوا « بهرام الأرمنى » وزيراً وفرضوه على الخليفة ، الذى رضخ لإرادتهم . واستكثر بهرام من جلب الأرمن إلى مصر حتى بلغ عددهم فى زمن قصير ثلاثين ألفًا .

وبعث أمراء الجيوش وقواده إلى « رضوان بن ولخشى » ، وإلى الغربية لينقذهم من تحكم الأرمن ، وكان عسكريًا شجاعًا ، فأجابهم إلى طلبهم وقدم إلى القاهرة مع قواته ، واضطر بهرام إلى الهرب . وتولى رضوان الوزارة للحافظ ، ولقب نفسه بالملك ، وهو أول من لقب من الوزراء بهذا اللقب وسار الوزراء من بعده على هذا التقليد . وحاول الوزير رضوان التآمر ضد الخليفة الحافظ ، لكن الحافظ قبض عليه وسجنه عشر سنوات قتله بعدها . وكان الخليفة الحافظ قد وصل إلى سن الخامسة والسبعين ، ولم يستوزر أحداً بعد اقصاء رضوان عن الوزارة ، وظل يحكم بلا وزير حتى وفاته سنة ٥٤٤ هـ .

وبعد موت الحافظ ، خلفه ابنه الأصغر أبو منصور اسماعيل على العرش ، ولقب بالظافر بأمر الله ، وكان يبلغ من العمر سبع عشرة عامًا وكان هذا الخليفة مغرمًا باللهو والنساء والغناء أكثر من اهتمامه بأمور الجندية والسياسة ، ولذلك كانت أيام خلافته أيام اضطراب وعدم استقرار .

وزير للظافر أمير الجيوش نجم الدين أبو الفتح بن مصال ، الذى أحسن السيرة واستقامت الأمور فى بداية عهد وزارته . لكن والى البحيرة والأسكندرية « ابن السلار الكردى » ثار ضد ابن مصال . فأضطر ابن مصال إلى الهرب ، وحل فى الوزارة مكانه ابن السلار الذى تلقب بالملك العادل .

وكان الوزير ابن السلار شافعى المذهب ، وحاول نشر هذا المذهب واحلاله محل المذهب الأسماعيلى ، الأمر الذى أدى إلى حقد الخليفة ورجاله عليه فقاموا باغتياله سنة ٥٤٨ هـ . وولى الوزارة بعد ابن السلار الوزير عباس سنة ٥٤٩ هـ ، ولقد أغتيل الخليفة الظافر على يد وزيره عباس وابنه نصر ، وحل فى الخلافة بعده ابنه « عيسى » ، وكان فى الخامسة من عمره ، ولقب بالفائز بنصر الله » .

وبسبب مقتل الخليفة الظافر اضطربت الأمور فى البلاد وسادت الفوضى واستعر القتال بين الفرق المتطاحنة ، وساد الفزع القصر الخلافى فأرسل نساء القصر إلى « طلائع بن رزيق » ، وإلى الأشمونيين وقوص والصعيد وكبير الأمراء ، يخبرنه بقتل الظافر ويطلبن منه أن ينقذهن ، فقدم طلائع بن رزيق سنة ٥٥٤ هـ ودخل القاهرة وتولى الوزارة وتلقب « بالملك الصالح » ، وهرب الوزير عباس وابنه . وكان ابن رزيق رجلاً قويًا ، وكانت مصر آنذاك بحاجة لمثل هذا الرجل القوى ، فقضى على الفوضى وأخمد ثورات الجند السودانيين .

وظل ابن رزيق قابضًا على زمام الأمور حتى وفاة الخليفة الفايز وهو صغير سنة ٥٥٥ هـ ، دون وصية لمن يخلفه ، فأقام ابن رزيق بعده أبا محمد عبد الله بن يوسف حفيد الخليفة الحافظ ، ولقب بالخليفة « العاضد » ، وكان يبلغ من العمر وقتها احدى عشرة سنة .

كان العاضد آخر خلفاء دولة الفاطميين ، وشاءت الأقدار أن تكون نهاية الدولة الفاطمية على عهده . وقد قام ابن رزيق بتزويج أبنته للعاضد ليجمع حفيده بين الوزارة والخلافة . وكان ابن رزيق أماميًا وعمل على تخليص مصر من المذهب الأسماعيلى ، الأمر الذى أثار الأسماعيليين . وتآمرت عمة الخليفة الفائز مع جند السودان على قتله .

وقتل طلائع بن رزيق ، فخلفه فى الوزارة ابنه رزيق بن طلائع ، فأقام فى الوزارة سنة وعدة شهور ، وكانت نهايته على يد شاور بن مجير السعدى والى قوص والصعيد ، الذى ولى الوزارة وحجر على الخليفة العاضد . وأستمر شاور فى الوزارة إلى أن خرج عليه « ضرغام بن عامر » ، أحد أمراء بنى رزيق فحارب قوات شاور التى كان يقودها ابنه طئ . ولقد نجح ضرغام فى هزيمة قوات شاور وقتل طئ ، فهرب شاور إلى الشام مستنجداً بأمير الشام نور الدين محمود بن زنكى .

الفاطميون والصليبيون :

فى عهد خلافة المستعلى ووزارة الأفضل بن بدر الجمالى ، فقدت الدولة الفاطمية ممتلكاتها فى الشام التى تقسمت بين السلاجقة والصليبيين . ولقد هدد الخطر الصليبى ممتلكات الفاطميين فى الشام سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦م ، فلقد بدأت الحملة الصليبية الأولى فى هذا الطريق ، واستولت على أنطاكية سنة ٤٩١ هـ بعد حصار دام لها ثمانية شهور .

كذلك استولوا على معرة النعمان ، وعلى الرها . وفى ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م استولوا على بيت المقدس وقتلوا فى المسجد الأقصى من المواطنيين العزل مائة ألف ، وكانت القدس فى يد المسلمين منذ فتحها المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب سنة ١٦ هـ . وفى خلال السنين القليلة التى تلت بعد سقوط بيت المقدس ،

سقطت فى أيديهم طرطوس وعكا وطرابلس وصيدا ، وكوّن الصليبيون لهم فى الشام أربعة ممالك هى : أنطاكية ، والرها وطرابلس ، وبيت المقدس .

وبعد أن نجحت القوات الصليبية هذا النجاح السريع فى الإستيلاء على مدن الشام ، تقدمت لغزو مصر ذاتها ، وهاجم « بلدوين » ، ملك بيت المقدس ، مصر سنة ٥١١ هـ / ١١٧م وأحرق جزءاً من الفرما ووصلت قواته إلى تنيس ، ولم يوقف حملته على مصر إلا مرضه الذى أضطره للعودة إلى بلاده .

ولقد حاول الأفضل بن بدر الجمالى محاربة الصليبيين واسترداد مدن الشام وبيت المقدس من أيديهم دون جدوى . ولقد تم للصليبيين الإستيلاء على معظم بلاد الشام أيام خلافة الآمر ، الذى كان مكروهًا من المصريين ، لتقاعسه عن الجهاد ضد الصليبيين . ولقد أعطى الصراع بين الوزراء على السلطة فى مصر الفرصة للصليبيين لتحقيق أطماعهم فى الشام والتطلع إلى غزو مصر .

ففى الوقت الذى اشتد فيه النزاع على الوزارة بين شاور وضرغام ، كان ملك بيت المقدس الصليبى أماريك (عمورى الأول) يستعد لغزو مصر . وقام عمورى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦١م بغزو مصر فوصل إلى بلبيس وحاصرها ، ولكن قوات ضرغام أرغمته على الأنسحاب فى الوقت الذى كان شاور قد هرب إلى الشام ليستنجد بالأمير نور الدين محمود بن زنكى حاكم دمشق . ووجد نور الدين محمود الفرصة التى كان يترقبها لتحقيق حلمه فى الإستيلاء على مصر وضمها لحكمه وبذلك يكون حاكمًا لمصر والشام .

ونور الدين محمود هذا هو ابن عماد الدين زنكى ، من ملوك الأتراك السلاجقة الذين تصدى أجدادهم للبيزنطيين وتصدوا هم للخطر الصليبى فى بلاد الشام بعد أن حكموا الموصل وحلب ، وبعد أن عجز الفاطميين عن الدفاع عن هذه البلاد وانقاذها

من السيطرة الصليبية . وكان عماد الدين زنكى قد نجح فى الإستيلاء على إمارة الرها من الصليبيين سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤م واتخاذها عاصمة لملكه . وتطلع نور الدين محمود للإستيلاء على مصر لتمتد الجبهة الاسلامية الجديدة المقاومة للخطر الصليبى من النيل إلى الفرات ، بعد أن طمع الصليبيون فى مصر واستهدفوها حين شعروا بضعف الدولة الفاطمية وعدم مقدرة خلفائها ووزرائها على الصمود .

ووجد نور الدين محمود الفرصة التى كان يترقبها لفتح مصر حين لجأ إليه شاور وطلب نجدته ضد غريمه ضرغام . فوافق على الفور على شروط شاور أن يمده بجيش على أن يعيده للوزارة ويكون نائبًا لنور الدين . وقد جهز نور الدين هذا الجيش وجعل قيادته لأحد قواده الشجعان وهو أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب الذى كان فى السابعة والعشرين من عمره . والتقى جيش شيركوه بجيش ضرغام على مقربة من القاهرة وانتهت المعركة بينهما لصالح قوات شيركوه ومقتل ضرغام أثناء محاولته الفرار سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤م . وعاد شاور يتولى الوزارة وأقام شيركوه بجنده خارج مدينة القاهرة وأنتظر تنفيذ شاور لتعهداته للسلطان نور الدين . لكن شاور نكث بعهده وأرسل لشيركوه يطلب منه الجلاء بقواته عن أرض مصر فأمتنع شيركوه ورد على تصرفاته باحتلال بلبيس والشرقية . فما كان من شاور إلا أن استنجد بالملك عمورى ووعده بتقديم مبلغ كبير من المال له إذا هو نجح فى طرد قوات شيركوه من أرض مصر . وما كان من ملك بيت المقدس إلا أن هم بالأسراع إلى مصر حتى لا تفوته مثل هذه الفرصة الذهبية . ووقف الجيشان النورى والصليبى أمام بعضهما البعض عند بلبيس وأنتهى الأمر بينهما بالأتفاق على أن يغادر الطرفان مصر . وكانت مؤامره من الملك عمورى يتثنى له من خلالها انسحاب قوات شيركوه

ومتى تأكد من ذلك أسرع هو بالعودة لحماية شاور واحتلال مصر . ولكن عموري سارع بالعودة إلى بلاده بسبب تهديد قوات نور الدين لمملكته فى الشام .

وقد أرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يشكو إليه استبداد شاور وتعسفه فما كان من نور الدين إلا أن أمر شيركوه بالتوجه ثانية إلى مصر على رأس حملة كبرى بصحبة صلاح الدين . ووصلت هذه الحملة إلى مصر سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧م وأستقرت قوات شيركوه خارج مدينة الفسطاط .

وتبعًا لمجئ هذه القوات النورية استنجد شاور بالملك الصليبى عمورى الذى سارع للمرة الثالثة بالمجئ بقواته إلى مصر . ووقعت بين الفريقين النورى والصليبى معركة حاسمة هى معركة البابين عند بلدة المنيا بصعيد مصر وانتهت بانتصار جيش شيركوه . وعلى أثر الهزيمة ارتحلت القوات الصليبية إلى مدينة الأسكندرية وقامت بحصار صلاح الدين الذى كان نائبًا عن عمه بها . ولما أشتد الحصار على صلاح الدين سار شيركوه بقواته إليه لفك هذا الحصار . وأنتهى الأمر بين الطرفين بالصلح على أن يترك الطرفان مصر وعلى أن يتبادلا الأسرى بينهما .

جهز عمورى حملة أخرى هاجمت مصر سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩م واستولى على بلبيس واتجه منها صوب القاهرة . ولمس شاور حرج موقفه فقام بإحراق الفسطاط مستعملا فى الحريق عشرين ألف زجاجة نفط وعشرة آلاف مشعل نار وأستمر الحريق بها أربعة وخمسين يومًا ابتداء من التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩م .

وأستنجد الخليفة الفاطمى العاضد بنور الدين وأرسل إليه ملابس نسائه استغاثة لحماية شرف الخليفة من دنس الصليبيين فما كان من نور الدين إلا أن كلف شيركوه وصلاح الدين بالقيام بحملة ثالثة على مصر وطلب منهما أن تكون حملة فاصلة

تقضى على دابر شاوروعلى دابر الصليبيين . فوصلت الحملة إلى مصر ، ولما رأى عمورى كثرة أعداد جيش شيركوه آثر العودة إلى بلاده . ودخل شيركوه القاهرة وأستقبلهم الناس والخليفة الفاطمى استقبال الفاتحين . واستدعى الخليفة الفاطمى شيركوه وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه « بالمنصور » .

وأرسل شاور للصليبيين مرة أخرى يطلب منهم مساعدته عن طريق دمياط ودبر مؤامرة أستهدف منها اغتيال شيركوه ورجاله . ولما انكشف أمره اجتمع رأى أعيان مصر لدى شيركوه أن يقتل شاور لأنه رأس كل المصائب والنكبات التى حلت بالبلاد . فقام شيركوه بقتل شاور هو وابنه الكامل سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩م .

توفى شيركوه بعد خمسين يومًا من توليه الوزارة فخلفه فيها ابن أخيه صلاح الدين الذى لقب بلقب الملك الناصر .

الغاء الخلافة الفاطمية ونهاية دولتها (٥٦٧ هـ - ١١٧١ م) :

أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بالغاء الخلافة الفاطمية واعلان الخلافة العباسية فى مصر ، وأرسل ثانية يلزمه بذلك الزامًا سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م وأتفق مرض الخليفة العاضد وقتذاك فاستشار صلاح الدين الأمراء فى قطع الخطبة له ، فوافقه البعض وتردد الآخرون . وكان بمصر آنذاك رجل أعجمى أسمه « الخبوشانى » أعلن استعداده على القيام بهذا العمل والدعاء للخليفة العباسى . فألقى بالفسطاط أول خطبة بأسم الخليفة العباسى « المستضئ بنور الله » فى أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر ١١٧١) وتم هذا الأمر الخطير دون أن يحتج أحد ودون أن تتحقق المخاطر الذى كان يتوقعا صلاح الدين من القيام بعمل كهذا من شأنه أن يلغى خلافة حكمت بلادا مدة ما يزيد عن القرنين من الزمان . وكان العاضد قد أشتد به المرض فلم يدر شئ عما حدث ومات بعد هذا الاعلان بثلاثة أيام .

وكان عمر العاضد عند وفاته ثلاث وعشرون سنة ، فكانت خلافته أحدى عشر سنة .

وأختلف المؤرخون فى سبب وفاة العاضد ، فقال أحدهم : أن العاضد تفكر فى أموره فرآها فى أدبار فأصابه ذرب عظم (اسهال) فمات منه . والثانى أنه لما خطب لبنى العباس بلغه فأغتم ومات ، وقيل أن أهله أخفوا عنه ذلك وقالوا : ان سلم فهو يعلم وإن مات فلا ينبغى أن ننغص عليه هذه الأيام التى بقيت من عمره . والثالث : أنه لما أيقن بزوال دولته كان فى يده خاتم له فص مسموم فمصه فمات منه .

وجلس صلاح الدين فى عزائه ومشى فى جنازته ودفنه عند أهله . وبعد أيام من موته استولى صلاح الدين على ما فى القصر من الأموال والذخائر والتحف والجواهر والخدم والخيل والمتاع وغيره .

وأنقضت أيام خلفاء الفاطميين وكان العاضد آخرهم ، بعد أن حكموا مائتين وثمانى سنين ، وعادت مصر إلى تبعية المذهب السنى والولاء لخليفة بغداد العباسى .

أهم انجازات الدولة الفاطمية فى مصر

١ - فى المجال الاقتصادى :

أدى رواج التجارة عامة وتجارة المرور العالمية عبر البحرين المتوسط والأحمر ، فضلا عن ازدهار الصناعة إلى رخاء مصر الأقتصادى فى العصر الفاطمى الأول . وأنعكست آثار هذا الرخاء على جميع مظاهر الحياة فى عهد هذه الدولة الأول . وبرغم تدهور أحوال البلاد فى عهدها الثانى ، إلا أن اقتصاد مصر ظل متينًا بسبب استمرار نشاطها التجارى فى البحر الأحمر .

ولقد أورد المؤرخون أن الفاطميين جاءوا إلى مصر ومعهم كميات هائلة من ذهب بلاد المغرب وغرب أفريقية ، وأنهم استغلوا هذه الثروة الطائلة التى جلبوها معهم فى تنشيط أقتصاد مصر فاشتركوا برؤوس أموالهم فى تجارة الشرق العالمية وشجعوا التجارة الداخلية وعملوا على رواجها ، فضلاً عن اهتمامهم بالصناعة والزراعة والعمل على النهوض بهما .

وبرغم أن الفاطميين لم يدخلوا تحسينات جديدة على الزراعة إلا أنهم حاولوا ، قدر امكانهم ، النهوض بها والعناية بالأرض وبمياه الرى وتنظيم هذه المياه وضبط فيضان نهر النيل ووضع المقاييس لقياس زيادة المياه ونقصانها .

أما الصناعة فلقد كان لها الحظ الأكبر من اهتمام الفاطميين ، لذلك ازدهرت فى أيامهم وشاهد على ذلك ما خلفوه من بقايا صناعات مازال بعضها يزين حتى الآن المتاحف العالمية . هذا فضلاً عما ذكره لنا الكتاب والرحالة المسلمون عن تقدم هذه الصناعة وإحرازها السمعة العالمية .

ولم يقتصر عمل المصانع فى العصر الفاطمى على إنتاج ما يحتاجه الجيش والأسطول من سلاح وعتاد حربى وملابس ، بل تنوعت المنتجات بتغطية حاجة السوق العالمى من منتجات مصر ، بعد أن أصبحت مصر ، فى عهدهم مركز تجارة العالم . هذا فضلاً عن سد حاجة متطلبات قصور الخلفاء والوزراء والأمراء ورجال الدولة وعامة الشعب .

ومن الصناعات التى ازدهرت فى عصر الفاطميين وتنوعت : صناعة النسيج بمختلف أنواعه ، إذ أشتهرت مدن البهنسا وطحا وتنيس وأخميم ودمياط ودبيق والأسكندرية والفسطاط بنسيجها وأحرزت الشهرة فى سائر بلدان عالم العصور الوسطى آنذاك ، ولقت منتجاتها اقبالاً زائداً وسوقًا رائجة لها فى تجارة العالم .

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين مركزاً هامًا لصناعة المنسوجات الحريرية ، فقد أنشأ المعز لدين الله الفاطمى فيها دار الكسوة حيث كانت تفصل فيها الثياب لموظفى الدولة على اختلاف درجاتهم . كذلك كانت تفصل فى هذا الدار الحلل لموظفى الدولة التى كانت توزع عليهم فى عيد الفطر ، فضلاً عن عمل الكسوة السنوية الخاصة بالكعبة المشرفة . وكانت « دار الديباج » التى بناها الأفضل بن بد الجمالى ، تنتج نوعًا متميزاً من الحرير يعرف بالحرير الديباج صاحب الشهرة العالمية .

كذلك تقدمت صناعة المنسوجات الكتانية الرفيعة المستوى التى كانت تصنع فى دبيق وتنيس ، ولقد وصل ثوب الكتان المصنوع فى تنيس للخليفة حوالى الألف دينار ، وذلك لخلط الكتان فيه بخيوط الذهب . كذلك كانت تصنع فى تنيس أنواع من القماش عرفت « بالبقلمون » كانت ألوانه تتغير بتغير ساعات النهار . وكانت خزانة البنود تصنع الثياب الفاخرة ويعمل بها ١٠ آلاف صانع .

وتقدمت صناعة الزجاج والخزف فى عصر الفاطميين ، وكانت مراكز صناعته فى الفسطاط والفيوم والأسكندرية . والدليل على كثرة أستخدام الخزف فى مصر الفاطمية أن الرحالة الفارسى المسلم ناصرى خسرو ذكر أنه رأى أثناء رحلته فى مصر أيام حكم الخليفة المستنصر الفاطمى ، التجار من بقالين وعطارين وبائعى خردوات يعطون الأوعية اللازمة لما يبيعون من زجاج أو خزف حتى لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء .

وأصبحت الفسطاط من أهم مراكز مصر الصناعية والتجارية فى ذلك العهد ، وقد أورد ناصرى خسرو والمقدسى ومن بعدهما المقريزى ما كانت عليه هذه المدينة من عظمة وبهاء ، حتى أن المقدسى جعلها تسبق فى أهميتهما كلا من بغداد ودمشق . وأشاد ناصرى خسرو بأسواق الفسطاط وامتلائها بالمتاجر واشتداد حركة الأتجار فيها وبخاصة فى سوق القناديل ، أهم الأسواق بها ، وقد ذكر عن هذا السوق قوله أنه أغنى أسواق العالم . وازدهرت كذلك ، تبعًا للأزدهار الأقتصادى العام فى مصر الاسلامية ، مراكز التجارة الداخلية الأخرى وبخاصة قوص وأسواق دمياط والأسكندرية .

ويتضح لنا قوة الأقتصاد المصرى فى العصر الفاطمى من قوة العملة المصرية آنذاك ، فقد سك الفاطميون ، بعد فتحهم مصر ، الدينار المعزى ، الذى حافظ على نقاوته طوال عهدهم ، وأستمرت كمية الذهب فيه بنسبة ٩٨٪ ولم تنخفض هذه النسبة بسبب وقوع الشدة العظمى ولا بسبب قيام الحروب الصليبية فى أواخر أيامهم .

٢ - فى المجال الأجتماعى:

اتخذت الحياة الأجتماعية فى مصر فى العصر الفاطمى ، مظاهر خاصة تقلبت بين ألوان من البذخ والترف ، فى عصرها الأول قل أن نجدها فى عصر آخر من عصور

مصر الأسلامية . وقد تجلى بذخ الخلفاء الفاطميين فيما أورده المقريزى عن خزائن الفرش والأمتعة والجوهر والخيم والشراب والبنود . كما نستدل على ذلك من القصور التى بنوها وسكنوها وأسرهم ، ومن أشهرها القصر الشرقى الكبير الذى أسس به الخليفة العزيز قاعة الذهب الشهيرة . وقد أورد غليوم رئيس أساقفة صور وصفا رائعًا لما شاهده رسولى ملك بيت المقدس داخل هذا القصر فى عهد الخليفة العاضد .

وقد ترك الخلفاء الفاطميون وأسرهم ثروات طائلة تعكس لنا حالة الرفاهية التى كانوا يعيشون فيها ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، وجدت كمية هائلة من الذهب والأحجار الكريمة فى خزائن الخلفاء وأمرائهم وكبار رجال دولتهم . فوجد عند «سيدة» أخت الخليفة المعز بعد وفاتها ، ثلثمائة صندوق ممتلئة بالذهب الحر ، وخمس ويبات من فصوص الياقوت . كذلك خلفت «عبدة» ابنة المعز بعد وفاتها سنة ٤٤٢ هـ ، ثروة لا تقدر فيها على سبيل المثال إردب من الزمرد . ووجد عند القائد جوهر الصقلى ، عند وفاته ، ستمائة ألف دينار ذهبًا وأربعة آلاف درهمًا فضة خالصة ، وأربعة صناديق مملوءة باللؤلؤ ومثلها مملوء بالياقوت وألف قصبة زمرد وخمسة وسبعين ألف ثوب من الديباج .

ووجد فى خزائن القصر الفاطمى فى أيام الشدة المستنصرية صناديق كثيرة مليئة بالذهب والأحجار الكريمة بيع معظمها بأبخس الأثمان من أجل الحصول على الطعام . ووجد ضمن مخلفات الخليفة العاضد ، التى استولى عليها صلاح الدين ، زمرد طوله أربعة أصابع فى عرض عقد كبير ، عدا جواهر وتحف لا عدد لها .

ولم يقتصر البذخ على الخلفاء والوزراء والأمراء بل شمل عامة الشعب وبخاصة فى العصر الأول للدولة ، وبدت مظاهر هذا الرخاء والأنتعاش على الشعب المصرى . فلقد كانت الأسعار عمومًا رخيصة والحياة سهلة . ولقد عاش الشعب المصرى

احتفالات متواصلة فى عهد الفاطميين ، كان يقيمها لهم الخلفاء فى مناسبات الأعياد الدينية والقومية والاحتفالات الخاصة . ولقد أحتفل خلفاء الفاطميين بأعياد المسلمين وأعياد آل البيت وأعياد اليهود والنصارى والمجوس ، حتى أعياد الفراعنة الأقدمين أحتفلوا بها .

أما الاحتفالات الخاصة فكانت كثيرة وتمثلت فى مناسبات تولى الخلافة ومبايعة ولى العهد وميلاد وختان الأبناء وحفلات الزواج . ومن ضمن هذه الأحتفالات احتفالاً أشار إليه الرحالة ناصرى خسرو ، وهو ولادة ولد للخليفة المستنصر سنة ٤٣٩ هـ ، إذ أمر الخليفة الناس بإقامة الأفراح فزينت المدينة والأسواق زينة قال عنها : « لو وصفتها لما أعتقد الناس صحة ما أقول ولما صدقونى ، فقد كانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر والنقد والأمتعة المختلفة والملابس المذهبة والمقصبة بحيث لا يوجد فيها متسع لمن يريد أن يجلس » .

٣ - فى المجال الثقافى :

بلغ عدد المدارس فى القاهرة وحدها فى عهد الفاطميين نحو عشرين مدرسة ، وهذا أكبر دليل على اهتمام الفاطميين بالثقافة ونشر العلم . وكان الجامع الأزهر أكبر هذه المدارس إذ أسسه الفاطميون لتدريس تعاليم المذهب الأسماعيلى الشيعى ، ثم زيد عليه تدريس العلوم الأخرى أدبية وعقلية . وناقس جامع الحاكم بأمر الله بعد ذلك الجامع الأزهر فى نشر الثقافة والتعليم .

ولقد أسس الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ داراً عامة للعلم أسماها دار العلم أو دار الحكمة ، قرر لها المدرسين والمعيدين . وألحق بها مكتبة كبيرة امتلأت بالكتب والمؤلفات النادرة على غرار دار الحكمة التى أنشأها الخليفة العباسى المأمون فى بغداد . وظل الخلفاء الفاطميون فى تزويد هذه المكتبة بالكتب حتى بلغ عددها حوالى المليون ونصف المليون كتاب .

كذلك أنشأ الخلفاء الفاطميون بالقصر الشرقى الكبير مكتبة ، أحتوت على أربعين خزانة كبيرة ، ملأوها بالكتب والمؤلفات فى الآداب والعلوم والفنون .

وقام خلفاء الفاطميين بعقد المجالس العلمية فى قصورهم ودعوا لها العلماء والفقهاء والأدباء للمناظرة والمدارسة والمحاورة فى حضورهم ، الأمر الذى أدى إلى ثراء العلم والتعليم . هذا فضلاً عن المجالس الخاصة التى كان يعقدها كبار رجال الدولة والأعيان وكبار التجار ويدعون لها العلماء والشعراء اقتداء بالحكام والخلفاء .

ولقد برز من العلماء فى عهد الفاطميين رجال تشريع وفلاسفة ومؤرخين وأطباء ورياضيين وشعراء . ومن علماء الفقه الأسماعيلى الشيعى نسمع عن أبى حنيفة النعمان المغربى ، الذى يعتبر حجة فى فقه هذا المذهب ، ويعد كتابه «دعائم الأسلام» أهم كتبه الفقهية . وتبع أبى حنيفة فى التفوق فى فقه الأسماعيلية أبناؤه من بعده .

ولم يقتصر ظهور الفقهاء على علماء المذهب الشيعى بل ظهر عدد من علماء السنة على المذاهب الفقهية السنية الأربعة المختلفة : الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى . ومن الجدير بالذكر أن الفاطميين لم يمنعوا الناس من الأنتماء لأى مذهب من المذاعب وتركوا للناس حرية الأختيار لمذاهبهم .

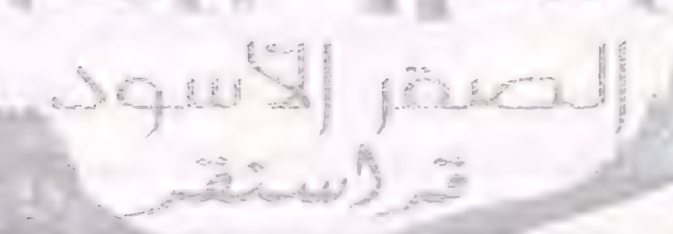
٤ - فى المجال العمرانى :

أن حدود القاهرة الفاطمية لا زالت باقية إلى الآن ، فسورها الشمالى لا يزال قائمًا ، نرى فيه باب النصر وباب الفتوح ، وسورها الشرقى لا يزال موجوداً بمحاذاة تلال الدراسة ، وسورها الجنوبى ، مازال باقيًا منه باب زويله ، الذى يعرف الآن ببوابة المتولى . وسورها الغربى الذى كان يسير بموازاة شارع الخليج (شارع بورسعيد الآن) ، وحدوده الآن من هذه الجهة « درب سعادة » .

وفى داخل أسوار القاهرة مازالت مواقع القصر الشرقى الكبير الذى أقامة جوهر وقصر العزيز بالله الذى عرف بالقصر الغربى الصغير مازالت قائمة .

أما مساجد الفاطميين ومشاهدهم فإن معظمها مازال قائمًا : ويأتى فى مقدمتها : الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، الذى يقال له الآن أيضًا الجامع الأنور ، ويضم هذا المسجد الآن مدرسة السلحدار الأبتدائية ، وجامع راشدة الذى بناه الحاكم بالفسطاط ، وجامع المقس الذى بناه الحاكم على النيل بالمقس ، وجامع العزيز بالله ، والجامع الأقمر الذى بناه الوزير المأمون البطائحى سنة ٥١٩ هـ بأمر من الخليفة الآمر ، ومسجد الصالح (الوزير طلائع بن رزيق ، بناه سنة ٥٥٥ هـ) ، وهو خارج باب زويلة ، ومشهد الجيوشى ، فوق تلال المقطم بُنى سنة ٤٨٧ هـ ليدفن فيه الأفضل بن بدر الجمالى .

كذلك من آثار الفاطميين الباقية « الحمام الفاطمى » ، الذى كشفت عنه الحفائر الأثرية سنة ١٩٣٤ ، ويعد أقدم حمام اسلامى فى مصر .



٥ - الدولة الأيوبية

(٥٦٧ - ٦٤٨ هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠م)

١ - السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	(٥٦٧ - ٥٨٩ هـ)
٢ - الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان	(٥٨٩ - ٥٩٥ هـ)
٣ - الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عثمان	(٥٩٥ - ٥٩٦ هـ)
٤ - الملك العادل سيف الدين أبو بكر	(٥٩٦ - ٦١٥ هـ)
٥ - السلطان الملك الكامل محمود بن العادل	(٦١٥ - ٦٣٥ هـ)
٦ - السلطان العادل (الثانى) سيف الدين أبو بكر بن الكامل	(٦٣٥ - ٦٣٦ هـ)
٧ - السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل	(٦٣٦ - ٦٤٧ هـ)
٨ - أم خليل شجرة الدر زوجة الملك الصالح	(٦٤٧ - ٦٤٨ هـ)
٩ - السلطان الملك المعظم غياث الدين توران شاه بن الملك الصالح	(قتل فى المحرم ٦٤٨ هـ)

تعريف بالدولة الأيوبية :

يرجع أصل حكام هذه الدولة إلى أكراد شمال العراق ، وأول من حكم مصر منهم « السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن نجم الدين أيوب » . نشأ أبوه أيوب وعمه أسد الدين شيركوه ببلدة « دوين » من أرض آذربيجان ودخلاً بغداد وخدمًا فيها .وذهب أيوب إلى قلعة تكريت مصطحبًا معه آخاه شيركوه وخدمًا بعد ذلك عماد الدين زنكى حاكم الموصل الذى آواهمًا وأقطعهما اقطاعًا فى بلاده ، ثم جعل أيوب أميراً على بعلبك .

وأتصل شيركوه بنور الدين محمود زنكى فى أيام أبيه وقام بخدمته ... ولما ملك نور الدين محمود حلب ، بعد وفاة أبيه ، قام نجم الدين بدور كبير فى آخذه مدينة دمشق ، وأحرز كل من نجم الدين وأسد الدين المكانة فى دولة نور الذين . وأسند نور الدين إلى أسد الدين شيركوه قيادة حملة على مصر ضد الوزير شاور وصاحبه فى هذه الحملة صلاح الدين . وكان صلاح الدين قد سافر مكرهًا ورغم إرادته إلى مصر ، وهو لا يدرى أن التاريخ يدخره لدور هام فى تاريخ مصر وفى تاريخ المسلمين . وكان من أمر شيركوه أن صار وزيراً فى مصر للخليفة الفاطمى العاضد ، ثم خلفه فى الوزارة بعد وفاته ، أبن أخيه صلاح الدين .

ولقد قام صلاح الدين بالغاء الخلافة الفاطمية ، وبموت الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الفاطميين ، أصبح هو الحاكم الفعلى الوحيد فى مصر . وما لبث صلاح الدين أن فكر فى الأستقلال بحكم مصر ونجح فى ذلك وأقام بها الدولة الأيوبية التى استمرت تحكم مصر لمدة احدى وثمانين عامًا ، وكانت نهايتها على يد أمراء المماليك سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م .

وكانت الدولة الأيوبية دولة عسكرية قامت فى ظروف تعرض فيها العالم الأسلامى لخطر شديد وهو خطر الحروب الصليبية . ذلك لأن العالم الأسلامى عامة وبلاد الشام خاصة ، تعرضت فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، لخطر عدوان شنه مسيحيو غرب أوربا على بلاد الشرق الأسلامى وألبسوا هذا العدوان ثياب التقديس .

ونادى زعماء هذا العدوان بتخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، وأتخذوا الصليب شعاراً لهم حتى يخفوا وراءه أطماعهم العدوانية فى هذه البلاد الغنية . وكانت هذه الحروب الصليبية قد تقررت فى مجمع كليرمونت سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٥م الذى ترأسه البابا أربان الثانى بحضور أمراء أوربا وعدد من رجال الدين ومندوبين عن الأمبراطور البيزنطى وممثلين عن المدن التجارية الإيطالية . وأستطاع البابا ، فى هذا الأجتماع ، أن يثير حماسة الجميع ويحثهم على المسير إلى بلاد الشام ، وحددوا عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٧م موعداً لبدء حربهم الصليبية .

ولقد نجح الصليبيون فى الفترة ما بين ٤٩٢ - ٤٩٤ هـ / ١٠٩٧ - ١٠٩٩م ، مستغلين فرقة العالم الأسلامى ، فى اقامة أربعة امارات صليبية لهم فى بلاد الشام هى : أنطاكية والرها وطرابلس وبيت المقدس .

وكان لنجاح الغزو الصليبى لبلاد العالم الاسلامى وقع أليم فى نفوس المسلمين ، وكان سقوط بيت المقدس فى يد الصليبيين ، أهم دوافع الجهاد الدينى وأهم عوامل اليقظة لأسترداد الأماكن المقدسة واستخلاصها من يد الصليبيين .

وكانت أكبر دولتين اسلاميتين فى ذلك الوقت وهما :

الدولة العباسية والدولة الفاطمية قد وقفتا عاجزتين أمام هذا الغزو ، وجاءت النجدة وكان الخلاص على يد السلاجقة ومن بعدهم سلاطين الأيوبيين .

وكان عماد الدين زنكى ، حاكم حلب والموصل ، أول هؤلاء الزعماء السلاجقة الذين تصدوا للعدوان الصليبى نجح ، بضمه حمص وبعليك إلى دولته أن يكون جيشاً أستطاع بواسطته أن يهزم أول وأقوى امارات الصليبيين ويستولى عليها وهى امارة الرها . وأصبح بعد ذلك من أكبر الأخطار التى باتت تهدد أحلام الصليبيين فى بلاد الشرق الأسلامى حتى وفاته سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦م .

وورث زنكى الجهاد ضد الصليبيين لأبنه نور الدين محمود ، الذى ضم لممتلكاته مدينة دمشق سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م وأتخذها عاصمة لدولته ومركزاً لمهاجمة معاقل الصليبيين فى الشام .

وتطلع نور الدين للأستيلاء على مصر ، بعد أن أدرك ضعف الحكم الفاطمى فيها ، لكى يكوّن دولة قوية تجمع مصر والشام وتطبق على الصليبيين من الشمال ومن الجنوب ، وخاصة حين تأكد له رغبة الصليبيين فى فتح مصر واستهدافها بأطماعهم .

وكان الملك جودفرى دى بوايون ، أول ملوك الصليبيين فى بيت المقدس ، قد أعد مشروعًا للأستيلاء على مصر ، لكنه مات سنة ٤٩٤ هـ / ١٠٩٩م قبل أن يبدأ فى تنفيذ مشروعه . وبعد وفاة جودفرى حاول أخوه الملك بلدوين الأول ، الذى حل فى امارة بيت المقدس بعده ، أن ينفذ مشروع أخيه ، فقام فى سنة ٥١٠ هـ / ١١١٥م بحملة استطلاعية وصل بها حتى مدينة تنيس على شاطئ بحيرة المنزلة ، لكن المرض فاجأه هناك وعاد إلى بلاده ومات وهو فى طريق عودته سنة ٥١٢ هـ / ١١١٧م .

وتكررت محاولات الصليبيين للإستيلاء على مصر ، لكن الأمر ، كما رأينا حُسم لصالح نور الدين الذى نجح فى فتح مصر وأبعاد الخطر الصليبى عنها ، والقضاء على الحكم الفاطمى فيها .

ولقد واجه صلاح الدين المصاعب والمؤامرات بعد الغائه الخلافة الفاطمية من مصر ، ومن هذه المؤامرات : مؤامرة مؤتمن الخلافة جوهر سنة ٥٦٧ هـ ، وثورة السودان سنة ٥٦٨ هـ ، وثورة عمارة اليمنى سنة ٥٦٩ هـ ، وثورة بنى الكنز سنة ٥٧٠ هـ . واستطاع صلاح الدين أن يتغلب على كل هذه المؤامرات وأن يتخلص من مدبريها ، الأمر الذى أدى إلى تثبيت مركزه فى مصر مما قوى رغبته فى الأستقلال بها عن سلطان نور الدين محمود .

ولقد أحس السلطان نور الدين محمود برغبة صلاح الدين فى الأستقلال بمصر حين أرسل صلاح الدين رسولاً من طرفه إلى الخليفة العباسى يحمل البشارة بالغاء الخلافة الفاطمية دون أخذ الإذن فى ذلك من سيده نور الدين .كذلك حين أمره نور الدين بملاقاته عند حصن الكرك لمقابلة الصليبيين بجيشهما معًا ، ولكنه لم يمتثل لمطلب نور الدين خوفًا من الغدر به والقبض عليه هناك . وعندما ازدادت شكوك نور الدين فى تصرفات صلاح الدين صمم على أن يخرج بجيشه لمصر لإزاحة صلاح الدين عنها . وأرسل نور الدين سنة ٥٦٩ هـ موظفًا من عنده ليحاسب صلاح الدين وأن يقدم له كشف حساب عن إيرادات مصر ومصروفاتها . وكادت الحرب تقع بين العاهلين الكبيرين لولا أن القدر كان رحيمًا بصلاح الدين ففاجأ الموت نور الدين بغتته سنة ٥٧٠ هـ فأنقذه من خطر مؤكد هدد وجوده فى مصر .

وبموت نور الدين زالت أهم العقبات من طريق صلاح الدين فى سبيل تحقيق حلمه فى تكوين دولة له ولأسرته من بعده فى مصر ، واقامة الجبهة الأسلامية المتحدة لجهاد الصليبيين الذى نذر نفسه له .

ومن أجل وحدة الصف االأسلامى كان لزامًا على صلاح الدين حكم الشام والاستيلاء على ممتلكات نور الدين فى الشام بعد أن آلت لأبنه الطفل اسماعيل .

فخرج صلاح الدين بجيشه لفتح الشام سنة ٥٧٠ هـ فدخلها بعد أن حارب القوات التى اعترضت طريقه وتسلم قلعة دمشق ، ثم استولى على حمص وحماه وبعلبك . وصفيت له كل بلاد الشام بعد معركة قرون حماة التى انتصر فيها سنة ٥٧١ هـ على عساكر الموصل وحلب ، ومعركة « تل السلطان » سنة ٥٧٢ هـ التى حسم فيها هذا النصر لصالحه .

وقام صلاح الدين بتمكين أسرته فى مصر والشام ، واستعان بهم فى الإدارة والجيش وقام بتوزيع الاقطاعات عليهم وعلى كبار قواده بعد أن سلب الاقطاعات القديمة من أتباع الفاطميين . وقضى صلاح الدين على كل بقايا المقاومة الفاطمية واستأصل جذورها من البلاد . وفى نفس الوقت تقرب من المصريين وخفف عنهم ما كانوا يعانونه من وطأة المكوس والضرائب التى فرضت عليهم فى عهد الفاطميين ، فألغى جميع هذه المكوس ولم يعد يتحصل من الناس سوى زكاة أموالهم . وكان صلاح الدين يتحرى أحكام الدين فى كل معاملاته مع الناس على قدر امكانه . وأمر بأن يقطع ما كان يؤخذ من الحجاج من رسوم ، وعوض عنه أمير مكة فى كل سنة ألفى دينار وألف إردب غلة سوى اقطاعه بصعيد مصر باليمن ومقداره ثمانية آلاف إردب.

ولقد أمر صلاح الدين ببناء سور يحيط بالقاهرة وقلعة الجبل ، وأقام على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى . فشرع فى بناء قلعة الجبل ، وعمل السور ، وحفر الخندق حوله . وبدأ السلطان يعمل مدرسة بجوار قبر الامام الشافعى رضى الله عنه فى القرافة ، وعمل مارستانا بالقاهرة . وعمّر صلاح الدين الأسطول ، وتهيأ للجهاد ضد الصليبيين .

صلاح الدين والصليبيون :

وكان صلاح الدين قد عقد هدنة مع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس سنة ٥٧٤ هـ

١١٧٨م . ومن أهم الشروط التى تمسك بها صلاح الدين شرط حرية التجارة بين مصر والشام . وكان هذا الطريق قد تعرض للأخطار بسبب القتال بين المسلمين والصليبيين ، كذلك ازدادت الأخطار فيه بسبب تولى أرناط (رينـودى شاتيـو) أمـارة الكـرك (الواقعة فى بلاد الأردن) فى منتصف هذا الطريق .

وقام أرناط بانتهاك هذه الهدنة وفرض الأتاوة على القوافل التى تجتاز الكرك سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٦م . فتوترت لذلك العلاقات بين المسلمين والصليبيين . وحاول أرناط مهاجمة مكة والمدينة وشرع فعلا فى تنفيذ ذلك فى نفس هذا العام . وعاود المحاولة فى العام التالى ولم تفلح محاولته . وبعد ذلك أعد حملة بحرية فى البحر الأحمر (٥٧٧ هـ / ١١٨١ م) لضرب تجارة مصر فى هذا البحر كان مصيرها الفشل واستمرار الإتجار فيها الأمر الذى أدى بصلاح الدين على أن يصمم على القضاء على أرناط وإمارته . فيتوجه صلاح الدين فى نفس هذا العام إلى قلعة الكرك ويحاصرها ويضربها بالمنجنيق غير أن صلاح الدين ما لبث أن رفع الحصار عنها .

معركة حطين ٨٥٣ هـ / ١١٨٧ م

استخدم صلاح الدين السياسة فى عزل الصليبيين فى الشام ، فسهل لتجار المدن الإيطاليـة القـدوم للإتجـار مع مـصـر بحرية ، وصـادق فى نفس الوقت الامبـراطور البيزنطي الكسيوس الثانى وعقد معاهدة صداقة معه .

ولم تنتـه سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م حتى أصبح صلاح الدين مستعدا لتحقيق غرضه ولم يبق إلا أن تسنح الفرصة لمهاجمة الصليبيين . وكان صلاح الدين قد عقد معاهدة أخرى مع ملك بيت المقدس سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م وكان ملتزما بها محترما لشروطها . وجاءت فرصة صلاح الدين سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م حين نقض أرناط هذه المعاهدة وكان شريكا فيها وتعرض لقافلة إسلامية متوجهة من القاهرة إلى دمشق

وكان بها والده السلطان صلاح الدين . فأرسل صلاح الدين إلى أرناط يطلب إليه رد ما استولى عليه من المسلمين وإطلاق سراح الأسرى فامتنع وأصر على عصيانه فنذر السلطان أن يقتله بيده إذا وقع فى قبضته جزاء لما قدمت يداه . فانقضت بذلك الهدنة القائمة بين صلاح الدين وملك بيت المقدس .

فأعلن صلاح الدين الجهاد الدينى وأرسل إلى سائر الأطراف يطلب العساكر فجاءته من كل ناحية وخرج من دمشق فى المحرم من سنة ٥٨٣ هـ - (مارس ١١٨٧) فسار بقواته متجها إلى الكرك وضرب أعمالها ثم فعل نفس الشئ مع بلادة الشوبك ثم عاد بعد ذلك بقواته إلى دمشق . أما عساكر دمشق وحلب والجزيرة والموصل فاجتمعت فى رأس الماء وأغارت على طبرية ووقع الصدام بين المسلمين والصليبيين عند صفورية فى نفس العام وكانت النتيجة نصرا ساحقا لقوات المسلمين .

وتعتبر معركة صفورية مقدمة فتوح صلاح الدين . وعقب هذه المعركة توجه صلاح الدين بقواته إلى فلسطين وتهيأ للمعركة الفاصلة مع الصليبيين عند حطين .

أما الموقف الصليبى فيتمثل فى وقوع الخلاف بين قادة الصليبيين ، وأثناء تفشى هذا الخلاف بينهم فوجئوا بقوات صلاح الدين تتحفز لقتالهم فما كان عليهم إلا أن يواجهوا هذا الخطر المتحفز . واجتمعت قوات الصليبيين عند عين صفورية على هضبة مرتفعة وكان عددها يصل إلى عشرين ألفا ، وكان فى ذلك مساويا لجيش صلاح الدين فى العدد والعتاد الحربى . وكانت خطة الصليبيين أن يتجنبوا الاشتراك مع المسلمين فى معركة فاصلة يحدوهم الأمل فى تفرق جيش صلاح الدين والإفادة من الحرارة الشديدة فى بلاد الجليل الجبلية إذ كان الوقت صيفا شديد الحرارة . لكن الصليبيين تراجعوا عن هذه الخطة على أمل احتمال النصر على صلاح الدين إذا دخلوا فى معركة حاسمة معه خاصة وأن جيشهم مساو لجيشه فى العتاد والعدد وعلى هذا كان النصر سوف يكون حليف الجيش الذى يستطيع أن يدفع الجيش الآخر للمبادرة بالقتال فى ظروف غير ملائمة .

وهكذا عزم الصليبيون على اتخاذ موقف الدفاع مستغلين فى ذلك الموقع الممتاز الذى تحتله قواتهم . غير أن الخطة لم تتحقق بسبب دهاء صلاح الدين العسكرى واستخدامه الخديعة فى هزيمة الصليبيين .

فقد عبر صلاح الدين نهر الأردن جنوبى طبرية وعمل على اجتذاب الصليبيين للخروج من موضعهم فأرسل طائفة من جنده إلى كفرسبت على الحافة الجنوبية للهضبة وقاموا بالغارة على هذه المنطقة ليثيروا الصليبيين ولكن الصليبيين لم يتحركوا . عندئذ عزم صلاح الدين على أن يهاجم طبرية وكان هذا الهجوم نقطة التحول فى المعركة .

وأثار الهجوم على طبرية ريموند كونت طرابلس لوجود زوجته بها ونجحت الخطة فى استدراج الجيش الصليبى فترك مواقعه الحصينة فى الهضبة ونزل إلى وادى حطين فى طريق طبرية فأحاطت به جيوش المسلمين فى هذا الوادى من كل ناحية ومنعت عنه الماء . وانسحب جيش صلاح الدين من طبرية واعتلى جيشه تلال حطين .

وبدأت معركة حطين وجيوش الصليبيين محصورة بين حر الجو وحر الظمأ وحر القتال وكانت هزيمتهم ساحقة فى هذه المعركة . فقتل منهم العدد الكبير كذلك أسرت منهم أعدادا هائلة كان فى مقدمها جى لوزيجنان ملك بيت المقدس وأرناط . وقد أطلق صلاح الدين سراح ملك بيت المقدس لكنه قتل أرناط وفاء لنذره .

استرداد بيت المقدس :

توجه صلاح الدين بعد معركة حطين إلى طبرية وراسل زوجة ريموند فأجابت بالتسليم فأمنها السلطان ومن معها فسلمت الحصن بما فيه وخرجت ومعها أموالها إلى طرابلس بلد زوجها .

وأصبح طريق القوات الإسلامية بعد حطين مفتوحا أمامهم وخاصة الطريق إلى بيت المقدس وإمارتى طرابلس وأنطاكية . وقام صلاح الدين بفتح عكا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف وغيرها من البلاد المجاورة . ثم استولى كذلك على نابلس وصيدا وبيروت وجبيل والرملة وبيت لحم والخليل وعسقلان ، وأضحت جميع طرابلس فيما عدا صور فى يد صلاح الدين .

وحاصر صلاح الدين بعد ذلك مدينة صور وكان قد اجتمع بها عدد كبير من الصليبيين ولكنه رفع الحصار عنها بعد أسبوع بسبب مناعتها وقوة تحصينها . ولقد تعرض صلاح الدين للانتقاد لأنه أجاز الصليبيين أن يجتمعوا فى صور وما ترتب على ذلك من نتائج خطيرة إذ أصبحت صور القاعدة التى اتخذها الصليبيون للمحافظة على ما تبقى لهم من أملاك فى الشام ومنها صاروا يوجهون حملاتهم لاسترداد ما استولى عليه صلاح الدين من بلاد .

ولما فرغ صلاح الدين من الاستيلاء على عسقلان وعلى ما حولها من الجهات توجه إلى بيت المقدس وكان قد اجتمع بها عدد كبير من الصليبيين الذين نجوا من معركة حطين وحشدوا قواتهم بها وعزموا على الدفاع عنها لما لها من قدسية عندهم .

ونزل صلاح الدين على بيت المقدس فى نفس العام (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) وحاصرها ، وما لبث أن طلب أهلها الأمان والتسليم بعد أن رأوا قوة جيش المسلمين وكثافة عدده وقوة تسليحه . وتسلم صلاح الدين المدينة بعد شهر من حصارها (يوم الجمعة ١٧ رجب) : وعادت بذلك المدينة المقدسة ليد المسلمين بعد أن ظلت فى يد الصليبيين قرابة التسعين عاما .

خرج صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م من عكا لمنازلة حصن كوكب والشوبك والكرك واستمر حصار المسلمين لها مدة طويلة حتى فنيت أزواد أهلها فطلبوا الأمان من صلاح الدين فأمنهم صلاح الدين واستسلموا فى نفس العام . ثم حاصر بعد ذلك صلاح الدين قلعة صفد وتسلمها من أهلها الذين هاجروا إلى صور .

وتجمع فى صور عدد كبير من الصليبيين واشتدت هنالك شوكتهم وأخذوا يطلبون الإمدادات من الغرب . وما لبث أن وصلتهم هذه الإمدادات فغدت مدينة صور خطرا كبيرا على المسلمين . وهكذا سقطت كل مملكة بيت المقدس فى يد صلاح الدين ما عدا صور وشقيف أرنون كذلك صمدت طرابلس وأنطاكية .

الحملة الصليبية الثالثة :

بعد أن فتح صلاح الدين بيت المقدس أطلق سراح الملك جاى لوزيخنان فانتقل إلى صور حيث اتفق هنالك مع كونراد مونتفرات حاكمها على حشد القوات لاسترداد البلاد التى استولى عليها صلاح الدين . وقام الملك جاى بارسال البعوث إلى غرب أوروبا يستنجد بالمسيحيين ويحثهم على استرجاع بيت المقدس . واستطاع بذلك أن يؤلب المسيحيين فى هذه البلاد الذين حشدوا القوات لحرب المسلمين . وخرجت هذه القوات من بلادها متوجهة إلى عكا وقامت بحصارها وأحكموا هذا الحصار حولها .

حاول صلاح الدين أن يستخلص عكا من يد الصليبيين ولكنه لم يستطع ذلك . ولما رأى خطورة الموقف أمر بتدمير استحكامات طبرية ويافا وأرسوف وصيدا حتى لا تقع فى يد الصليبيين .

ثم قدم فيليب أغسطس ملك فرنسا ورتشارد قلب الأسد ملك انجلترا بقواتهما إلى بلاد الشام وازداد بقدوم هذه القوات خطر الصليبيين من حول عكا . ونجح الصليبيون فى فتح عكا وسقطت فى أيديهم سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م .

وأدى سقوط عكا فى يد الصليبيين إلى إصرار صلاح الدين على قتال الصليبيين ومواصلة الحرب المقدسة ضدهم فضايقهم عند أرسوف أثناء سيرهم نحو عسقلان وعمد

إلى تخريب عسقلان حتى لا يفيد منه العدو . كذلك خرب حصن الرملة قبل مسيره إلى بيت المقدس حيث شرع فى تحصين المدينة وعمارة أسوارها وحفر خنادقها . وخاف رتشارد قلب الأسد من الشروع فى محاصرة بيت المقدس وارتد عنها إلى الرملة ثم منها إلى عسقلان سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م .

وحدث إنقسام بين الصليبيين فى الرأى ووقع النزاع بين البيازنة والجنويين وتنازع جاى لوز يجنان ومنتفرات على عرش مملكة بيت المقدس وفشل رتشارد فى الصلح بينهما فقرر عقد الصلح مع صلاح الدين . وجرت المفاوضات بين الجانبين بشأن الصلح (صلح الرملة) ، وفى ٥٨٩ هـ / ٢٠ مارس ١١٩٢ م استقر الرأى على الشروط الآتية للصلح وهى :

- أن يحتفظ المسيحيون بما افتتحوه من البلاد حتى يافا جنوبا .
- للمسيحين الحق فى الحج إلى بيت المقدس .
- أن يكون للصليبيين قسس فى بيت المقدس وأن يعود إليهم صليب الصلبوت .
- أن تكون الحرية للمسلمين والمسيحيين فى أن يجتاز أرض بعضهم بعضا .

ووصلت لرتشارد أخبار سيئة من انجلترا تفيد أن أخاه يحاول اغتصاب العرش منه ، فبادر بالرحيل إلى بلاده بعد أن وقع معاهدة السلام مع صلاح الدين فى ٢ سبتمبر ١١٩٢ (٢٢ شعبان ٥٨٨ هـ) لمدة خمس سنوات .

وبذلك انتهت الحملة الصليبية الثالثة . وأضحى للصليبيين بعد هذه الحملة شريط من الأرض فى بلاد الشام لا يزيد عرضه على عشرة أميال ويمتد على طول الساحل من يافا إلى صور نحو تسعين ميلا ، واستطاع بوهمند أمير أنطاكية ، بفضل ما التزمه من الحياد ، أن يحافظ على إمارته الممتدة من مدينة أنطاكية حتى ميناء سان سيمون ، وأصبحت طرابلس فى يد ابنه .

وتوفى صلاح الدين (يوم الأربعاء ٢٧ صفر) سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ ، وكانت وفاته خسارة كبرى للإسلام . وكان مرضه بالحمى توفى عن عمر سبع وخمسين عاما ، وكانت مدة حكمه ، بعد وفاة العاضد ، اثنتان وعشرون سنة .

وكان صلاح الدين من الشخصيات العظيمة التى حكمت مصر ، والتى ارتبط اسمها برمز الجهاد ورفع راية الإسلام ، ولقد لقى التقدير من جميع المؤرخين الأوربيين قبل المسلمين . فلقد أجمع الجميع على شجاعته وشهامته وحبه للجهاد والإنفاق فى سبيل الله . كذلك أجمعوا على تواضعه حتى أن من جالسه كان لا يشعر بأنه يجالس سلطان لشدة هذا التواضع . وكان يلبس البسيط من الثياب ويحيا حياة الصوفية ، وكانت مجالسه منزهة عن اللهو والهزل ، وكانت حافلة بأهل العلم والفضل وقارئى القرآن ورواة الحديث . وكان ، رحمه الله ، شديد الحياء ، سريع الدمعة شديد الخوف من الله . كان يحب العدل ، يجلس فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء ، وما استغاث إليه أحد إلا أجابه وكشف ظلامته .

ولقد أكثر صلاح الدين من بناء المدارس فبنى المدرسة الصلاحية سنة ٥٧٢ هـ بالقرافة الصغرى ، وأنشأ مدرسة المشهد الحسينى (ومحلها الآن الإيوان الشرقى عند المحراب الحالى لجامع الإمام الحسين) . وجعل دار عباس الوزير الفاطمى مدرسة للحنفية وهى المدرسة السيوفية ، كذلك بنى المدرسة الشافعية (المعروفة بمدرسة زين التجار) ، ووقف على هذه المدارس وقفا كبيرا .

كذلك بنى صلاح الدين خانقاه سعيد السعداء ، (الخانقاه مفرد خوانق حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة ، وجعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة) ، وهى أول خانقاه أقيمت فى الإسلام أنشأها لإقامة الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم سنة ٥٦٩ هـ ، ورتب للصوفية فيها فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبنى لهم حماما بجوارهم . كذلك بنى صلاح الدين مارستانا داخل القاهرة .

وقد قام عدد من الشعراء المعاصرين لصلاح الدين بمدحه وإبراز فضائله ومنهم : الشباتانى (الحسن بن على) ، وابن الشحنة الموصلى ، الذى مدحه بقصيدة عدد أبياتها ١١٣ بيتا ، وابن قلاقس الشاعر السكندرى وابن الدروى ، وابن المنجم ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتى والاربلى ، ومحمد بن اسماعيل بن حمدان .

وأنجب صلاح الدين ١٦ ولدا وابنة واحدة ، وكان الأمير الأفضل هو أكبر أبنائه ، ولكن خلفه فى السلطنة ابنه العزيز عثمان ، وكان نائبا عن أبيه فى مصر أثناء انشغاله بفتح السواحل بالبلاد الشامية .

٢ - العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ) :

يوم أن مات صلاح الدين ، كان أبنه العزيز عثمان ينوب عنه فى مصر ، وكان يقيم فى دار الوزارة فى القاهرة ، فبايعه قواد عسكر أبيه ، كذلك بايعه قواد عسكر أخيه الأكبر الملك الأفضل .

وثار الأخ الأكبر على أخيه العزيز محتجا على توليه السلطة ، وكان يلى أمر الشام ، فسار إليه العزيز بجيشه وحصره بدمشق ، واستغل الملك العادل ، أخو صلاح الدين ، العداء الذى وقع بين الأخوين لصالحه وشجع العزيز على قتال أخيه حتى يصفو له الأمر بعد وفاة العزيز . وخرج العزيز لقتال الأفضل مرة ثانية فى بلاد الشام وترك عمه العادل ينوب عنه فى حكم مصر ، لكن العادل حاول أن يجمع السلطة فى يده حتى خاف العزيز منه أن يعزله عن السلطة ويستأثر بها دونه ، فعاد إلى مصر مسرعا دون أن يحسم الأمر مع أخيه الأفضل . وجرى الصلح بين الأخوين على أن يعود الأفضل إلى مملكته بدمشق . وأقام العادل مع العزيز بمصر وتولى تدبير أمور الدولة .

وخرج العادل مع العزيز ثانية لمحاربة الأفضل ، فحصراه فى دمشق وأخذاها منه بعد حروب وقع بعدها الأفضل فى الأسر ، فنفاه أخوه إلى صرخد . وعاد العزيز إلى مصر ، وأقام العادل بدمشق نائبا عنه فيها حتى وفاته (٢٠ المحرم) سنة ٥٩٥ هـ ، عن ٢٧ سنة بعد حكم ست ستين بعد أبيه ، وكان موته بسبب وقوعه من على فرسه أثناء قيامه بالصيد .

وكان العزيز جوادا شجاعا عادلا منصفا حليما ، كثير الخير رفيقا بالرعية ، كان أبوه صلاح الدين يحبه أكثر من كل إخوانه . ولما مات نص على أن يخلفه فى الحكم ابنه ناصر الدين محمد ، وكان له عشرة أولاد ولم يذكر عمه العادل فى وصيته .

٣ - الملك المنصور ناصر الدين محمد (٥٩٥ - ٥٩٦ هـ) :

تولى الحكم وهو طفل صغير يبلغ من العمر عشر سنين ، فقام بالوصاية عليه الأتابك بهاء الدين قراقوش فاختلف عليه أمراء الدولة وكاتبواعه الملك الأفضل ، فقدم من صرخد واستولى على الأمور ، وحجر على المنصور حتى أنه لم يبق له من الحكم إلا الاسم .

وحاول الأفضل أن يأخذ دمشق من الملك العادل ، لكن العادل هزم قواته عند بلبيس سنة ٥٩٦ هـ ، فطلب الأفضل الصلح من العادل ، فعوضه العادل صرخد ، ودخل العادل القاهرة وقام بأتابكية المنصور ، ثم خلعه عن السلطة (١١ شوال) سنة ٥٩٦ هـ ، بعد أن حكم سنة وثمانية أشهر .

٤ - الملك العادل سيف الدين أبو بكر (٥٩٦ - ٦١٥ هـ) :

صار العادل سلطانا على مصر ، وخطب له بديار مصر وبلاد الشام وحران والرها ، وقام بإخراج المنصور وإخوته من القاهرة إلى الرها ، واستناب ابنه الملك الكامل محمد عنه وعهد إليه بعده بالسلطنة ، وأقسم له الأمراء يمين البيعة .

فى أيامه توقفت زيادة النيل مدة ثلاث سنين (٥٩٧ - ٦٠٠) ، فأصيبت الأرض بالتحاريق ، وتعذر وجود القوت ، وغلت الأسعار غلوا شديدا . ولقد وصف الرحالة عبد اللطيف البغدادى هذه الشدة التى أصيبت بها مصر فى ذلك الوقت أثناء زيارته لها ، وأورد هذا الوصف فى كتاب رحلته الشهير .

وفى عهد الملك العادل عادت الحرب بين المسلمين والصليبيين بعد أنتقاض الهدنة التى كان قد عقدها العادل مع أماليك ملك بيت المقدس الذى كان مقيمًا فى عكا سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤م ، وكانت طوائف الأستبارية قد أغارت على بلاد الشام سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥م وهاجموا اللاذقية وحمص وحماه ، وهذه هى الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الصليبية الرابعة . وترتب على ذلك أن أعد العادل حملة لوقف هذا العدوان فحاصر حصن الكرك ثم طرابلس ، وأضطر رجال الأستبارية إلى عقد معاهدة سلام معه سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧م .

ولما أنقضى أمد الهدنة المعقودة بين الصليبيين والملك العادل سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠م ، أرسل العادل يطلب تجديدها من « حنا بريين » ملك بيت المقدس لمدة خمس سنوات أخرى . ووافق بريين على ذلك إلا أنه أرسل إلى روما يطلب اعداد حملة صليبية وارسالها إلى الشام عند انتهاء أجل الهدنة . وكان الملك ريتشارد قلب الأسد ، ملك أنجلترا قد أوصى بمهاجمة مصر ، كما أن مجمع « اللاتران » الذى عقده البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢٠٥م أشار إلى ضرورة مهاجمة مصر على اعتبار أنها قلعة النضال الأسلامى ، واتخذ الصليبيون قراراً على أن تكون مدينة دمياط هدف هجومهم فى حملتهم المقبلة .

وقدمت القوات الصليبية بقيادة « حنابريين » قاصدة مصر ، وهى الحملة الصليبية الخامسة ، ونزلت قواتهم البحرية والبرية مدينة دمياط (٤ ربيع الأول) سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨م فخرج الملك الكامل بن العادل لمحاربتهم ، وكان نائبًا عن والده فى مصر الذى كان وقتها فى الشام . وتوفى الملك العادل بمرج الصفر (١٧ جمادى الآخرة) سنة ٦١٥ هـ ، وحمل إلى دمشق ، فكانت مدة سلطنته لمصر تسع عشر عامًا.

٥ - السلطان الملك الكامل محمود بن العادل (٦١٥ - ٦٣٥ هـ) :

كان أول عمل قام به الملك الكامل هو محاربة الصليبيين وتحرير دمياط منهم ، وقد أقام الكامل جسراً على النيل شمالى دمياط شن الهجوم عليهم منه ، ثم توقف القتال وعقدت هدنة بين المتقاتلين . وعاد القتال ثانية ، وأنتصر المسلمون فى المكان الذى عرف فيما بعد بمدينة المنصورة وأغرقتهم مياه الفيضان . وطلب الصليبيون الصلح فى مقابل الجلاء عن دمياط ، الذى تم سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١م .

ولقد وقع النزاع على اقتسام البلاد ، بعد جاء جلاء الصليبيين عن دمياط ، بين الملك الكامل وأخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والأشرف موسى صاحب الجزيرة وخلاط . وقد أدى هذا النزاع إلى الحرب بين الأخوة الثلاثة فى الوقت الذى كانت فيه الدولة الأيوبية فى أمس الحاجة للوحدة والأتحاد والوقوف أمام خطر الخوارزميين . وكان الخوارزميون قد تطلعوا إلى امتلاك بلاد ما وراء النهر وما يليها بعد أن دمر جنكيز خان ، كبير المغول ، دولتهم سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١م .

ولقد أضطر الملك الكامل للأستغاثة بالصليبيين ليساعدوه ضد أخيه المعظم عيسى الذى استنجد بالخوارزميين فى حربه ضد أخيه الملك الكامل . ولقد أرسل الملك الكامل إلى الأمبراطور فردريك الثانى امبراطور الدولة البيزنطية وطلب منه أن يساعدهُ فى الحرب ضد أخيه ومعاونيه على أن يعطيه بيت المقدس وجميع مافتح صلاح الدين من بلدان بالساحل السورى .

وكان البابا جريجورى التاسع قد طلب من الأمبراطور فردريك القيام بحملة صليبية ضد بلاد الاسلام ، لكن الأمبراطور ظل يماطل حتى أصدر البابا ضده قرار الحرمان من غفران الكنيسة سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧م .

فأعد فردريك جيشاً قوامه خمسمائة جندى قدم به إلى الشام ، فى الحملة التى عرفت بالحملة الصليبية السادسة ، بقصد مساعدة الملك الكامل وحصوله على بيت المقدس حسب اتفاقه معه .

وعُقد اتفاق « يافا » بين الملك الكامل والأمبراطور فردريك سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م الذى تقرر فيه المصالحة بين المسلمين والصلسبيين لمدة عشر سنوات على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة (وهى الأماكن المقدسة عند الصليبيين) ؛ على ألا يحدث الصليبيون أى تغيير فى بيت المقدس وأن يكون الحرم بصخرته ومسجده الأقصى بيد المسلمين وأن يقيم المسلمون فيه شعائرهم .

واستولى فردريك على بيت المقدس ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩م وتوج امبراطوراً فى كنيسة القيامة ، ومكث بالمدينة يومين عاد بعدها إلى عكا .

هذا وقد سخط الناس على الملك الكامل بسبب تنازله عن بيت المقدس للصليبيين دون قتال ، وأثار هذا الحدث أسى المسلمين فى كافة بلاد العالم الأسلامى .

وتوفى الملك الكامل بدمشق (١١ رجب) سنة ٦٣٥ هـ ، بعد أن حكم عشرين عامًا ، وأقيم بعده ابنه السلطان الملك العادل (الثانى) سيف الدين أبو بكر .

٦ - السلطان العادل (الثانى) سيف الدين ابو بكر (٦٣٥ - ٦٣٦ هـ) :

لم يكن عمر هذا السلطان حين تولى حكم مصر يتجاوز الثانية عشرة من العمر ، وكان أخوه الأكبر نجم الدين أيوب أحق منه بالسلطنة ، إلا أن القواد بايعوا العادل لأنه كان نائب أبيه على مصر حين توفى فى دمشق ، فى الوقت الذى كان فيه نجم الدين نائبًا لأبيه على الشرق واقليم ديار بكر ، على أن يظل نجم الدين على ما هو عليه من ولاية الشرق .

لم يرض نجم الدين بما انتهى إليه قواد الأيوبيين من تعيين أخيه العادل (الثانى) ، فسار من بلاد الشرق إلى دمشق ، واستولى عليها سنة ٦٣٦ هـ . وجرت له أمور آخرها أنه سار إلى مصر ، فقبض الأمراء على العادل ، وخلعوه يوم الجمعة (٨ ذو القعدة) سنة ٦٣٦ هـ ، فكانت سلطنته سنتين وثلاثة أشهر . وخلفه من بعده فى السلطنة أخوه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب .

٧ - السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٦ - ٦٤٧ هـ) :

استولى الملك الصالح نجم الدين على قلعة الجبل ، وبدأ حكم مصر وضبط الأمور فيها ، وأقبل على شراء المماليك الترك بأعداد كثيرة واستخدمهم كجنود ، وبنى قلعة الروضة بالجزيرة واتخذها سكنًا ، وفرض سيطرته على مكة وبعث جيشًا لغزو اليمن .

أما ما كان من أمر بيت المقدس فى أيامه والصليبيين ، فإنه نجح فى استرداد بيت المقدس من يد الصليبيين بمساعدة الخوارزمية ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤م ، وخرج الصليبيون منها إلى يافا . وأتحدت القوات الخوارزمية مع قوات الصالح أيوب فى إيقاع الهزيمة بقوات الصليبيين وحلفائهم من أمراء الشام فى معركة غزة فَى نفس العام ، ونجح بذلك الجيش المصرى فى أخذ القدس والخليل ودمشق .

وحين واجهت الصالح أيوب المتاعب من قبل الخوارزمية فى الشام تخلص منهم بعد أن هزمهم ، فتبدد شملهم ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك . وعاد الصالح لمحاربة الصليبيين فاستولى سنة ٦٤٥ هـ / ١١٤٧م على قلعة طبرية ثم على عسقلان .

وكان لأستعادة المسلمين لبيت المقدس سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤م صداه فى أوربا ودعت البابوية ، كالعادة ، لحملة جديدة ضد المسلمين ولم يستجب لهذه الدعوة سوى ملك فرنسا لويس التاسع .

ووصلت حملة لويس إلى دمياط ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م واستولت عليها ، وكان المرض قد أشتد آنذاك على الملك الصالح أيوب ، فحُمل وخرج ليشرف على قواته التى كانت تستعد لهذه الحملة بعد أن وصل خبرها إليه بواسطة الأمبراطور فردريك الثانى.

وتوفى الملك الصالح أيوب بالمنصورة (١٤شعبان) سنة ٦٤٧ هـ / بعد حكم حوالي عشر سنين . فقامت زوجته أم خليل شجر الدر بالأمر وكتمت خبر موته حتى لا يفت في عضد الجنود ، واستدعت توران شاه ابن الملك الصالح من حصن كيفا وسلمت له مقاليد الأمور .

٨ - السلطان الملك المعظم غياث الدين توران شاه (٦٤٨ هـ):

لما وصل أستدعاء شجرة الدر لتوران شاه ، سار من حصن كيفا في نصف شهررمضان ، فمر على دمشق وأقيمت له فيها مراسم السلطنة يوم الأثنين (٢٨ رمضان) ، وركب إلى مصر فنزل الصالحية ، فأعلن حينئذ موت الصالح أيوب ، وكانت الأمور تسير كما كانت أيامه ، وشجر الدر تدير أمر الدولة وتوهم الكافة أن السلطان مريض ما لأحد عليه سبيل ولا وصول . ثم سار توران شاه من الصالحية إلى المنصورة ، وكانت القوات المصرية قد أوقعت الهزيمة بقوات لويس التاسع عند المنصورة بقيادة زعيم المماليك البحرية بيبرس البندقدارى .

وعند وصول توران شاه فكر لويس التاسع فى الأنسحاب إلى دمياط لاعادة ترتيب صفوفه لمعاودة الهجوم على العاصمة . لكن المرض وقلة الأمدادات وانقضاض سفن المسلمين على مراكبه جعلته يشرع فى طلب الصلح على أساس ترك دمياط مقابل إعادة بيت المقدس للصليبين ، لكن توران شاه رفض عرضه لتأكده من النصر .

وعند محاولة الصليبيين الانسحاب التقى بهم جيش مصر فى منتصف الطريق إلى دمياط ، عند فارسكور ، وأوقعوا بهم الهزيمة الساحقة ووقع الجيش الصليبى جميعه وعلى رأسه الملك لويس التاسع أسرى فى يد المصريين . وساق المصريون الأسرى جميعهم مكبلين بالأغلال وسجنوا ، وسجن لويس التاسع فى دار القاضى ابن لقمان .

وفى غضون الأحتفال بالنصر ، قتل توران شاه (فى المحرم) سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م ، قتله المماليك البحرية بالأتفاق مع زوج أبيه شجر الدر ، لتضييقه عليهم وعليها وتهديده لهم . قتلوه بعد سبعين يومًا من وصوله إلى أرض مصر .

وبموت توران شاه انقضت دولة بنى أيوب من ديار مصر ، بعدما حكمت احدى وثمانين عامًا ، وملك منهم ثمانية ملوك ، وهى دولة خير ما يذكر لها هو جهادها ضد الصليبيين وحماية مصر من الوقوع فى قبضة هؤلاء الصليبيين .

آثار الدولة الأيوبية المعمارية الباقية :

من أهم آثار الدولة الأيوبية المعمارية الباقية حتى الآن قلعة صلاح الدين ، مكان القلعة المشرفة على القاهرة اليوم . ولا تزال الكتابة الأثرية التى حفرت على باب المدرج ، أقدم أبواب القلعة ، تتضمن نصا تاريخيًا يشير إلى بناء صلاح الدين لهذه القلعة سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣م بإشراف أخيه الملك الكامل ووزيره بهاء الدين قراقوش . كذلك هنالك بقايا سور القاهرة الذى أراد ببنائه أن يحيط بالقاهرة والقلعة والفسطاط .

ومن هذه الآثار بقايا المدارس التى أنشأوها فى مصر ، وهى « المدرسة الكاملية » التى لم يتبقى منها إلا خرائب بشارع المعز لدين الله الفاطمى (شارع بين القصرين) ، وكانت تعرف بدار الحديث الكاملية ، أنشأها السلطان الملك الكامل إبن الملك العادل بن أيوب سنة ٦٢٢ هـ .

والمدرسة الصالحية التى أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، ولا تزال قائمة الآن فى شارع المعز أمام مستشفى قلاوون . وكان موضع هذه المدرسة من جملة القصر الشرقى الكبير سنة ٦٣٩ هـ ، ورتب فيها دروسًا أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة فى سنة ٦٤١ هـ .

كذلك مازالت متبقية الآن القبة التى بناها السلطان الملك الكامل سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١م على قبر الأمام الشافعى وضريحه . وأيضًا مازالت قبة ضريح فخر الدينا اسماعيل بن ثعلب الواقعة فوق ضريحه الكائن بالقرب من مشهد الأمام الشافعى .

ولا تزال أيضًا القبة التى بنتها شجر الدر فوق قبر زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، الذى يقع أمام مسجد السيدة رقية فى شارع الخليفة الحالى بمنطقة الخليفة بالقاهرة .

٦ - حكم دولة المماليك لمصر

(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)

المماليك هم الرقيق الأبيض ، الذين توافدوا على بلاد العالم الأسلامى منذ العصر العباسى الأول ، وكانوا فى معظمهم يجلبون من منطقة التركستان الروسية ، فى البلاد التى عرفها المسلمون باسم بلاد ما وراء النهر . وكانت هذه البلاد سوقًا هامًا لتجارة الرقيق الأبيض وكانت مدينة سمرقند أهم مراكزها .

وقد كثر استخدام هؤلاء المماليك فى جيوش الدولة الأسلامية ، ووصلوا إلى أعلى القيادات فيها حتى صاروا أرباب النفوذ والسلطان فيها وفى الدول التى كانوا تابعين لها . وكان الأيوبيون قد أكثروا من شراء هؤلاء المماليك وأتخذوهم عساكر لهم يحاربون بهم أعداءهم فى الداخل وفى الخارج . وكانت كل مجموعة من هؤلاء المماليك تنتسب إلى صاحبها الذى اشتراها من تجار الرقيق وتتسمى باسمه ، فالأسدية مثلاً تنتسب إلى أسد الدين شيركوه ، والصلاحية إلى صلاح الدين والعادلية إلى العادل والكاملية إلى الكامل والصالحية إلى الصالح بن الكامل ... وهكذا .

وكان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، قد استكثر من استخدام هؤلاء المماليك فى جيشه وحرسه الخاص بعد أن تعرض لمؤامرات كثيرة من أقاربه قبل توليه السلطنة . وقد وصل الصالح إلى السلطنة بمساعدة هؤلاء المماليك . واشترى الصالح أعداداً كبيرة من هؤلاء المماليك الأتراك من منطقة خوارزم حوالى الألف مملوك وسماهم المماليك الصالحية ، وأسكنهم قلعة الروضة التى أنشأها لنفسه فى بحر النيل وأتخذها سكنًا له ولمماليكه ، فسمى هؤلاء المماليك الصالحية باسم المماليك البحرية .

ولقد أبلت هذه الجماعة فى محاربة الصليبيين حين هاجموا دمياط ، وكان لهم الفضل فى مساعدة المصرين فى هزيمة الصليبيين فى معركة فارسكور والمنصورة فظهرت قوة هؤلاء المماليك من وقتها واشتهرت .

ولما مات الصالح وتولت أمر مصر من بعده زوجته شجر الدر ، وأرسلت لتوران شاه ليتولى الأمور ، قام توران شاه بالتضييق على شجر الدر ومحاسبتها وأظهر رغبته فى التخلص من المماليك البحرية . وكان « أقطاى » من أكابر المماليك البحرية ، ساعد توران شاه فى حربه ضد الصليبيين ووعده بأمرة ولم يف له . فقام أقطاى بالأتفاق مع بقية قواد البحرية وشجر الدر بقتل توران شاه .

وأجمع قواد البحرية على أن يقيموا « شجر الدر » فى السلطنة بعده ، وأن يكون الأمير عز الدين أيبك التركمانى مقدم العسكر . وتولت شجر الدر حكم مصر لمدة ثمانين يومًا ، وتولت تدبير الأمر فى البلاد ، ووقعت بأسم « أم خليل » ، ونقشت اسمها على السكة . وتعتبر شجر الدر أول امرأة تحكم فى تاريخ مصر الأسلامية ، وهى تعتبر أول من حكم فى دولة المماليك .

وتزوجت شجر الدر من عز الدين أيبك ، وتنازلت له عن السلطة ، بعد أن استنكر الخليفة العباسى « المستعصم بالله » على المصريين أن تحكمهم امرأة وأرسل لهم من بغداد كتابًا يعاتبهم ويعايرهم فيه على ذلك .

ولقد حكم المماليك مصر ، حتى الفتح العثمانى لمصر مدة ٢٧٤ عامًا ، حكم النصف الأول منها : المماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٤ هـ) وحكم النصف الثانى : المماليك البرجية (الجراكسة) ٧٨٤ - ٩٢٢ هـ .

أ - دولة المماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٤ هـ) :

١ - أم خليل (شجر الدر) : (٦٤٨ - ٦٤٨) .

٢ - السلطان الملك المعز عز الدين أيبك (٦٤٨ - ٦٥٥ هـ) .

٣ - السلطان الملك المنصور نور الدين على بن المعز (٦٥٥ - ٦٥٧ هـ) .

٤ - الملك المظفر سيف الدين قطز (٦٥٧ - ٦٥٨ هـ) .

٥ - الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ) .

٦ - السلطان السعيد ناصر الدين محمد بركة (٦٧٦ - ٦٧٨ هـ)

٧ - السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر (٦٧٨ - ٦٧٨ هـ) بيبرس

٨ - السلطان المنصور سيف الدين قلاوون . (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ)

٩ - السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ)

١٠ - الملك الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون ٦٩٣ (السلطنة الأولى -٦٩٤ هـ) (السلطنة الثانية : ٦٩٨ - ٧٠٨ هـ) (السلطنة الثالثة : ٧٠٩ - ٧٤١ هـ) .

١١ - العادل زين كتبغا . (٦٩٤ - ٦٩٦ هـ)

١٢ - السلطان حسام الدين لاجين المنصوری . (٦٩٦ - ٦٩٨ هـ)

١٣ - السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير . (٧٠٨ - ٧٠٩ هـ)

١٤ - السلطان المنصور سيف الدين أبو بكر . (٧٤١ - ٧٤٢ هـ)

١٥ - السلطان الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر . (٧٤٢ - ٧٤٣ هـ)

١٦ - السلطان الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر . (٧٤٣ - ٧٤٣ هـ)

١٧ - الملك الصالح عماد الدين أسماعيل . (٧٤٣ - ٧٤٦ هـ)

١٨ - الملك الكامل سيف الدين شعبان . (٧٤٦ - ٧٤٧ هـ)

١٩ - الملك المظفر زين الدين حاجی . (٧٤٧ - ٧٤٨ هـ)

٢٠ - الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالی . (٧٤٨ - ٧٥٢ هـ)

٢١ - الملك الصالح صلاح الدين صالح . (٧٥٢ - ٧٥٥ هـ)

٢٢ - الملك المنصور صلاح الدين محمد . (٧٥٥ - ٧٦٤ هـ)

٢٣ - الملك الأشرف أبو المعالی شعبان . (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ)

٢٤ - الملك المنصور علاء الدين علی بن شعبان . (٧٧٨ - ٧٨٣ هـ)

٢٥ - الملك الصالح زين العابدين حاجى بن شعبان (٧٨٣ - ٧٨٤ هـ) .

ولقد أقيم عز الدين أيبك سلطانًا (آخر جمادى الآخرة) سنة ٦٤٨ هـ ، باسم « الملك المعز » . وبعد سلطنته بخمسة أيام ثارت المماليك البحرية الصالحية وأرادوا أن يكون عليهم سلطانًا من بنى أيوب يجتمع الكل على طاعته . وقد قام بهذا الأمر من الأمراء البحرية الصالحية : فارس الدين أقطاى ، وركن الدين بيبرس البندقدارى ، وسيف الدين بلبان الرشيدى ، وشمس الدين سنقر الرومى وأتفقوا على أن يكون الملك المعز أتابكًا عليهم ، وأختاروا أن يقيموا صبيًا عليهم من بنى أيوب يكون له السلطة وهم يدبرونه كيف شاءوا . فوقع الأتفاق على الملك الأشرف مظفر الدين موسى إبن الملك الناصر يوسف الأيوبى ، وكان صبيًا يبلغ من العمر عشر سنوات ، فأحضروه وسلطنوه وخطبوا له وجعلوا الملك المعز أيبك أتابكه .

ولقد نجح المعز فى القضاء على مناوئيه من أمراء المماليك البحرية وبخاصة أقطاى (سنة ٦٥٢ هـ) ، وقام بخلع الملك الأشرف موسى الأيوبى ، وأستقل بالملك استقلالاً تامًا ، وكان الأشرف موسى آخر حكام الأيوبيين فى مصر .

ولم يزل المعز فى سلطته بعد أن تخلص من مناوئيه إلى أن كانت نهايته على يد زوجته شجر الدر (٢٣ ربيع الأول) سنة ٦٥٥ هـ ، بعد حكم دام سبع سنين . وكان سبب قتله أنه أراد أن يتزوج من إبنة الملك الرحيم صاحب الموصل ، وكانت شجر الدر شديدة الغيرة فعملت على قتله فقتلته وهو فى الحمام وأعانها على ذلك جماعة من الخدام .

وخلف المعز فى السلطنة ابنه « الملك المنصور على بن أيبك » ، وكان يبلغ من العمر خمس عشرة سنة ، وقد قام وأمه بقتل شجر الدر وهى فى الحمام ضربًا بالقباقيب . ولم يستمر على فى السلطنة إلا سنتين وسبعة أشهر ، واغتصبها منه أتابكه سيف الدين قطز ، وقام بنفيه هو وأمه سنة ٦٥٧ هـ .

وقام قطز بمحاربة المغول الذين أغاروا على الدولة الأسلامية بقيادة « هولاكو » وأسقطوا الخلافة العباسية واستولوا على بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م واستولوا على حلب والشام حتى غزة ، فهزمتهم قوات مصر بقيادة قطز فى معركة « عين جالوت » سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م ، فكانت هذه الواقعة أول هزيمة تنزل بالمغول منذ قامت دولتهم .

ودخل قطز دمشق وعاد منها إلى مصر ليحتفل بالنصر ، لكن الأمير بيبرس البندقدارى قام بقتله بالقرب من القصير (١٧ ذى القعدة) سنة ٦٥٨ هـ ، بعد حكم لمدة عام واحد .

وتولى السلطنة من بعده الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، والذى حكم مصر مدة ١٧ سنة ، وتوفى فى دمشق سنة ٦٧٦ هـ ، وكان من أعظم سلاطين المماليك ويعتبر المؤسس الحقيقى لدولتهم لما قام به من تنظيم للإدارة الحكومية واستحداث الكثير من الوظائف الهامة ، فضلاً عن اعداد جيش قوى وأسطول كبير ليحارب به أعداء الدولة من صليبيين ومغول .

ومن أهم أعمال بيبرس احياء الخلافة العباسية ومبايعة المستنصر بالله بها ونقل مقرها إلى القاهرة سنة ٦٥٨ هـ ، وذلك لأكتساب حكم المماليك الشرعية فى حكم مصر . كذلك استحدث نظام ولاية العهد فى دولة المماليك ، فورث العرش ، بناء على ذلك ، اثنان من أبنائه من بعده : السعيد بركة خان ثم العادل بدر الدين سلامش .

وعن حروب بيبرس مع الصليبيين نجد أنه يواصل حروب الأيوبيين ضدهم ، ولقد تجددت هذه الحرب معهم برغم الهزيمة التى لحقت بالملك لويس التاسع فى المنصورة . ذلك لأن هذا الملك اتجه إلى عكا بعد فك الأيوبيين أسره ورحب به الصليبيون هناك . وحاول لويس التاسع لمدة أربع سنوات قضاها فى عكا أن يجهز حملة صليبية جديدة

ضد مصر دون جدوى ، كذلك حاول أن يتحالف مع الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق لأستعادة دولة الأيوبيين من المماليك مقابل اعادة بيت المقدس للصليبيين . لكن هذا الاتفاق لم يتم بسبب مصالحة عز الدين أبيك للناصر يوسف سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣م . وانتهى الأمر بلويس التاسع أن أضطر للعودة إلى فرنسا فى العام التالى دون أن يحقق أحلامه الصليبية ودون أن يثأر لكرامته من المسلمين .

ولقد حارب بيبرس الصليبيين ، وبدأ حملاته ضدهم سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥م فأستولى منهم على قيسارية وحيفا وأرسوف . وفى العام التالى أستولى على صفد وهاجم أرمينيا الصغرى ، واستولى على يافا وحاصر أنطاكية أقوى الأمارات الصليبية الباقية بالشام واستولى عليها .

وكان لإستيلاء بيبرس على أنطاكية أثر هام فى كسر شوكة الصليبيين . كذلك قام بيبرس سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠م بمهاجمة جزيرة قبرص بسبب مساعدة مليكها للصليبيين .

أما بشأن المغول فإنهم بعد وفاة جنكيزخان انقسموا إلى معسكرين : مغول فارس ومغول القبجاق (القبيلة الذهبية) ، شمالى بحر قزوين والبحر الأسود . هذا ولم ينسى المغول ما حل بهم فى عين جالوت ، فأرتدوا مؤقتاً إلى ما وراء الفرات على أمل تجميع صفوفهم وإعادة هجومهم على بلاد الإسلام . لذلك تكررت اغاراتهم على بلاد الشام بين حين وآخر طوال عصر المماليك . وقد حاول المغول إقامة جبهة موحدة مع الصليبيين ضد المسلمين ، لكن الظاهر بيبرس نجح فى إفشال هذا المشروع المغولى الصليبى ، بعقده تحالف مضاد مع ملوك القبجاق ، وساعد على إتمام هذا التحالف بينهما اعتناق الملك بركة خان « للدين الإسلامى » .

وتأكدت أواصر التحالف بين الجانبين بزواج الظاهر بيبرس من ابنة بركة خان ، وأصبح التحالف بين مصر ومغول القبجاق ، منذ ذلك الوقت وكنا تقليديًا من أركان سياسة دولة المماليك بمصر والشام ، وساعد هذا التحالف فى وقوف سلاطين المماليك موقفًا حازمًا من مغول فارس .

وفى سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥م هاجم المغول بلدة البيرة وحاصروها فسارع بيبرس بقواته ليفك الحصار عنها فهرب المغول وفكوا الحصار عنها بعد أن أحسوا بمقدمه .

وبعد موت هولاكو فى نفس العام ، خلفه ابنه أبغا ، الذى حاول الصلح مع بيبرس ، لكن بيبرس لم يجبه إلى ذلك بسبب اساءتهم لدولة الإسلام . فرد الملك المغولى على هذا الرفض من جانب بيبرس بمحاولة اقامة حلف صليبى مغولى ضد المسلمين .

وقام المغول بعدة غارات على حلب ، قام بيبرس على أثرها بأرسال قواته لأبعادهم عنها ، وأستمرت هذه المناوشات بين الطرفين الإسلامى والمغولى حتى وفاة بيبرس سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧م .

ولقد حدثت فترة أضطراب فى الدولة المملوكية عقب بيبرس حتى تولى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الحكم سنة ٦٧٨ هـ ، تولى الحكم فيها اثنان من أبنائه الصغار هما : محمد بركة وبدر الدين سلامش حاول المغول خلالها مهاجمة دولة المماليك والأستفادة من هذا الأضطراب ، إلا أن تولى قلاوون الحكم أوقف أطماعهم على مدينة حلب . وقد أرسل قلاوون جيشه للتصدى لقواتهم عند حلب ، ولكنهم ارتدوا عنها حينما علموا بمقدم قواته سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠م . وعاود المغول هجومهم فى العام التالى على مدينة حماه لكن جيوش قلاوون هزمتهم قرب حمص ، مما أضطر ملك المغول أبغاخان إلى الهرب بفلول جيشه إلى بغداد ، ووفاته هناك بعد ذلك بعامين

وقد تولى حكم المغول بعده ابنه « تكودار » الذى اعتنق الإسلام وتسمى بأحمد ، وحاول أحمد تكودار التصالح مع دولة المماليك ، لكن قواده المغول أعترضوا على محاولة الصلح وقاموا بقتله وتعيين ابن أخيه « أرجون » فى حكم مغول فارس ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤م .

ولقد كان أرجون يكره المسلمين ، فقام بقتل أعداد كبيرة منهم فى البلاد التى حكمها ، الأمر الذى أدى إلى معاداة دولة المماليك له . ويعتبر أرجون مؤسس دولة المغول الإيلخانية المعادية لدولة المماليك . ولقد ظلت هذه الدولة على حرب مع عدد كبير من سلاطين دولة المماليك البحرية .

ولقد ورث السلطان قلاوون أبناءه حكم مصر من بعده ، وظلت فى بيته حتى نهاية دولة المماليك البحرية سنة ٧٨٤ هـ . وحين تولى السلطة « السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون » سنة ٦٨٩ هـ قام بالأغارة على بلاد المغول وحاصر قلعة الروم معقل نشاطهم واستولى عليها ، وتم ذلك فى عهد حكم « غازان » حاكم المغول بعد موت « أرجون » .

ولم تتوقف حروب خليل بن قلاوون على المغول ولكنه اقتلع آخر قلاع الصليبيين من بلاد الشام حين استولى على عكا وحاصرها عشرة أيام ونصب عليها ٩٢ منجنيقًا وسقطت فى يد المسلمين سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م ، وبعد سقوط عكا سارت قواته فى الأشهر التالية للفتح لإجلاء القوات الصليبية من بقايا مدن الساحل السورى التى كانت لا تزال فى أيديهم . فاستولت هذه القوات على صور وحيفًا وصيدا ، وبذلك قطع دابرهم عن الشام ، ودالت دولتهم وأزيل الدنس الصليبى من أرض الشام .

ومع أن القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، قد انتهى بتصفية الوجود الصليبى نهائيًا من بلاد الشام ، إلا أن القرون التالية لهذا القرن شهدت رد

فعل صليبى عنيف واستخدام سلاح آخر غير سلاح الحرب وهو سلاح المقاطعة الأقتصادية ومنع الأتجار مع بلاد العالم الإسلامى . ولقد خيل لقادة الصليبيين أن حرمان مصر من ثرائها الأقتصادى سيؤدى حتمًا إلى ضعفها العسكرى وبالتالى يؤدى إلى هزيمتها عسكريًا واستعادة بيت المقدس من يد المسلمين .

غير أن هذه الدعوة فى العهد المملوكى لم يكتب لها النجاح ، ذلك لغلبة المصالح الخاصة على الوازع الدينى ، فلقد رفضت المدن الإيطالية التجارية (جنوة وبيزا والبندقية وأمالفى) هذه الدعوة لأنها كانت تستفيد استفادة عظيمة من المشاركة فى تجارة الشرق العالمية التى تمر فى بلاد المسلمين . ولقد نجحت الدولة المملوكية فى إفشال هذه المقاطعة بتقديمها التسهيلات والإمتيازات لتجار أوربا فى بلادهم ، مؤكدين ذلك فى المعاهدات والاتفاقات التجارية التى عقدوها مع دولهم وحكوماتهم .

ويعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون الذى قارب النصف قرن فى الحكم أزهى عصور المماليك البحرية ، فقد استقرت فيها دعائم الدولة . وبرغم أن الناصر تولى الحكم ثلاث مرات إلا أنه فى المرتين الأوليتين كان طفلاً صغيراً ، لكنه فى المرة الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هـ) كان قد صلب عوده وأشتد ، ونجح فى دعم حكمه والتخلص من أعدائه وإقامة الحكم المستقر الآمن الذى لم تعرفه مصر فى عهد سابقيه . ولقد أدى الأستقرار فى البلاد إلى رخاء الحال وإصلاح مسار الأقتصاد وتقدم العلوم وازدهار الفنون . حتى أن المؤرخين يعتبرون عصره أزهى عصور الفن فى تاريخ مصر الإسلامية عامة ، ويشهد على ذلك مقدار ما خلفه من مبانى وعمائر ومساجد وآثار قيمة لازالت قائمة تتحدى الزمن حتى الآن .

وفى عهد الناصر وقعت الهزيمة الثانية الساحقة للمغول فى معركة « مرج الصفر » بالقرب من دمشق ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢م ، ولقد قتل فى هذه المعركة أعداد

هائلة من المغول ، حتى أنهم بعدها جنحوا إلى السلم ولم يفكروا ثانية فى محاربة العالم الإسلامى ، وكان لهذه المعركة فى العالم الإسلامى نفس صدى معركة عين جالوت فى بداية عهد المماليك .

وقد أدت نتيجة هذه المعركة إلى مرض غازان حاكم مغول فارس ، الذى تولى قيادتهم بعد موت أرجون ، وما لبث غازان أن مات حزنًا وكمدا بعد ثلاث سنوات من المعركة . وبادر خلفه « أولجاتيو » إلى طلب ود السلطان الناصر وإقامة العلاقات الطيبة بين دولته ودولة المماليك .

وتوطدت العلاقات بين مغول فارس والمماليك بعد موت أولجاتيو وولاية ابنه « بوسعيد » سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦م ، وتوقيعه معاهدة الصلح مع الملك الناصر . واستمر هذا الصلح قائمًا طوال عهد السلطان بوسعيد حتى وفاته ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م

وبوفاة بوسعيد دب الأضمحلال فى دولة مغول فارس والعراق ، فأضطربت أحوالها وانقسمت فيما بينها ، وسادها التمزق والأنحلال . ورغم هذه الحالة السيئة التى عاشتها الدولة احترمت حكومة الملك النّاصر تعهداتها مع المغول ، ولم تقم بمحاربتها وانصرفت عن الحرب إلى إصلاح أحوال البلاد .

وفى نفس الوقت استمرت علاقة دولة الناصر محمد الطيبة مع مغول القبجاق (القبيلة الذهبية) استمراراً للعلاقة الطيبة التقليدية بين هذه الدولة ودولة المماليك . ولقد استمر تبادل الهدايا واستمرت المصاهرة بينهما . فكما تزوج الظاهر بيبرس من ابنه الملك بركة خان ، تزوج السلطان الناصر محمد من أميرة مغولية قريبة للملك أزبك خان .

واستمرت الصداقة قائمة حتى لقيت دولة مغول القبجاق نهايتها على يد قوات الفاتح المغولى العظيم « تيمور لنك » فى أواخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى . وتلاشت هذه الدولة تمامًا من الوجود فى القرن التالى .

هذا وقد تعاقب على حكم مصر ، بعد وفاة الناصر محمد ، ثمانية سلاطين من أبنائه وأربعة من أحفاده إلى أن انتهى حكم دولة المماليك البحرية . وقد حكم هؤلاء السلاطين كل منهم سنين قليلة معدودة ، وكانوا فى غالبيتهم يتولون الحكم وهم صغار السن فيتحكم فيهم الأتابكة القواد . وظل الحال كذلك إلى أن ظهر الأمير « برقوق » واستطاع فى سنة ٧٨٤ هـ ، أن يخلع زين الدين حاجى بن شعبان آخر سلاطين بنى قلاوون والمماليك البحرية ، ليؤسس دولة مملوكية جديدة عرفت بدولة المماليك البرجية أو المماليك الجراكسة ، لتحكم مصر حتى الفتح العثمانى لها سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٦م

ب - دولة المماليك البرجية (الجراكسة) ٧٨٤ - ٩٢٤ هـ:

١ - الظاهر سيف الدين برقوق	(٧٨٤ - ٨٠١ هـ)
٢ - الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق	(٨٠١ - ٨٠٨ هـ)
٣ -والمنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق	(٨٠٨ - ٨١٥ هـ)
٤ - العادل المستعين بالله أبو الفضل العباس	(٨١٥ - ٨١٥ هـ)
٥ - المؤيد سيف الدين شيخ المحمودى	(٨١٥ - ٨٢٤ هـ)
٦ - المظفر شهاب الدين أحمد بن المؤيد شيخ	(٨٢٤ - ٨٢٤ هـ)
٧ - الظاهر سيف الدين ططر	(٨٢٤ - ٨٢٤ هـ)
٨ - الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	(٨٢٤ - ٨٢٥ هـ)
٩ - الأشرف سيف الدين برسباى	(٨٢٥ - ٨٤١ هـ)
١٠ - العزيز جمال الدين يوسف بن برسباى	(٨٤١ - ٨٤٢ هـ)
١١ - الظاهر سيف الدين جقمق	(٨٤٢ - ٨٥٧ هـ)
١٢ - المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	(٨٥٧ - ٨٥٧ هـ)
١٣ - الأشرف سيف الدين اينال	(٨٥٧ - ٨٦٥ هـ)
١٤ - المؤيد شهاب الدين أحمد بن اينال	(٨٦٥ - ٨٦٥ هـ)

١٥ - الظاهر سيف الدين خشقدم	(٨٦٥ - ٨٧٢ هـ)
١٦ - الظاهر سيف الدين بلباى	(٨٧٢ - ٨٧٢ هـ)
١٧ - الظاهر تمربغا	(٨٧٢ - ٨٧٢ هـ)
١٨ - الأشرف سيف الدين قايتباى	(٨٧٢ - ٩٠١ هـ)
١٩ - الناصر محمد بن قايتباى	(٩٠١ - ٩٠٤ هـ)
٢٠ - الظاهر قانصوه	(٩٠٤ - ٩٠٥ هـ)
٢١ - الأشرف جامبلاط	(٩٠٥ - ٩٠٦ هـ)
٢٢ - العادل سيف الدين طومان باى	(٩٠٦ - ٩٠٦ هـ)
٢٣ - الأشرف قانصوه الغورى	(٩٠٦ - ٩٢٢ هـ)
٢٤ - الأشرف طومان باى	(٩٢٢ - ٩٢٣ هـ)
الفتح العثمانى	(٩٢٣ - ٩٢٣ هـ)

سميت دولة المماليك الثانية بالبرجية لأن المنصور قلاوون كان قد أكثر من شرائهم من بلاد الروس من منطقة خوارزم وأسكنهم فى أبراج القلعة وسماهم البرجية ، وكان عدد من اشتراهم قلاوون منهم ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك . وسموا أيضًا بالمماليك الجراكسة لأنهم من الجركس سكان بلاد جورجيا وخوارزم بين بحر قزوين والبحر الأسود

وكان أول حكام المماليك البرجية « السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق » ، وكان قد جلب من بلاد الجركس وبيع ببلاد القرم وجئ به إلى القاهرة فأشتراه الأمير المملوكى الكبير يلبغا الخاصكى وأعتقه وجعله من جملة مماليكه فعرف ببرقوق اليلبغاوى .

واستطاع برقوق أن يقيم نفسه سلطانًا سنة ٧٨٤ هـ ، وأن يخلفه من بعده سلاطين الجراكسة الذين ظلوا يحكمون مصر حتى الفتح العثمانى لها . وكان أبرز

مظاهر دولة المماليك الجراكسة الأضطرابات والحروب الداخلية بين الأمراء بعضهم وبعض للوصول إلى الحكم . وتلك الفتن والثورات التى صاحبت هذا الصراع . لذلك نجد هذه الدولة تستبعد مبدأ الوراثة فى الحكم كما فعلت سابقتها دولة المماليك البحرية ، وصار الحكم للسلطان الأقوى صاحب العددالأكبر من المماليك .

ولقد كان من مظاهر هذه الدولة أيضًا قصر حكم سلاطينها إلا العدد القليل منهم الذين حكموا فترات طويلة نسبيًا مثل برقوق وبرسباى وجقمق وقايتباى والغورى .

وصارت مصر فى عهد دولة المماليك الجراكسة امبراطورية كبيرة ، وصارت القاهرة قبلة العالم آنذاك . وتميز هذا العصر المملوكى بكثرة العمارة وعظم الأنشاءات ، ويشهد على ذلك تلك المجموعة الهائلة من المساجد التى خلفوها فى القاهرة ، فضلاً عن القباب والخوانق والقصور والمدارس والخانات والأسبلة والمستشفيات . ويشهد أيضًا على هذا الأزدهار الحضارى لمصر المملوكية تلك التحف المنقولة المتعددة والتى تزين متحف القاهرة الإسلامى ومتاحف العالم جميعها فى الشرق والغرب .

وشهدت هذه الدولة المملوكية البرجية الموجةالثانية من هجملت المغول (التتار) على الدولة الإسلامية بقيادة زعيمهم « تيمور لنك » وتصديهم لها ، كما تصدى المماليك البحرية للموجة الأولى التى قادها ضد بلاد العالم الإسلامى « هولاكو » قائد مليكهم جنكيزخان . كذلك تصدى هؤلاء المماليك لبقايا الخطر الصليبى التى أستهدف مصر ، كما تصدى للخطر العثمانى الذى استطاع أن يقتلع دولتهم وينهى حكمهم فى مصر .

وقد داهم المغول دولة الجراكسة منذ قيامها ، فى عهد أول سلاطينها برقوق ، كما داهم خطرهم دولة البحرية عند قيامها فى عهد أول سلاطينها عز الدين أيبك .

وكان تيمور لنك (٧١٦ - ٨٠٧ هـ) حاكما لسمرقند فى إقليم ما وراء النهر واستطاع أن يضم إليه خوارزم وشمال فارس وآذربيجان ومنطقة جورجيا كذلك استطاع أن يقض على دولة المغول القبجاق (القبيلة الذهبية) ، ووصلت هجماته إلى العراق وبلاد الشام .

ولقد صحب حملات هولاكو الدمار والتخريب والقتل والإبادة الأمر الذى أفزع الناس وأصابهم بالهلع وجعلهم يهربون من أمام قواته خوفا من الوقوع فى يده .

واستولت قوات تيمور لنك على الرها من بلاد الشام سنة ٧٨٩ هـ وخربوها ، وهاجمت قواته مدينة ملطية فأرسل برقوق حملة فى نفس العام قصدت حلب وديار بكر لتلتقى هنالك بجزء من قوات تيمور لنك وتهزمها ، وكان مرد هذا النصر إلى انشغال تيمور لنك بحربه لمغول القبجاق فى حوض نهر الفلجا وانشغاله بفتوحه فى الهند .

وبعد أن أنهى تيمور لنك حربه مع مغول القبجاق وفى بلاد الهند توجه لمحاربة مصر ، فأرسل سنة ٧٩٧ هـ رسالة إلى برقوق تحمل نفس التهديد الذى حملته رسالة هولاكو إلى قطز من قبل . فرد عليه برقوق برسالة تحمل التحدى وتعلن الاستعداد للحرب والنزال ، وترجم برقوق كلامه بالعمل إذ جهز جيشه فى العام التالى وخرج على رأسه إلى بلاد الشام متوجها إلى حلب لملاقاة قوات تيمور لنك ، غير أن برقوق اكتشف أن تيمور لنك عاد إلى بلاده بسبب بعض المشاكل التى واجهته هناك ، فرجع برقوق بقواته إلى مصر دون قتال ، وتأجل اللقاء والنزال .

توفى برقوق سنة ٨٠١ هـ وخلفه من بعده ابنه الناصر الدين فرج (٨٠١ - ٨٠٨ هـ) ، الذى واجه الغزو التتارى ، ففى السنة التالية لتوليه أمر السلطنة قاد تيمور حملة كبرى من رجال التتار واتجه واستولى على مرعش ، وتقدم بعد ذلك إلى

حلب وأباد الحامية المصرية التى كانت ترابط فيها ، ثم استولى على حلب ونهبتها قواته لمدة شهر كامل .

ووصلت أخبار هجمات تيمور لنك إلى مصر ونجاح هذه الهجمات وأعمال العنف والدمار التى صاحبتها ، ففزع الناس وخافوا وهرب الكثير منهم إلى بلاد الصعيد .

واستولى تيمور لنك على حمص وبعلبك واتجه شاقا طريقه إلى دمشق سنة ٨٠٢ هـ ، فخرج السلطان فرج على رأس جيشه لمنع تيمور لنك من فتح دمشق . وعسكرت القوات المصرية خارج دمشق والتقت هنالك بقوات التتار ، وهزمت هذه القوات هزيمة كبيرة فما كان من السلطان فرج إلا أن يطلب الصلح ويعود بفلول جيشه إلى مصر .

واستخدم تيمور لنك الخديعة فى فتح دمشق بعد أن امتنعت عليه فأعطى لأهلها الأمان إذ هم لم يقاتلوه ، ولما وافقوا على ذلك وفتحت له المدينة أبوابها ، نقض تيمور أمانه وأقام مذبحة قتل فيها نحو عشرة آلاف من أطفالها المسلمين حقدا وكراهية لأهل دمشق . كذلك قام بسبى نساء المدينة وجمع صناعها وأرباب الحرف فيها وقام بترحيلهم إلى سمرقند ليسخرهم هناك فى مشروعاته . وفرض تيمور لنك على أهل دمشق الأموال الطائلة جزاء لمقاومة أهلها واستبسالهم فى الدفاع عنها .

وترك تيمور لنك الشام ، عائداً إلى بلاده لإقرار الأمور فيها ، وفى طريق عودته هزم بايزيد العثمانى فى معركة أنقرة سنة ٨٠٤ هـ ، وقفل راجعا إلى سمرقند حيث توفى هناك سنة ٨٠٧ هـ .

وبعد وفاة تيمور لنك تنفست البلاد الصعداء من خطر التتار ، وذلك لأن التقسيم والتمزق أصاب دولته من بعده ، الأمر الذى أدى إلى ضعف قوة التتار بسبب النزاع الذى وقع بين أبناء تيمور لنك وأحفاده والصراع بينهم على تولى السلطة .

واستطاع « شاه رخ » أحد أبناء تيمور لنك الأقوياء ، أن يحكم في منطقة خراسان وفارس وكرمان . ورغم هذه القوة لم تقع حروب بينه وبين دولة المماليك ، ذلك لأن حكام التتار قد جنحوا بعد وفاة زعيمهم تيمور لنك إلى السلام مع الدولة المملوكية .

وقد توفى السلطان فرج بن برقوق مقتولا على يد قواده سنة ٨٠٨ هـ ، وخلفه من بعده أخوه « عز الدين عبد العزيز بن برقوق » (٨٠٨ - ٨١٥ هـ) .

ولقد أظهر ملك التتار « شاه رخ » علاقته المسالمة مع دولة المماليك وحاول التقرب من سلطانها الأشرف سيف الدين برسباى (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) وطلب منه السماح بإرسال كسوة الكعبة التى كان حكام مصر منذ عهد الفاطميين يقومون بإرسالها ورواتب أمراء الحرمين الشريفين . ورفض برسباى طلب الحاكم المغولى ، لأن كسوة الكعبة كانت تمثل آنذاك مظهرا من مظاهر السيادة المصرية على بلاد الحجاز وحماية الحرمين الشريفين . وعاود شاه رخ طلبه ثلاث مرات مع ارساله الهدايا الفاخرة للسلطان دون جدوى .

ولما يئس شاه رخ من إجابة السلطان المملوكى لطلبه بصدد كسوة الكعبة ، أرسل إليه يطلب منه إقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه إلى جانب اسم السلطان المملوكى . ورد برسباى على هذه الرسالة باهانة سفير التتار وإظهار القوة والتحدى ، فتوترت بذلك العلاقة بين شاه رخ وبرسباى ، واستمرت متوترة حتى وفاة برسباى سنة ٨٤١ هـ .

وفى عهد السلطان « سيف الدين جقمق » (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ) تحسنت العلاقات بين المغول والمماليك وتبادلا المراسلات الطيبة والهدايا الثمينة . وسمح جقمق لشاه رخ بإرسال كسوة الكعبة سنة ٨٤٨ هـ علي أن توضع كسوته أسفل كسوة السلطان المملوكى على الكعبة . ووافق شاه رخ على ذلك وظلت العلاقات طيبة بين جقمق وشاه رخ حتى وفاة الحاكم المغولى سنة ٨٤٩ هـ . وقد استمرت هذه العلاقة الطيبة بين سلاطين المماليك البرجية وحكام المغول طوال بقية العهد المملوكى .

وفى الوقت الذى تحسنت فيه العلاقات المصرية المغولية فى عهد برسباي وجقمق ، ساءت العلاقات مع الصليبيين . وكان الصليبيون قد توقفوا عن ارسال الحملات المنظمة ضدمصرواستعاضوا عنها بالقيام بعمليات تخريب واسعة للموانى المصرية والشامية على يد قراصنتهم الكتلان بالتعاون مع القبارصة و فرسان الإسبتارية بجزيرة رودس وذلك بقصد ضرب الحركة التجارية للموانى الإسلامية فى كل من مصر والشام.

لقد ردت مصر المملوكية فى عهد برسباى على هذا العمل الصليبى العدوانى الجديد بإرسال غزوات إنتقامية على جزيرتى قبرص ورودس ، معقل هؤلاء القراصنة الصليبيين . ونجحت هذا الغزوات فى استيلاء المسلمين فى عهد برسباى على جزيرة قبرص ٨٣٠ هـ - ١٤٢٦ م وتهديد جزيرة رودس واتعابها فى عهد السلطان جقمق . ولقد استمرت جزيرة قبرص منذ ذلك الوقت تابعة لمصر حتى زوال السلطنة المملوكية ، ولم تسقط رودس فى يد المسلمين إلا بعد سنة ١٥٢٢م حين خضعت للسيادة العثمانية وانتقل مركز الإسبتارية منها إلى جزيرة مالطة حيث ظلوا هناك إل أيام نابليون .

وقد حاول الصليبيون فى هذا القرن إدخال الحبشة المسيحية إلى جانبهم فى الحرب ضد مصر المملوكية ، وذلك بإرسال حملة صليبية مزدوجة تطبق على مصر من الشمال ومن الجنوب برا وبحرا فى وقت واحد . لكن هذا الحلف الصليبى الجديد لم يكتب له النجاح ، بسبب نجاح المماليك فى عزل ملك الحبشة عن هذا الصراع .

كذلك ظهرت على مسرح الأحداث آنذاك الدولة العثمانية إلى جانب القوة الإسلامية ، وصارت منذ بداية هذا القرن التاسع خطراً داهمًا بات يهدد بلاد أوربا جميعها بعد أن ضمت بلاد البلقان إلى ممتلكاتها وصارت جيوشها تستعد لغزو وسط أوربا .

وأشتدت الحرب الصليبية أيضًا فى بلاد المغرب الإسلامى والأندلس ونجح الصليبيون هنالك فى انهاء الحكم الإسلامى فى الأندلس بعد أن دام فيها ثمانية قرون.

كما دفعت هذه الروح الصليبية البرتغاليين لكشف طريق جديد للوصول إلى بلاد الهند وبلاد الحبشة والبحث عن طريق تجارى بديل لطريق البحرين المتوسط والأحمر ، وذلك بقصد حرمان بلاد العالم الإسلامى ، وبخاصة مصر كبرى هذه البلاد ، من عائد التجارة العالمية الذى هو سبب ثرائه الأقتصادى أساس قوته العسكرية .

أهم الآثار المعمارية الباقية من عصر دولة المماليك :

المساجد : أقدم هذه المساجد مسجد الظاهر بيبرس البندقدارى ، الذى بناه الملك الظاهر سنة ٦٦٥ هـ ، وأشرف على بنائه الأمير علم الدين سنجر السرورى متولى القاهرة . وقد أمر الظاهر بيبرس أن يدفن فى هذا المسجد ، والمسجد باق الآن فى منطقة الظاهر بالعباسية .

ومن أجمل مساجد المماليك البحرية مسجد السلطان حسن بالقلعة الذى بناه السلطان حسن بن الناصر سنة ٧٥٧ هـ . واستغرق البناء فيه مدة ثلاث سنوات ، وكان يصرف عليه فى كل يوم عشرون ألف درهم . ويتميز هذا المسجد بقبته الكبيرة التى لم يبن مثلها فى أى من بلاد العالم الإسلامى ، فضلاً عن منبره المصنوع من الرخام الخالص .

ومن المساجد الجامعة الباقية : جامع سنجار وسلار ، وجامع الغورى ، وجامع برقوق ، ومسجد قايتباى الذى احتوى على مدفن السلطان وكان الفرغ منه سنة ٩٠٠ هـ ، وهو من المساجد المملوكية الجميلة المتبقية حتى الآن . ومن أشهر القباب الباقية على مدفن قبة المنصور قلاوون التى بنيت سنة ٦٨٣ هـ فوق غرفة الدفن المربعة الشكل المجاورة للمدرسة .

القصور : من أهم القصور المتبقية حتى الآن قصر الأمير بشتاك الناصرى (سيف الدين) الذى كان أميراً مقربًا من الملك الناصر محمد بن قلاوون . بنى هذا القصر سنة

٧٤٢ هـ ، وهو يشرف من أعلاه على القاهرة والقلعة والنيل والبساتين ، ولم يبق من هذا القصر الآن سوى قاعة جميلة ذات سقف ونافورة متصلة بجامع السلطان حسن ، ومدخل حمام القصر المكسو بالرخام الملون .

- قصر قوصون خلف مدرسة الناصر حسن .

الخوانق (دور الصوفية) : الخانقاه الجاولية المنسوبة للأمير سنجر الجاولى الشافعى المتوفى سنة ٧٤٥ هـ .

الخانات : خان الخليلى الذى ينسب إلى سيف الدين جركس الخليلى أحد أمراء المماليك ، عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، بناه لراحة التجار وتخزين بضائعهم وعرضها للناس فيه .

الأسبلة : سبيل السلطان قايتباى بالصليبة (قرب السيدة زينب) بناه سنة ٨٨٤ هـ .

المستشفيات : مارستان المنصور قلاوون الذى بناه سنة ٦٨٣ هـ ، وقد اندثر معظم هذا المارستان ولم يبق منه إلا الأرض التى يشغلها اليوم مستشفى قلاوون الحديث للرمد . وكان المارستان جزءاً من مبنى يحوى جامعًا ومدفن للسلطان .

المدارس : المدرسة الظاهرية ، التى بناها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ هـ بمنطقة بين القصرين سابقًا (شارع المعز لدين الله حاليًا) ، وقد اندثرت هذه المدرسة واعتدى الناس على أرضها وأدخلوها فى أملاكهم كما دخل جزء منها فى شارع بيت القاضى ولم يبق منها اليوم إلا الإيوان الشرقى ، وهومعطل ويعرف الآن بجامع طاهر بشارع بيت القاضى . وباق أيضًا من هذه المدرسة الكتف الأيمن لمبناها الأصلى وعليه اسم منشئها وتاريخ انشائها .

مدرسة السلطان حسن : وكانت ملحقة بمسجده ، بناها سنة ٧٥٧ هـ ، ومازالت بعض آثارها باقية بجوار المسجد .

نهاية الدولة المملوكية والفتح العثمانى لمصر

إتسم حكم المماليك الجراكسة فى الفترة الأولى من برقوق حتى وفاة شيخ المحمودى سنة ٨٢٤ هـ بالفتنة والمؤامرات . ومن بعد وفاة المحمودى حتى نهاية الدولة تبدأ فترة أخرى زاد فيها حجم الفتن وكثر التنافس على الحكم . وكان أكثر ما يميز هذه الحقبة الثانية من حكم المماليك الجراكسة ثورة المماليك المشترين الذين كان يقوم بجلبهم كل سلطان جديد يتولى الحكم ، وعرفوا بأسم الجلبان . وظهرت قوة هؤلاء الجلبان حين صاروا أوصياء على أولياء العهود واستبدوا بالأمر . والملاحظ أن النزاع على السلطة فى تلك الفترة كان قويًا وحاداً وشهد على ذلك سرعة تغير السلاطين وقصر عهود حكم معظمهم . ففى مدة لا تزيد عن الأربع عشرة شهراً نشهد حكم أربعة سلاطين ، كذلك نشهد حكم أربعة آخرين فى مدة لا تتعدى السنتين ، ومن بين هؤلاء من حكم أقل من شهرين ، بل أن منهم من لم تزد سلطنته على ثلاثة أيام . ومن العجيب أن عدد سلاطين الجراكسة الذين طال حكمهم لا يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة من أمثال : خشقدم ، جقمق ، برسباى ، وقايتباى .

وفى عهد قايتباى ، آخر هؤلاء السلاطين الذين حكموا مدة طويلة ، والذى حكم لمدة عشرين عامًا حتى سنة ٩٠١ هـ ، ساءت أحوال البلاد وازدادت المؤامرات والفتن فى أواخر أيامه . وعند وفاته عين أمراء المماليك ابنه الصغير « محمد » ولقبوه بالملك الناصر وكان طفلاً ، وقُتل بعد حكم دام لمدة سنتين . وتولى بعد الناصر خاله الملك الظاهر « قانصوه الأشرف قايتباى » سنة ٩٠٣ هـ ، وقد خلع هذا السلطان عن الحكم بعد عشرين شهراً . وخلفه على السلطنة « الأشرف جانبلاط » سنة ٩٠٥ هـ ، الذى لم يحكم لأكثر من ستة شهور .

وتولى بعد جانبلاط الملك العادل طومان باى بن الأشرف قايتباى ، وخلع بعد حكم لم يدم لأكثر من مائة يوم فقط ، ثم تولى السلطنة من بعده الملك الأشرف قانصوه الغورى ، آخر سلاطين المماليك الجراكسة . وتقول المصادر المعاصرة لدولة المماليك أن الغورى ، قبل الحكم مكرها بناء على رغبة أمراء المماليك لكبر سنه . وقيل أن سبب اختياره لم يكن كبر السن والكفاءة ولكن بسبب ضعف شخصيته وإمكانية خلعه لو أراد أمراء المماليك ذلك . وقيل أن الغورى اشترط ، عند توليه السلطنة ، على أمراء المماليك ألا يقتلوه إذا هم أرادوا خلعه ، وهذا أكبر دليل على ضعف منصب السلطان آنذاك ومدى قوة الأمراء المماليك أصحاب النفوذ الفعلى فى الحكم .ولقد حاول الغورى ، قدر طاقته ، أن يتغلب على المشاكل الداخلية فى البلاد ويحد من عنف الصراع الدائر بين أمراء المماليك . وحين أطمأن الغورى على الجبهة الداخلية ، جاءه الخطر من الخارج ، ذلك الخطر الذى أطاح بحكمه وحكم دولة المماليك عموماً . وتمثل هذا الخطر الخارجى فى خطرين مختلفين أحدهما أوربى صليبى وهو الخطر البرتغالى ، والآخر تركى إسلامى وهو خطر الأتراك العثمانيين .

أما خطر البرتغاليين على دولة المماليك ، فلقد كان امتداداً للعدوان الصليبى على العالم الإسلامى ، ذلك العدوان الذى لم تحسم الحرب بين الطرفين أمره . فبرغم هزيمة الصليبيين العسكرية إلا أن دول أوربا الصليبيين انتهزت الفرصة المواتية للثأر من المسلمين وحسم أمر هذه الحرب لصالحها .

ولجأ الصليبيون إلى سلاح جديد فى عصر دولة المماليك ، غير سلاح الحرب ، وهو سلاح الحرب الاقتصادية . وقد شرع قادة الصليبيين فى تنفيذ خطة الحرب الأقتصادية ضد مصر ، قلب العالم الإسلامى بهدف ضرب اقتصادها وحرمانها من مصادر ثروتها المادية التى هى أساس قوتها العسكرية وتفوق هذه القوة . وفكر الغرب فى كشف طريق آخر للتجارة العالمية لا يمر بمصر والشام حتى تحرم الدولة المملوكية من العائد المالى الذى تحصله من هذه التجارة . ونجح الصليبيون فى كشف

هذا الطريق الجديد يوم نجح المستكشف البرتغالى « بارثلميو دياز » فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح الذى يدور حول الطرف الجنوبى لقارة افريقية سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧م . وتبع هذا الكشف كشف « فاسكودا جاما » الذى وصل إلى الهند عبر هذا الطريق سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨م .

وقد أحدث هذا التحول الكبير فى طريق التجارة العالمية هزةً كبيرة لاقتصاد مصر المملوكية حين تحول التجار إليه رغم طوله وكثرة تكلفته وزيادة المخاطر به . إلا أن النتيجة التى أرادها الغرب الصليبى والهدف الذى رسموا من أجله قد تحقق وهو حرمان مصر من مصدر قوتها العسكرية ومنع هذا العائد المادى الذى كانت تحصله من هذه التجارة وكان يشكل أهم دخل للدولة آنذاك ، ولا نبالغ إذ قلنا أنه كان يشكل كل دخل الدولة .

ولقد شاركت الممالك التجارية الإيطالية مصر فى هذا التأثر وبخاصة البندقية ، ذلك لأن سفن هذه الممالك كانت تحتكر نقل المتاجر عبر البحر المتوسط من أوربا وإليها فى هذه التجارة العالمية بين الشرق والغرب . وقد حرضت البندقية السلطان الغورى بإرسال حملة إلى « قاليقوط » لطرد البرتغاليين من الهند ومحاربتهم فى مياه البحر الأحمر .

وأعد الغورى حملة بحرية كبرى سارت إلى البحر الأحمر سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ بقيادة نائب جدة « حسين الكردى » ، إلا أن هذه الحملة والأسطول المصرى منى بهزيمة ساحقة من الأسطول البرتغالى ، المجهز بأحدث آلات القتال وأخفها ، فى معركة ديو البحرية سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩م . إلا أن السلطان الغورى لم ييأس ، وعاود بعض المحاولات الأخرى فى القتال ، وحاول جهده أن يتصدى لهذا الخطر ، إلا أن الخطر الذى داهمه من ناحية الشام منعه من مواصلة هذه الحرب ضد البرتغاليين وجعلته يترك حلبة البحر الأحمر والمحيط الهندى للبرتغاليين ويتفرغ للدفاع عن مصر والشام . وبذلك انتهت هذه الجولة الصليبية الجديدة لصالح الصليبيين .

أما عن العثمانيين ، فكانت قوتهم قد ظهرت فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وأخذت هذه القوة آنذاك فى الكبر والأتساع . إلا أن المد المغولى الأول بقيادة هولاكو أوقف أتساع هذه الدولة ، فتحركوا تحت ضغط الزحف المغولى ، إلى منطقة آسيا الصغرى وأستقروا فيها على حساب دولة سلاجقة الروم هناك التى كان قد ضعف أمرها وسادها التفتت والتمزق . ومن هذه المنطقة داخل أوربا على حساب ممتلكات الدولة البيزنطية ، بعد أن عبروا الشاطئ الأوربى عبر المضايق .

وتعرض العثمانيون للمرة الثانية ، لخطر كبير كاد يقضى على دولتهم فى مهدها ، وهو خطر غارات التتار بقيادة تيمور لنك . وقد هزمهم تيمور لنك فى معركة أنقره سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م وأسر سلطانهم « بايزيد الأول » الذى مات فى الأسر فى العام التالى .

لكن العثمانيين ، تنفسوا الصعداء بعد وفاة تيمور لنك وانقسام دولته من بعده ، وتمكن السلطان العثمانى محمد الأول من إعادة بناء الدولة واستئناف توسعها من جديد ، فى أوروبا ، فى منطقة البلقان . وكان قمة انتصار العثمانيين حين أسقط سلطانهم محمد الثانى (الفاتح) القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية ، فى أيديهم سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م ، وأنهى بسقوطها الدولة البيزنطية .

ولقد أحدث سقوط القسطنطينة فى يد المسلمين دويًا هائلاً وحزنًا شديداً فى أوربا ، ويعد هذا الحادث من أهم أحداث التاريخ حتى أن المؤرخين جعلوا عام سقوط القسطنطينة فى يد المسلمين عام بداية التاريخ الحديث ونهاية تاريخ العصور الوسطى . وتخوفت أوربا من الفتح العثمانى الإسلامى الذى طرقت قواته أبواب فينا ، وقدّر ملوك الصليبيين النهاية الخطيرة والمصير القاتل الذى ستتعرض له أوربا

والديانة المسيحية لو واصل العثمانيون هذا الزحف . إلا أنه لحسن حظ الأوربيين أن العثمانيين غيروا سياسة فتوحهم آنذاك من التوجه للغرب إلى التوجه لبلاد الشرق الغنية ، وأنقذت بذلك أوربا من خطر السقوط الأكيد فى يد المسلمين .

وكان من الضرورى أن يقع الصدام بين العثمانيين والمماليك خاصة بعد نجاح العثمانيين فى حربهم مع أعدائهم الشيعة الصفويين ، بإنتصار السلطان سليم الأول العثمانى على الشاه اسماعيل الصفوى حاكم الدولة الصفوية فى إيران سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م ، واقترابهم من ممتلكات مصر عند حدود العراق .

وقد بدأ الصدام العثمانى المملوكى أيام حكم جقمق وقايتباى ودخل فى دوره الحاسم فى عهد قانصوه الغورى .

وكان السلطان العثمانى سليم الأول قد توجه ، بعد احرازه النصر على الصفويين ، إلى الجزيرة والموصل واأستولى عليها وعلى بعض الأراضى الداخلة ضمن حوزة دولة المماليك . ومن هنا تحرك السلطان الغورى لوقف التقدم العثمانى قبل أن يفاجأ بالقوات العثمانية وهى تطرق أبواب مصر . فخرج الغورى بنفسه على رأس جيش كبير سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م إلى الشام وأناب عنه فى السلطنة الأمير « طومای بای » .

ووقعت بين الجيشين معركة حاسمة عند منطقة « مرج دابق » ببلاد الشام ، وكادت نتيجة اللقاء تصبح لصالح قوات مصر ، لولا خيانة نائب حلب « خير بك » وانسحابه بقواته من ميدان القتال وإشاعته لمقتل السلطان الغورى فى المعركة . وقد أدى ذلك إلى بلبلة المقاتلين المصريين وتفرق صفوف المماليك وانهيار مقاومتهم . ولم

يتحمل السلطان الغورى الصدمة ، لكبر سنه ، فسقط مغشياً عليه من على فرسه وتوفى فى ساعته . واستولى السلطان سليم ، بعد هذه المعركة ، على دمشق وغزة وأخذ يشق طريقه فى صحراء مصر الشرقية متوجهاً إلى القاهرة ليفتح مصر بعد أن فتح الشام .

ولقد اختار سلاطين المماليك « طومان باى » سلطاناً سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م ، وجهز قواته لمحاربة العثمانيين ، وكان طومان باى قائداً شجاعاً مقداماً لم يهزه انتصار العثمانيين وكان شديد الثقة بإمكانية إحراز النصر عليهم . وطلب طومان باى من قواد المماليك أن يتجهزوا بقواتهم للذهاب إلى الشام لملاقاة العثمانيين هناك وتخليص الشام من أيديهم إلا أن هؤلاء القواد تخاذلوا وسئموا القتال وأعلنوا أنهم غير قادرين عليه . فما كان من طومان باى إلا أنه جمع صبيانه ومماليكه وعامة الشعب المصرى لمواجهة العثمانيين ، وخرج بهذا الجمع إلى منطقة « الريدانية » للتصدى للجموع العثمانية الزاحفة .

وعند الريدانية التقى الجيشان الغير متكافئآن ، فهزمت قوات طومان باى ، إلا أنه أنسحب بما تبقى لديه من هذه القوات ودخل القاهرة للدفاع عنها وإخراج القوات العثمانية منها ، ونجح بالفعل فى إخراج هذه القوات بعد أن دخلت العاصمة . لكن الخيانة لعبت دورها فى هزيمة قوات مصر وإنهيار المقاومة أمام العثمانيين ، ذلك لأن طومان باى فوجئ بخيانة البدو ومهاجمتهم لمؤخرة جيشه على ضفاف النيل بالجيزة الأمر الذى أوقع قوات مصر بين شقى الرحى . فأضطر طومان باى للأنسحاب بقواته إلى منطقة « وردان » بالجيزة حيث دارت معركة قصيرة سريعة انتصر فيها العثمانيون ، واضطر طومان باى للهرب ، بعد أن بذل كل ما فى جعبته ، إلى أحد

مشايخ الأعراب بمنطقة البحيرة طالبًا حمايته ، وكانت لطومان باى أفضال عليه . ألا أن هذا الشيخ غدر بطومان باى وسلمه للعثمانيين ليشنقه السلطان سليم الأول ويعلقه على باب زويلة سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م اعلانًا لهزيمة مصر وسقوطها فى يد العثمانيين .

وبإستيلاء العثمانيين على مصر ، تحولت مصر من دار خلافة إلى ولاية تابعة للدولة العثمانية . وأنتقلت الخلافة من عاصمتها القاهرة إلى القسطنطينة عاصمة الدولة العثمانية بعد أن صار حكام العثمانيين خلفاء يجمعون بين الخلافة والسلطنة . وبهذه التبعية المصرية للدولة العثمانية تدخل مصر التاريخ الحديث فى دور جديد من أدوار حكمها يختلف تمامًا عن الأدوار التى مرت بها وغطت أحداثها القرون التسعة السالفة .

* * * *

تم بحمد الله تعالى

أهم مصادر تاريخ مصر الإسلامية

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ .

ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور .

البلاذرى : فتوح البلدان .

البلوى : سيرة أحمد بن طولون .

ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون .

ابن الداية : المكافأة .

ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى .

ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها .

ابن سعيد الأندلسى : المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الأول .

سعيد بن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق .

السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .

أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين .

الطبرى : تاريخ الرسل والملوك .

ابن عبد الحكم : فتح مصر وأخبارها .

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا .

الكندى : القضاة والولاة .

أبو المحاسن ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .

المسبحى : أخبار مصر .

المسعودى : التنبيه والإشراف .

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر .

المقريزى : أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا .

المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة .

المقريزى : السلوك فى معرفة دول الملوك .

المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

ابن ميسر : أخبار مصر .

ناصر خسرو : سفر نامة . (مترجم)

ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .

ياقوت : معجم البلدان .

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة

فهرست الموضوعات

الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٩٧ / ٣٣٣٦

ترقيم دولى

977 - 19 - 2843 - 0



مطابع الدار الهندسية/القاهرة
تليفون/فاكس : (٢٠٢) ٥٤٠٢٥٩٨